الجمهـــوريـــة الجـزائـريـة الديـــمقراطيـة الشـعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة الـتـعـلـيـم الـعـالـــي و الـبـحـث الـعـلـمـي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية
Faculté des sciences humaines et de la civilisation islamique
جامعة وهران
Université d'Oran
قسم الحضارة الإسلامية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه

في التاريخ والحضارة الإسلامية موسومة بـ:

منهجية الكتابة التاريخية عند القلقشندي

من خـــلال

كتابه مآثر الإنافة في معالم الخلافة

إعداد الطالب:
قدور وهراني

إشراف:
أ.د. محمد بن معمر

لجنة المناقشة:

أ.د بن نعمية عبد المجيد (جامعة وهران).....رئيساً

أ.د بن معمـــــر محمـــــد(جامعة وهران).....مشرفاً

أ.د مبخـــــوت بودواية(جامعة تلمسان).....مناقشاً

د. الحمـــــدي أحمـــــد(جامعة وهران).....مناقشاً

د.بن داود نصر الدين(جامعة تلمسان).....مناقشاً

د. بلبشـــير عمـــــر(جامعة معسكر).....مناقشاً

السنة الجامعية: 1434-1435/2013-2014

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور محمد بن معمر الذي لم يبخل علي بنصائحه العلمية من أجل أن أقدِّم في هذا العمل على أحسن وجه.

كما أتقدم بشكر خاص إلى السيد رئيس قسم الحضارة الإسلامية د. أحمد بحري، و د.شرف عبد الحق، كما لا أنسى كل أعضاء مخبر مخطوطات شمال إفريقيا وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبد المجيد بنعمية، وكل أساتذة قسم التاريخ بجامعة تلمسان

إهداء

إلى روح جدتي

إلى والدتي التي سهرت من أجلي

إلى والدي الذي أنفق و تعب لأصبح رجلا

إلى زوجتي التي عايشت مراحل هذا العمل

وساهمت فيه

إلى وصال وفاروق قرة عيني

إلى كل نفس طيبت عزيزة في هذا العالم

أهدي هذا العمل

مُقَدِّمَةٌ

تطورت الكتابة التاريخية عند العرب منذ القرن الهجري الأول، فبعدما تميزت في بدايتها بالرواية الشفهية المليئة بالخرافة والتصور الأسطوري لشخصيات أيام العرب في الجاهلية، أصبحت أكثر دقة، وأضحى المهتمون بها يمحصون في السند والمتن ويهتمون بالراوي والرواية، تأثرًا بعلم الحديث، فدخل علم التاريخ مرحلة مهمة.

عرفت الكتابة التاريخية بعد ذلك نقلة نوعية نحو الدقة مع الاهتمام باستعمال الوثيقة، فقد كان الكلام قبل ذلك عن المواثيق والاتفاقات الادارية والدبلوماسية في حالتي السلم والحرب حديثاً نظرياً مجرداً تختلف حول مضمونه الروايات والآراء، لكن استعمال الوثيقة التي تتضمن تفاصيل هذه الاتفاقات جعلها واضحة أكثر ورفع عنها اللبس وجنبها الاختلاف.

يعتبر القلقشندي من أهم مستعملي الوثيقة الادارية في تدعيمه لصحة الأخبار التي ينقلها، فقد كان ذلك من أهم ما ميَّز منهجه التاريخي، وقد ساعده على ذلك تقلده للعديد من الوظائف الإدارية التي سمحت له أن يطَّلع ويستعمل الوثائق الرسمية سواء الأرشيفية القديمة أو التي أشرف على تدوينها هو شخصياً.

لقد كانت مرحلة الموسوعات الكبرى من أهم مراحل تطور علم التاريخ، رغم أن هذه المؤلفات الضخمة لم تكن تاريخية خالصة، وإنما كانت مزيجاً بين عدة علوم وفي مجالات مختلفة منها الجغرافيا والأدب والنظم السياسية والاقتصادية والعمران والخطط؛ ورغم كل هذا التنوع في المادة إلا أنها أخذت الطابع التاريخي على الأقل من حيث الطرح وشكل تقديم المادة، فقد برز بشكل واضح من خلال هذه الموسوعات استعمال المنهج التاريخي للوصول إلى الأهداف المسطرة والموضوعة لها.

برز القلقشندي من بين أهم أصحاب هذه الموسوعات من خلال مؤلفه الضخم "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، فقد كان الهدف من تأليفه لكتابه هو تقديم نصائحه لكل

العاملين في مجال الكتابة الديوانية، فخاض في كل العلوم التي يحتاج لها هذا النوع من الوظائف، وكل المعلومات التي يجب أن يعرفها من أجل أن يقوم بعمله على أحسن ما يرام.

اهتم المؤرخون كثيرا بدراسة تراث القلقشندي من خلال كتابه "صبح الأعشى" واعتبروه كتابا غنيا بالمعلومات التاريخية التي عالجت المرحلة التي عايشها أو التي سبقته.

ألَّف القلقشندي عدة كتب في علوم مختلفة، ومنها التاريخ والأنساب والأدب، إلا أن معظم الباحثين الذين اهتموا بمؤلفات القلقشندي وتراثه انصرفوا إلى دراسة كتابي "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" المذكور سابقاً و"نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" وأهملوا باقي الكتب ومنها كتاب "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" الذي يمكن القول أنه كتابه التاريخي الوحيد، غير أن هذا الكتاب لم يكن له نصيب كبير من الدراسة، رغم ما يحتويه من مادة علمية تاريخية مهمة ونادرة في بعض الأحيان.

إن كتاب "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" من الكتب القلائل التي أُلِّفت في موضوع الخلافة الإسلامية وتطورها، فتطرق إلى أهم الأحداث التي عرفها التاريخ الإسلامي والمرتبطة بخطة الخلافة منذ زمن النبي ﷺ إلى الفترة التي عاشها، وطرح من خلال ذلك اشكالية مهمة لطالما شغلت علماء النظم الاسلامية وهي إشكالية شرعية الخلافة، وقد عالج القلقشندي هذه القضية من الجانب التاريخي، من خلال سرده لأحداث تطور الخلافة، ممهدا لها في الجزء الأول بذكره مفهوم الخلافة، شروطها وكيفية انعقاد البيعة، وقد حرص في كل ذلك على المزج بين السياسة الشرعية وأحداث التاريخ الإسلامي.

تعتبر الخلافة الإسلامية من المواضيع التي أثارت اهتمام الفقهاء والمؤرخين منذ العصور المتقدمة من التاريخ الإسلامي، وكثيراً ما احتوت مؤلفاتهم على مسائل تتعلق بها، لكن القليل منهم من أفردها بتأليف.

لقد حاول القلقشندي المزج بين أسلوبه الأدبي الذي عرف به كموظف في ديوان الإنشاء، وأسلوبه التاريخي الذي امتاز بحسه النقدي، فكان مطالبا من أجل البرهنة على الأفكار التي يطرحها إلى المزج بين أسلوب أدبي مقنع وحادثة تاريخية مناسبة والواجب الإلمام بين الاثنين.

ونحن إذ نختار هذا الموضوع فذلك رغبة منا في توضيح الجانب غير المدروس من كتابات القلقشندي وهو منهجية الكتابة التاريخية في كتابه "مآثر الإنافة في معالم الخلافة".

إن الحديث عن هدف البحث يعيدنا إلى الحديث عن سبب إختيار الموضوع ذلك أن موضوع منهجية الكتاب التاريخية عند القلقشندي من خلال كتابه "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" يتطلب دراسة معمقة لما هو وراء المعلومة التاريخية وكيف سيقت ولماذا أوردت في المكان معين ولم ترد في غيره.

وقد سبقتنا للتطرق إلى جانب من الموضوع دراسة أخرى من إنجاز الطالبة "ظمياء محمد عباس السامرائي" من جامعة بغداد، بدراسة بعنوان: المنهج التأريخي عند القلقشندي – دراسة تحليلية– لكن هذه الدراسة تناولت جميع مؤلفات القلقشندي، ولم تختص بكتاب "مآثر الإنافة".

إن الهدف من دراستنا هو معرفة منهج القلقشندي في تعامله مع المادة التاريخية التي استعملها والطريقة التي أورد بها أفكاره ومعلوماته التاريخية، ومقارنتها تارة مع كتابه "صبح الأعشى" لتمييز الاختلاف بينهما وتارة مع المصادر التي استعملها الكاتب وتارة أخرى مع طرق مختلف المؤرخين الذين عالجوا نفس الموضوع.

إن طبيعة الموضوع يحدد المناهج اللازمة للبحث، لذلك سنستعمل المنهج التاريخي المقارن بين الأحداث التي يوردها القلقشندي في كتابه وما ورد في باقي كتب التاريخ

الإسلامي، ثم نعتمد الاستقراء والتحليل لكشف المنهج المستعمل في كل مرحلة من مراحل كتاب "مآثر الإنافة".

استعمل القلقشندي مادة تاريخية هامة، وقام بمجهودات علمية كبيرة فلجأ إلى عدة طرق ومناهج ليستدل على صحة الخلافة الإسلامية في بعض مراحل التاريخ وعدم صحتها في مراحل أخرى، فما هي الطرق التي سلكها بالوصول إلى هدفه؟ وما المنهج التاريخي الذي اعتمد عليه في معالجة مختلف القضايا المطروحة بين يديه؟ وهل تميز القلقشندي بأسلوب خاص ميزه عن باقي مؤلفي التاريخ الاسلامي والنظم الإسلامية؟

استعملنا خلال مختلف مراحل البحث العديد من المصادر التي يمكن أن نصنفها إلى ثلاثة أصناف:

أولهما: المصادر المتعلقة بسيرة القلقشندي والظروف التاريخية التي أحاطت به؛ فقد استعملنا عند تناول سيرته مجموعة من المصادر من أهمها "إنباء الغمر بأبناء العمر" لأبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ/1448م)، وكتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" لشمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت: 902هـ/ 1497م)، وكتاب "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" ليوسف جمال الدين أبو المحاسن ابن تغري بردي (ت: 874هـ/1470م)، وهي ثلاث مصادر مهمة في دراسة سير الأعلام، وكان لها نصيب هام في دراسة شخصية القلقشندي وسيرته.

أما المصادر التي تطرقت إلى أحداث العصر فنذكر منها كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ليوسف بن تغري بردي، وكتاب أحمد بن علي تقي الدين المقريزي (ت: 845هـ/1441م) "السلوك لمعرفة دول الملوك"، وحاولنا الموازنة بين المعلومات المختلفة أحيانا والمتناقضة أحيانا أخرى المتعلقة بحياة القلقشندي.

– وثانيهما: المصادر المستعملة في تحليل مادة القلقشندي والتي استعان بها هو أيضا في تأليف كتابه والتي حاولنا أن نقارن من خلالها بين مادة "مآثر الإنافة" وبين مصادره الأصلية، ونذكر من أهمها كتاب "الأحكام السلطانية" لأبي الحسن علي الماوردي (ت: 450هـ/1058م)، وقد اعتمد عليه القلقشندي في المراحل الأولى من الكتاب، وذلك في ضبط تعريف الخلافة وشروطها ورسومها، وكتاب عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/ 1406م) "العبر وديوان المبتدأ والخبر"، الذي بدوره تناول الكثير من الأحداث والقضايا التي تطرق إليها القلقشندي فيما يخص تطور الخلافة والأحداث المتعلقة بها؛ أما المادة التاريخية التي وظفها الكاتب فقد نقلها من كتاب "المختصر في تاريخ البشر" لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل صاحب حماة (ت: 732هـ /1331م)؛ وفي حديث القلقشندي عن تاريخ الخلفاء وذكر نوادرهم استعان القلقشندي بابن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م) في كتابه "نقط العروس في تواريخ الخلفاء"، وقد كان التنوع الذي تميزت به المصادر خادما للموضوع فقد اعتمد الكاتب في كل مرحلة من الكتاب على مصدر معين.

– ثالثها: كتب القلقشندي التي اشتركت في مادتها بكتاب "مآثر الإنافة" وقد استعملنا كتابين وهما: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" وهو موسوعة القلقشندي وكتابه الذي اشتهر به، وقد استفدنا من خلاله على الكثير من الأمور أهمها تناوله هو أيضاً لخطة الخلافة في أحد أجزاء الكتاب، واستعماله للكثير من الوثائق والنصوص التي تكررت في كلا الكتابين، وقد كان القلقشندي أحيانا يتفادى تكرار النصوص والمواثيق في كتابه "مآثر الإنافة" فيُحيل القارئ إلى كتابه "صبح الأعشى"؛ أما كتاب "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" فقد كان استعمالنا له أقل، واقتصر على ذكر أنساب بعض الخلفاء، أو الشخصيات التي ورد ذكرها في الكتاب، وقد خصصنا في الفصل الثالث مبحثا خاصا للمقارنة بين كتاب مآثر الإنافة وباقي كتب القلقشندي.

وقد جعلتنا قلة المراجع والدراسات، نقوم بمجهود شخصي، فكنا نعود لكتاب "مآثر الإنافة" كل مرة للاستشهاد بالأفكار التي نصوغها والبرهنة عليها من خلال مادة هذا الكتاب، فكان أهم مصدر اعتمدنا عليه، وكيف لا وهو موضوع البحث ومجاله التطبيقي.

وفي إطار حديثنا عن المراجع أذكر كتابين مهمين اعتمدنا عليهما في البحث وهما كتاب المنهج التأريخي عند القلقشندي – دراسة تحليلية – للدكتورة ظمياء محمد عباس السامرائي، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه نوقشت بجامعة بغداد، وتناولت بالدراسة جميع مؤلفات القلقشندي، وركزت أكثر على كتاب "صبح الأعشى" وقد أهملت نوعا ما باقي كتبه مثل ما حدث عند معظم المؤرخين الذين تناولوا تراث القلقشندي بالدراسة؛ واعتمدنا كذلك على كتاب "أبو العباس القلقشندي مؤرخاً" للدكتور محمد كمال الدين عز الدين، ورغم أن هذا الكتاب صغير الحجم إلا أنه خصص جزءاً لكتاب مآثر الإنافة، مثلما خصص جزءاً لكتاب صبح الأعشى، لينهي دراسته بمقارنة بين الكتابين.

وقد فرضت الاشكالية المطروحة الخطة المناسبة للبحث، فقد قسمنا بحثنا إلى ثلاث فصول، سرنا فيها بالتدرج من العام إلى الخاص، أي بالظروف التاريخية السياسية والثقافية التي عايشها القلقشندي والتي ساهمت في صنع شخصيته، إلى وصف الكتاب من حيث الشكل والمضمون، إلى منهجه في الكتابة التاريخية في كتابه "مآثر الإنافة".

بدأنا في الفصل الأول بتناول عصر القلقشندي وظروفه السياسية والثقافية والعلمية، ومدى تأثير إحياء سلاطين المماليك للخلافة الإسلامية ونقلها إلى مصر على مختلف المجالات خاصة السياسية والعلمية والثقافية؛ ثم تحدثنا عن الظروف الصعبة والهجمات التي تعرض لها المشرق الإسلامي على يد المغول والصليبين.

لقد تطرقنا إلى علاقة القلقشندي بأحداث عصره، خاصة عند حديثنا عن علاقته بالسياسة ومراكز صنع القرار السياسي من خلال الوظائف التي تقلدها في خطتي

القضاء والإنشاء، مما أثر على مادته العلمية وصحة المعلومة التاريخية التي قدمها، والتي كانت مدعومة بالوثائق الإدارية؛ ثم وقفنا بعد ذلك على نسب القلقشندي ومراحل تكوينه العلمي، منذ كان في قريته "قلقشندة"، ورحلته في طلب العلم، إلى الشام ومصر، ومواطن الوضوح والغموض في ذلك، حيث اعتبرنا أن المصادر التاريخية أهملت الكثير من مراحل حياة القلقشندي.

عند الحديث عن التكوين العلمي للقلقشندي ذكرنا أهم شيوخه، ومكانتهم العلمية في ذلك العصر، وذلك لمعرفة مستوى تحصيله العلمي، والملكات التي تميز بها والتي أثرت دون شك في تكوينه الذهني وإنتاجه الفكري، وخاصة في كتاب "مآثر الإنافة".

وقد تحدثنا عن مؤلفات القلقشندي، ومساهماته العلمية، وركزنا فيها على المؤلفات التي أخذت حظا كبيراً من الدراسة، دون أن نغفل بقية المؤلفات.

ثم تطرقنا في الفصل الثاني إلى كتاب "مآثر الإنافة" الذي هو موضوع الدراسة، فتعرضنا له من حيث الشكل والمضمون، فحددنا تاريخ تأليف كتابه "مآثر الإنافة"، وسبب تسميته بذلك، وسبب تأليفه، ولمن أهدي هذا الكتاب.

وانتقنا إلى الحديث عن تقسيم مواضيعه إلى أبواب وفصول، وقد فصلنا في ذلك وذكرنا ما يحتويه كلٌ منها، وكيفية جمع المادة وتصنيفها، وكيف كانت طريقة القلقشندي في النقل من المصادر، ومنهجه في الإسناد، وتعمده التنوع في ذلك دون ثباته في طريقة واحدة، من ذلك ذكره لمصادر أو اغفاله لذلك.

وعرضنا بالوصف ثم النقد لغة وأسلوب الكتاب، ومميزات أسلوبه التاريخي الذي مال إلى الأدبي في كثير من الأحيان، حين دعته الضرورة لذلك ليستشهد بالنصوص الشعرية، وخطب سياسية ذات الطابع الأدبي المقنع، ثم تحوَّل هذا الأسلوب إلى أسلوب رصين ودقيق مقنع يستعمل الشواهد التاريخية ليوصل القارئ إلى الفكرة التي يريدها دون ملل ولا إطالة.

أما من حيث المحتوى فقد تطرقنا فيه إلى مصادر الكتاب وطبيعة المادة العلمية التي استعملها المؤلف، ثم تصنيف مواضيعه، أما موضوع الكتاب الذي هو الخلافة، فقد نال نصيبا لا بأس به من الاهتمام فقد خصصنا له مبحثا خاصاً، وسميناه بالمادة التاريخية المتعلقة بالخلافة في كتاب "مآثر الإنافة" خاصة أن موضوع الكتاب هو خطة "الخلافة"، وتطرقنا فيه إلى مفهومها وحكمها وكيفية انعقادها وكذا رسومها وتقاليدها، وقمنا بالمقارنة بين المفهوم كما طرحه القلقشندي، وبين باقي مؤلفي النظم والإسلامية خاصة المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي.

وتطرقنا في الفصل الثالث إلى أهم مميزات المنهج التاريخي عند القلقشندي في كتابه "مآثر الإنافة"، وطريقة إدراجه وعرضه للمادة التاريخية، وأنواع الرواية المعتمدة، وطريقة الاستشهاد بالقرآن الكريم وكتب الحديث، ومقارنة الكتاب مع ما جاء فيه من مادة مع مصادره التي أخذت منه هذه المادة، وذلك لمعرفة منهجه في نقل المعلومة التاريخية، وذلك بمقارنة نصوص كاملة بشكليها الموجود في كتاب "مآثر الإنافة" والأصل الموجود في المصادر، خاصة التي ذكرناها عند الحديث عن مصادر الكتاب.

ونظراً لوجود علاقة وثيقة بين كتاب "مآثر الإنافة" وباقي مؤلفات القلقشندي فقد خصصنا الجزء الثاني من االمبحث مبحث للتكامل والتناقض بين مؤلفاته والمادة العلمية المشتركة بينهما، ونقد طريقة النقل من حيث النقل الحرفي، وكذا التصرف فيها، ثم الاقتصار على الإحالة إليها في حالات أخرى.

استعمل القلقشندي في تصنيفه لأنواع الخلافة منهجا مزيجا بين التاريخ والسياسة الشرعية، فمن أجل تصنيفه للخلافة المشروعة والخلافة الباطلة كان لا بد له أن يستعمل أراء الفقهاء في هذه القضية مدعما وجهة نظره بأحداث وشواهد تاريخية؛ وقد فرض علينا هذا تخصيص مبحث خاص بنقد منهجه التاريخي في تصنيف الخلافة، بعد عرض كل صنف.

لقد كان لزاما علينا تخصيص مبحث خاص بالنقد التاريخي، من حيث مميزات الاسلوب النقدي عند القلقشندي وكيفية نقده للرواية التاريخية في كتاب "مآثر الإنافة"، ثم نقده للمصادر التاريخية، وبعد ذلك نقده للوثائق التاريخية، وهو مجال القلقشندي الذي برع فيه.

وبما أن الكتاب خاص بالخلافة فقد خصصنا مبحثا خاصاً بالخلافة عند القلقشندي من خلال تصنيفه لها بخلافة مشروعة وخلافة باطلة، وكنا خلال كل تلك المراحل نناقش المادة التاريخية التي طرحها القلقشندي ونقارنها مع أصولها.

وقد واجهتنا خلال إنجازنا للبحث عدة صعوبات كان أهمها ندرة المعلومات التي تناولت بالدراسة كتاب مآثر الإنافة مع وفرتها في الحديث عن صبح الأعشى، مما جعلنا نقول بمجهود شخصي كبير لإخراج هذه الدراسة في شكلها المقبول.

الفصل الأول

حياة القلقشندي وظروف عصره

1- الظروف السياسية لعصر القلقشندي:

أ- نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية.

ب - المماليك: بين الحروب الصليبية وإحياء الخلافة العباسية وحملة المغول على الشرق.

2- الظروف الثقافية لعصر القلقشندي.

3- علم التاريخ في عصر القلقشندي:

أ - المنهج المتبع في كتابة التاريخ في مصر خلال هذا العصر.

ب- أهم مؤرخي العصر.

جـ- أهم التآليف التاريخية لهذا العصر.

4 - حياة القلقشندي:

أ- اِسم ونسب القلقشندي.

ب- مولده ونشأته تعليمه.

جـ- الوظائف التي تقلدها القلقشندي.

5- مساهمات القلقشندي العلمية:

أ - أهم مؤلفات القلقشندي.

ب- العلوم المساعدة لعلم التاريخ في مؤلفات القلقشندي.

عرف المشرق الإسلامي خلال القرون الثلاث من السادس إلى الثامن الهجري ومن الثاني عشر إلى والرابع عشر الميلادي وضعا سياسيا وحضاريا خاصاً، فقد تعرضت بلاد المسلمين لحملات الصليبيين والتتار، فكان لذلك انعكاسات على مختلف جوانب الحياة الحضارية، والسياسية والثقافية.

سياسيا كان ظهور دول واختفاء أخرى أهم ما نتج عن ذلك، أما اجتماعيا فظهرت طبقات اجتماعية وأجناس بشرية على الساحة أثرت وتأثرت بالأحداث بعلاقة سببية متبادلة، أما ثقافيا فقد أدى الصراع العسكري بين مختلف الدول التي ظهرت في تلك الفترة إلى ظهور تنافس حضاري نتج عنه نهضة علمية نوعية ومتنوعة شملت ميادين علمية مختلفة.

1- الظروف السياسية لعصر القلقشندي:

عرفت مرحلة القرون السادس والسابع والثامن الهجري والثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادي تحولات تاريخية مهمة على مستوى مصر والشام وتعدت ذلك إلى العلاقات بين الشرق والغرب، ويمكن تحديد الأحداث الكبرى لهذا الفترة بما يلي:

أ- نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية:

- سقوط الدولة الفاطمية:

نجح الفاطميون في الانتقال إلى مصر قادمين من بلاد المغرب سنة (358هـ/ 969م)، ووطدوا ملكهم ببناء مدينة القاهرة، فأصبحوا منافساً خطيراً للخلافة العباسية، واستطاعوا أن يتوسعوا إلى الشام والحجاز لكنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذا التوسع لعدة أسباب:

- تراجع نفوذ الخلفاء الفاطميين أمام قوة وسطوة الوزراء، منذ بدر الجمالي (ت: 516هـ/1121م)، الذي تمكن في أيام المستنصر تمكنا عظيما، ودارت الأمور على النحو الذي يريد، وبَعُدَ صيتُهُ وامتدحته الشعراء، وبعد وفاته قام بالأمر من بعده ولده الأفضل (ت:

516هـ/1121م)[1] الذي قتل بعده، إلى الوزير الضِّرْغَامَ (ت: 559هـ/ 1164م) الذي استنجد بالصليبين ضد المسلمين. وكان الكثير من الخلفاء يُوَلَّوْنَ الحكم قبل أن يبلغوا الحلم، مثلما حدث عند وفاة الفائز خليفة مصر الفاطمي يومئذ إحدى عشرة سنة، وكان مدبر دولته أبو الغارات. ثم قام بعده العاضد آخر خلفائهم، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان يومئذ قد ناهز الاحتلام[2]. وحدث للظاهر لإعزاز دين الله الذي كان تحت وصاية عمته[3].

– تنافس الوزراء وتناحرهم على الحكم: يصف ابن الاثير ذلك بقوله: " وكان في هذه السنة ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور، وضرغام، فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلوا له البلاد من منازع، فضعفت الدولة بهذا حتى خرجت البلاد عن أيديهم"[4].

– التعصب المذهبي الذي كانت عليه الدولة الفاطمية مما جعل الهوة تكبر بينها وبين الرعية، وهذا ما جعلها تعتمد على الأرمن والعبيد في بناء جيشها.

– عجز الدولة الفاطمية على الوقوف في وجه الحملات الصليبية مما جعل نور الدين محمود (ت:569هـ/1174م) يتدخل للعب هذا الدور مكانها[5].

ثم زادت أحوال الدولة الفاطمية سوءاً بمقتل الوزير "طلائع بن رزيك" (ت: 558هـ/1163م) وابنه ليحل محله الوزارة "شاور" الذي كان حاكماً للصعيد، ولكن حاجبه "ضرغام" دبَّر مؤامرة وعزله من الوزارة ليحل محله فيها،يقول ابن الأثير في ذلك: "ثم إن الضرغام

[1] – أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، ج 12، دار الفكر، 1986، ص 148.

[2] – نفســـــه، ج12، ص242.

[3] – نفســـــه، ج12، ص10.

[4] – أبو الحسن علي محمد عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، ج9، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص299.

[5] – نفســـــه،ج9، ص 305.

جمع جموعا كثيرة، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان، وظهر أمره، وانهزم شاور منه إلى الشام، على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وصار ضرغام وزيرا[1]، وهرب "شاور" من القاهرة ووجد "أموري" حاكم مملكة بيت المقدس المسيحية الفرصة سانحة ليتخذ من مسألة الجزية ذريعة لهجوم يشنه على الحدود المصرية عبر السويس سنة (558هـ/1163م).[2]

في ذلك الوقت كان "شاور" يتجه نحو بلاط "نور الدين محمود" في دمشق ليطلب حملة يستعيد بها كرسي الوزارة بالمقابل يعترف بسلطان نور الدين على مصر وثلثي إيرادات ومداخيل بيت المال[3]؛ وفعلا أرسل معه حملة يقودها "أسد الدين شريكوه" قال ابن كثير: "وطلب شاور منه عسكرا ليكونوا معه ليفتح بهم الديار المصرية، وليكون لنور الدين ثلث مغلها، فأرسل معه جيشا عليه أسد الدين شيركوه بن شادى، فلما دخلوا بلاد مصر خرج إليهم الجيش الذين بها فاقتتلوا أشد القتال، فهزمهم أسد الدين وقتل منهم خلقا"[4] ورافق أسد الدين شركوه في حملته ابن أخيه "صلاح الدين يوسف بن أيوب"[5] وكان عمره أنذاك سبع وعشرون سنة[6]، ويذكر ابن الأثير ذلك قائلاً: "سير نور الدين محمود بن زنكي عسكرا كثيرا إلى مصر، وجعل عليهم الأمير "أسد الدين شيركوه بن شاذي"، وهو مقدم عسكره، وأكبر أمراء دولته، وأشجعهم"[7].

---

[1] – ابن الكثير، البداية والنهاية، ج12، ص259؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص299.

[2] – قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، الايوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ص 23.

[3] – حمدي عبد المنعم محمد حسين، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000، ص10.

[4] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص248.

[5] – تحدثت مصادر تاريخ الدولة الأيوبية على أن أسرة صلاح الدين أسرة كردية من بلدة "دوين" على مقربة من أذربدجان، وقد رحل أبوه نجم الدين رفقة أخيه أسد الدين وقصدا العراق. حمدي حسين، المرجع السابق، ص7.

[6] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 24.

[7] – ابن الكثير، البداية والنهاية،ج12، ص247؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج9، 305.

سارع فيه "ضرغام" إلى طلب العون من الصليبين بعد أن بلغه نبأ الاتفاق بين "شاور" و"نور الدين محمود"[1]، وهكذا انتقل الصراع الاسلامي الصليبي من الشام إلى مصر، وكان هذا الصراع بمثابة المدرسة التي دخلها صلاح الدين ليتكوَّن عسكرياً، وكانت هذه النقلة أكبر من مجرد نقلة جغرافية، فقد كانت بمثابة تطور جديد في المفاهيم السياسية، وأدرك الطرفان أهمية السيطرة على مصر في حسم الصراع العسكري.[2]

غير أن الحملة التي قام بها الطرفان السني المسلم والمسيحي الصليبي باءت بالفشل بعد أن دامت ثلاث أشهر أي من مستهل شهر رمضان 559هـ/1164م إلى ذي الحجة من نفس السنة[3]، وبعدها اتفق الجانبان على الرحيل معاً عن مصر.[4]

لكن أسد الدين كان دائم التفكير في الرجوع إلى مصر خاصة بعد أن سمع من أخبار حول اتصال الوزير شاور بالإفرنج حيث يقول أبو شامة صاحب الروضتين في هذا الأمر: "وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه "[5].

وظل التنافس خفياً والتربص حاضراً، إلى أن جاءت سنة 562هـ/1166م، فأَذِنَ نور الين لشركوه أن يتجهز لفتح مصر، في حملة حظيت بمباركة الخلافة العباسية، في الوقت الذي استنجد فيه "شاور" بالملك الصليبي؛ والتقى الجمعان قرب مدينة المِنْيَا، فتقهقرت القوات الاسلامية إلى مدينة "المِنْيَا" ولحق به الجيش الصليبي، حيث كان النصر حليف

---

[1] – حمدي حسين، المرجع السابق، ص10؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص25.

[2] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 25.

[3] – أبو القاسم شهاب الدين الدمشقي المعروف بأبي شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة : بيروت، 1997، ص411.

[4] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 25.

[5] – أبو شامة، عيون الروضتين، ج2، ص 10.

المسلمين هذه المرة، وكان نصيب صلاح الدين في هذا النصر ملحوظاً في المعركة التي عرفت باسم معركة "البابين"[1].

غير أن السيطرة على مصر لم تتم إلا مع الحملة الثالثة التي تمت أواخر سنة 564هـ/1168م، والتي تمت بناءً على التوسل العاجل من جانب الخليفة الفاطمي العاضد، الذي ذاق ذرعاً من تصرفات وزيره "شاور" الذي اتصل بالإفرنج من أجل التخلص من تبعية نور الدين ورجال دولته، "وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم فأتوه على الصعب والذلول فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الإسراع في المسير فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم"[2]، ولم يجد شيركوه صعوبة في دخول القاهرة، والسيطرة على مصر من أجل تطويق الصليبين المتواجدين في فلسطين، وكانت مآثر صلاح الدين هذه المرة هي القبض على الوزير "شاور"، فأرسل برأسه إلى الخليفة حسب طلبه.[3]

وبتكليف من الخليفة الفاطمي "العاضد" تولى "أسد الدين شيركوه" الوزارة، قال ابن كثير: "بعث أسد الدين العمال في الأعمال وأقطع الإقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات"[4]، وأشرف صلاح الدين على تسيير دفة الإدارة نيابة عن عمه، غير أن هذا الموقف يبدو متناقضاً، فشيركوه هو قائد جيش سني يدين بالولاء للخلافة العباسية في بغداد وهو في نفس الوقت وزير في دولة شيعية هي الخلافة الفاطمية في القاهرة.[5]

---

[1] – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 328؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 26.

البابين: قرية كانت تقع جنوب مدينة المنيا المصرية. حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص15.

[2] – أبو شامة، عيون الروضتين، ج2، ص11.

[3] – قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق، ص 27.

[4] – ابن الكثير، البداية والنهاية، ج12، ص256؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص20.

[5] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 27.

ولما توفي أسد الدين شيركوه فجأة سنة 565هـ/1169م كانت قد مضت عليه تسعة أسابيع في منصب الوزارة، وكان من الطبيعي أن يخلفه ابن أخيه "صلاح الدين الأيوبي"[1]. لقد كانت وزارته هاته بمثابة الفترة الانتقالية في تاريخ مصر، ورغم تجربته العسكرية والادارية إلا أن الأمر لم يخلو من صعوبات، فقد نافس صلاح الدين في هذا المنصب الكثير من قادة جيش عمه، زيادة على رغبة الخليفة الفاطمي في اسناد منصب الوزارة لشاب حديث السن من أجل التأثير فيه، غير أنه استطاع أن يتغلب على كل هذه المصاعب[2] يقول ابن الكثير: "فلما توفي أسد الدين رحمه الله أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه، فولاه العاضد الوزارة وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه الملك الناصر"[3].

وقد كان أهم مشكل صادف "صلاح الدين" وهو كيفية السيطرة على الجيش الفاطمي المؤلف من عدد كبير من الفرسان البيض وثلاثين ألف من المشاة السود؛ فاستشعر الخطر منهم مبكراً ففكر في بناء جيش خاص به، ثم إخراج الجيش الفاطمي من القاهرة، وقضى على جزء هام منه بعد حدوث حركة تمرد قادها "جوهر" مؤتمن الخلافة[4]، وتم بذلك الوصول تحقيق هدفين تطهير الجيش الفاطمي وانضمام البيض (الأرمن) إلى جيش صلاح الدين، والقضاء على جوهر الذي كان في اتصالات سرية متقدمة مع الصليبين من أجل الانضمام إليهم في الحملة التي خطط لها، مما جعل صلاح الدين يخفف من قوة الحملة الصليبية خاصة بعد الامدادات التي وصلته من "نور الدين محمود"[5].

بعد فشل الحملة الصليبية على مصر عاد الجيش الصليبي خائبا إلى بيت المقدس سنة 565 هـ/1169م، وكان من أهم نتائج فشل هذه الحملة استقرار قواعد سلطان

[1] – حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص22.

[2] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 28.

[3] – ابن الكثير، البداية والنهاية، ج12، ص256.

[4] – حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص ص 24-25.

[5] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص29.

صلاح الدين على مصر، كما أنها اقنعت الجميع أن هذا القائد الشاب هو البطل الذي يتطلع إليه الجميع، بدلاً من أولئك الخلفاء الضعفاء والوزراء المتآمرين، الذين عانت منهم طويلاً الدولة الفاطمية، ففي سنة 566هـ/1170م أرسل إليه "نور الدين محمود" والده وباقي عائلته، فوزع عليهم الوظائف، الرئيسية بحيث أصبح هو صاحب السلطة التامة في مصر يقول ابن كثير: "وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين يطلب منه أهله وإخوته وقرابته، فأرسلهم إليه وشرط عليهم السمع والطاعة له، فاستقر أمره بمصر وتوطأت دولته بذلك، وكمل أمره وتمكن سلطانه وقويت أركانه"[1]؛ وكان نور الدين يلح على صلاح الدين باتخاذ خطوة هامة بإعلان الخلافة العباسية في القاهرة بدل الخلافة الفاطمية[2]، لكن صلاح الدين كان لا يزال مترددا في ذلك خوفا من وثوب أهل مصر عليه وامتناعهم عن ذلك[3]، وقد مهد صلاح الدين الأمر لذلك باتخاذه عدة إجراءات هامة حيث ذكر ابن الأثير ذلك قائلاً: "كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد السلطان حبسه، فهدمها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعية، وأزال ما كان فيها من الظلم، وبنى دار العدل وهي مدرسة للشافعية أيضا، وعزل قضاة المصريين، وكانوا شيعة، وأقام قاضيا شافعيا في مصر، فاستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة".[4]

وتم رسميا في محرم سنة 567هـ/1171م باعلان نهاية الخلافة الفاطمية في القاهرة وعودة مصر على حضيرة الخلافة العباسية، وكان الخليفة العاضد طريح الفراش حيث مات بعد أسبوع، فاستقامت الأمور لصلاح الدين في الحكم[5]، يقول ابن الأثير: "واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت مرضا شديدا، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار

[1] – ابن الكثير، البدايةوالنهاية، ج12، ص257.

[2] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص34.

[3] – حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص29.

[4] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص362 .

[5] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص34. حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص29.

أمراءه، فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين، ومنهم من خافهم إلا أنه ما يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين، وكتب بذلك (بالخطبة للعباسيين) إلى سائر بلاد مصر، ففعل، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا: إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة"[1]، وعند ابن كثير كلام في نفس الموضوع: "وفيها (أي في سنة سبع وستين وخمسمائة) فأمر صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر وأعمالها في الجمعة الثانية، وكان يوما مشهودا، ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك"[2].

– الدور التاريخي لصلاح الدين وقيام الدولة الأيوبية:

كان انفراد صلاح الدين بالسلطة في مصر مقدمة لدوره الكبير في تاريخ الصراع ضد الصليبيين. خاصة بعد وفاة نور الدين محمود وموت "أموري" ملك بيت المقدس سنة 569هـ /1174م، وكانت الخطوة الأخيرة والأهم في سبيل تأكيد زعامته هي معالجة في حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات حول تركته، فقد دخل كبار القادة في جيش نور الدين محمود في تنافس للوصاية على ابنه الصغير "الملك الصالح اسماعيل" الذي كان في الحادية عشر من عمره[3]، يقول ابن الأثير: "لما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده. وكان عمره إحدى عشرة سنة، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، وصار مدبر دولته"[4].

[1] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص365.

[2] – ابن الكثير، البداية والنهاية، ج 12، ص264.

[3] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص38.

[4] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص396.

لقد بدأت عرى الوحدة الاسلامية التي بناها نور الدين تتفكك وتنهار، وأخذ صلاح الدين يسوق اعتراضاته على ما يحدث، فقد صمم على إعادة بناء الوحدة العربية الاسلامية التي شادها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود من بعده، فكانت أول خطواته ضم دمشق بعد أن استغاث به حاكمها "شمس الدين محمد" سنة 570هـ/1174م، وفي نفس السنة أعلن نفسه ملكاً على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسي، وألغى جميع الضرائب التي تخالف أحكام الشريعة الاسلامية، وعمد إلى مسح آثار المذهب الشيعي وذلك ببناء المدارس السنية على المذهب الشافعي، فحول دار المعونة ودار العدل بالفسطاط إلى مدارس شافعية، وبنى مدرسة بمكان يعرف بدار الغزل (المدرسة القمحية)، كما أحل القضاء الشافعي، وبنى عدة مرافق مدنية أخرى منها "البيمارستان" أي المستشفى[1].

في سنة 577هـ/1181م، توفي "الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود"[2]، وبذلك خلت الساحة من أي وريث شرعي للمملكة التي بناها والده المتمثلة في الجبهة الاسلامية بين حلب والموصل ودمشق القاهرة. فاتجه صلاح الدين إلى حلب وحافزه في ذلك قرب انتهاء أجل الهدنة بينه وبين الصليبين من ناحية، والهدنة بينه وبين الأمراء المحليين في الشام والجزيرة من جهة ثانية[3].

وفعلا دخل صلاح الدين حلب منتصرا سنة 579هـ/1183م[4]، ثم الموصل سنة 571هـ/1185م، وبذلك ازدادت الجبهة الاسلامية تماسكاً[5]، يقول ابن الأثير في ذلك: "واستقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلا، فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف

[1] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص42.
[2] – أبو شامة، عيون الروضتين، ج3، ص75.
[3] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص36.
[4] – أبو شامة، عيون الروضتين، ج3، ص158.
[5] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص48.

هار، وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له"[1]. وقد فرح صلاح الدين بهذا الانتصار وعبر عنه بقوله: "ما سررت بفتح قلعة أعظم سرورا من فتح مدينة حلب"[2].

بلغت الفترة التي قضاها صلاح الدين في مصر الست سنوات من (572هـ/ 1176م- 577هـ/1171م) وقد كرسها لترتيب الأحوال الداخلية لتكون له قاعدة خلفية تمده بالدعم في جهاده ضد الصليبين.

قامت سياسة صلاح الدين خلال سنوات 577هـ/1181م إلى 580هـ/ 1184م على أساس تجنب أي اصطدام مع القوات الصليبية قبل توحيد القوى الاسلامية، وكانت ممهدة لمرحلة قادمة ممتدة بين سنتي 583هـ/1187م – 589هـ/1193م، فقد بدأت فيها معركة الاسترداد المنظم وتقليص الوجود الصليبي على أرض فلسطين. لقد كانت كل وجهات النظر الاسلامية قد اتحدت على هدف واحد هو القضاء على الصليبين، ووجد صلاح الدين تحت قيادته منطقة تمتد من النيل إلى الفرات بالإضافة إلى المساعدات المنتظرة من شتى أنحاء العالم العربي الاسلامي أنذاك، في الجانب الآخر كان المعسكر الصليبي مفككا، فعندما غادر الملك "بلدوين" سرير المرض بالناصرة، كان واضحا أنه لم يعد قادراً على تحمل أعباء الحكم، ولم يكن خليفته "جي لوزينان" في مستوى المسؤولية فَقَدْ فَقَدَ ثقة الجنود بسبب تصرفاته الطائشة، فثار عليه أتباع الملك وعاد إلى عسقلان وبدأت العداوة بين الاثنين[3]؛ في نفس الوقت سقطت الكرك في يد المسلمين بعد أن مثل حاكمها "أرناط" خطرا على خطوط التجارة بين الشام والحجاز ومصر[4].

[1] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 473.

[2] – ابن الكثير، البداية والنهاية، ج12، ص313.

[3] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص58.

[4] – نفســـه، ص59.

وجاءت معركـــة حطين[1] بتاريـــخ 25 ربيع الأول 583هـ الموافق لـ 4 يونيـــو 1187م، فكانت نقطة حاسمة في تاريخ الصراع الصليبي الإسلامي، فقد كانت الهزيمة الذي منيت بها القوى المسيحية أكبر مما يمكن تصوره، فقد كان عدد القتلى والجرحى هائلاً[2] فقد قال ابن الأثير: "وكثر القتل والأسر فيهم (الافرنج)، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا، وما أصيب الفرنج، منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن، بمثل هذه الوقعة"[3]، وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية فقد سارعت المدن والقلاع الصليبية على الاستسلام إما لصلاح الدين شخصيا وإما لقادة جيوشه.

كان بطل هذه المرحلة بدون منازع هو صلاح الدين الأيوبي قائد معركة حطين ومحرر القدس، غير أن الأمور قد تبدلت بعد وفاته؛ ففي الوقت الذي تضامنت مجموعة من الظروف لصنع هذا البطل الكبير، فقد أحدثت وفاته فراغاً شديدا، فقد أدى ذلك إلى تفسخ دولته، نظراً لعدم وجود خليفة مناسب له، فقد ظهر التفكك من جديد بين القوى الاسلامية، فقد تولى الملك الأفضل بن صلاح الدين حكم دمشق، والساحل وبيت المقدس، أما حكم مصر فقد أسندت لابنه الثاني وهو "العزيز عثمان"، أما حلب والمناطق المتاخمة لها فقد كانت من نصيب اِبنه الثالث الملك "الظاهر غياث الدين غازي"، كذلك نال إخوة صلاح الدين نصيبهم من تركة صلاح الدين[4]، غير أن هذا الوضع لم يدم فقد ظهرت شخصية أيوبية جديدة

[1] – حطين: بكسر أوله وثانيه، وياء ساكنة، ونون، قرية بين أرسوف وقيسارية، وبها قبر شعيب، عليه السلام، كذا قال الحافظان أبو القاسم الدمشقي وأبو سعد المروزي، ونسبا إليها أبا محمد هيّاج بن محمد بن عبيد بن حسين الحطّيني الزاهد نزيل مكة، حطّين بين طبرية وعكّا، بينه وبين طبرية نحو فرسخين، بالقرب منها قرية يقال لها خيارة. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ج2، ط2، دار صادر بيروت، 1995. ص274.

[2] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص64.

[3] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص26.

[4] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص84.

استطاعت أن تعيد الدولة على نفس الاراضي التي كانت عليها زمن صلاح الدين تقريباً، وهي شخصية "العادل سيف الدين أيوب" وهو حفيه، الذي استطاع التقريب من مواقف الفرقاء المسلمين، بشخصيته الميالة إلى الفكر الديبلوماسي والمبتعدة عن الاستعمال القوة.

غير أن نقطة الضعف كانت دائما ولاة العهد، فرغم العمل العظيم الذي كان يقوم به السلاطين الأيوبيين في جهادهم إلا أنهم لم يكونوا يهتموا بتحضير من يخلفهم.

وهذا ما انطبق على السلطان "العادل سيف الدين" الذي خلفه ابنه "توران شاه" الذي كان تنصيبه حاكماً مقدمة لزوال الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك.

ب – المماليك: بين الحروب الصليبية ومحاولة إحياء الخلافة العباسية وحملة المغول على الشرق:

– معنى المماليك وأصلهم:

يُقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين جاءوا إما نتيجة للأسر في ميادين الحرب أو جلبوا من طرف التجار إلى البلاد الاسلامية رغبة في بيعهم بأثمان مرتفعة للخدمة في القصور غالبا، واقترن لقب المماليك بالرقيق البيض دون السود، وكانت بلاد الترك من وسط آسيا وأنحاء كثيرة من أوربا ومن بحر البلطيق المصدر الرئيسي الذي يأتي منه المماليك وكان هؤلاء المماليك يفتخرون بأنفسهم وبانتمائهم إلى الأتراك[1]، وقد اهتم حكام الدول الاسلامية والخلفاء منذ الدولة العباسية بجلب المماليك حتى أن مماليك الخليفة العباسي المعتصم (ت:227هـ/842م) بلغت بضعة عشر ألفاً[2]، يقول أبو المحاسن ابن تغري بردي: "وفيها أسر عجيف جماعة من الزّطّ وقدم بهم بغداد، وكانت عدّتهم سبعة وعشرين ألفا؛ المقاتلة منهم اثنا

[1] – فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1 مطبعة جروس بيرس، طرابلس(لبنان) ص55.

[2] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص233.

عشر ألفا"[1]، وقد بنى لهم المعتصم مدينة خاصة بهم بعد أن اشتكى سكان بغداد كثيراً من سلوكات المماليك، يقول ابن تغري بردي: " اعتنى المعتصم باقتناء الترك، فبعث الى سمرقند[2] وفرغانة[3] والنواحى لشرائهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الدّيباج ومناطق الذهب، وأمعن فى شرائهم حتى بلغت عدّتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل: ثمانية عشر ألفا، وهو الأشهر؛ ولأجلهم بنى مدينة سامرّا"[4]، وحسب ابن طباطبا فقد ظهرت خطورة المماليك منذ الدولة العباسية "إلّا أنّ الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكّل على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه".[5]

انتسب المماليك إلى تجار النخاسة أحيانا وإلى سادتهم الذين اشتروهم أحيانا أخرى، وكانت تربط المماليك الذين نشأوا وعاشوا عند سيد واحد علاقة الخشدانية[6]، وكان المماليك يشعرون أن مختلفون عن الرقيق في باقي العالم الاسلامي فهم لا يوجهون للخدمة فقط بل قد يحررون وتُعهد لهم مناصب سياسية وعسكرية مرموقة مثل قيادة الجيش أو نيابة الأقاليم أو وظيفة من وظائف الدولة العليا نظرا للتربية الجيدة التي خضعوا لها في صغرهم، فقد اهتم السلاطين الذين توالوا على حكم مصر من أيوبيين ومماليك على تنشئتهم تنشئة إسلامية، ويدرسون الثقافة الاسلامية فيتعلمون القراءة والكتابة وحفظ القرآن والوقوف على معالم السيرة

[1] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص233.

[2] – سمرقند: بفتح أوّله وثانيه، ويقال لها بالعربيّة سمران: بلد معروف مشهور على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص248.

[3] – فرغانة: بالفتح ثم السكون، وغين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق، يقال كان بها أربعون منبرا، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص253.

[4] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص233.

[5] – محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، 1997، ص240.

[6] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 56.

النبوية الشريفة، حتى إذا فرغوا من ذلك انقلبوا إلى التدريب العسكري وتعلم أساليب الحرب وفنون القتال، فيتعلمون السباحة وركوب الخيل واللعب بالسيف والضرب بالرماح والمبارزة، فيكون جنديا كاملا يلتزم بالطاعة واتباع الأوامر وتنفيذها، وكان المملوك إذا ما ظهرت كفاءته وشجاعته في ميدان القتال أمكن ترقيته وعتقه وإدراجه في سلك وظائف الدولة[1]، يقول ابن خلدون: "وهذا كما وقع في دولة التّرك بالمشرق فإنّ غالب جندها الموالي من التّرك فتتخيّر ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرسانا وجندا فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشّظف من أبناء المماليك الّذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النّعيم والسّلطان وظلّه"[2].

وتظهر أهمية المماليك وازدياد نفوذهم السياسي في الدولة الأيوبية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي عندما تمكن هؤلاء من خلع العادل الثاني من الحكم وإحلال الملك "الصالح نجم الدين أيوب" (636هـ/1240م- 647هـ/1249م) محله في السلطنة وكان من نتيجة ذلك أن ازداد تقديره للعناصر المملوكية واستعملهم لتوطيد دعائم حكمه والاحتفاظ بملكه، فأكثر شراءهم فزاد نفوذهم، وسماهم بالمماليك "البحرية"[3]، يقول ابن خلدون: "أنّ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل قد استكثر من المماليك الترك ومن في معناهم من التركمان والأرمن والروم وجركس وغيرهم إلا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين ومنهم الصالحية نسبة إلى هذا الصالح أيوب ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح "[4]، وسادت علاقة الأستاذية

[1] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 56.

[2] – عبد الرحمن أبو زيد ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحاته، دار الفكر بيروت، 1988، ج1، ص213.

[3] – فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 61.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج5، ص430.

القوية بين السيد والمملوك لأنه هو الذي رباهم وانفق عليهم ورعاهم رعاية إسلامية، فنشأ عن ذلك رابطة لا انفصام لها بين المماليك وسادتهم، فيكونون دوما رهن إشارته وينفذون أوامره[1].

قيام دولة المماليك:

قامت دولة المماليك في ظروف صعبة، فقد واجهوا العدوان الصليبي على بلاد المشرق الإسلامي علاوة على خطر التتار الذي اقترب من بلاد الشام ومصر.

لقد كانت وفاة الملك "الصالح" في شعبان 647هـ/1249م بالمنصورة في الوقت الذي اجتمع فيه الصليبيون على الزحف إلى القاهرة، وأخفي هذا الخبر كي لا يصل مسامع العدو فيتشجع على غزو البلاد، وبقي الطعام والدواء يدخل غرفته كما لو كان حياً، بأمر من زوجته "شجرة الدر" بقصد عدم إذاعة الخبر، واستمرت الأوامر تخرج باسمه وعليها علامات السلطان، يقول ابن كثير: " وقوي المرض وتزايد بالسلطان جدا، فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفي إلى رحمة الله تعالى بالمنصورة، فأخفت جاريته أم خليل المدعوة شجرة الدر موته، وأظهرت أنه مريض مدنف لا يوصل إليه"[2] ولم يوص المِلِكُ "الصالح" بالمُلْكِ لأحدٍ، ولم يكن راضيا على تولية ابنه "المعظم توران شاه" من بعده لأنه لا يصلح لذلك، فمهَّد بإبعاده إلى حصن "كيفا" لكن "شجرة الدر" زوجة أبيه أرسلت في طلبه[3]، قال ابن كثير: " وأعلمت إلى أعيان الأمراء فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا، فأقدموه إليهم سريعا، وذلك بإشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ، فلما قدم عليهم ملكوه عليهم وبايعوه أجمعين".[4]

[1] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 56.

[2] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ، ص177؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص364.

[3] – فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 63.

[4] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ، ص177؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص364.

ورغم كل الاحتياط التي اتخذتها شجرة الدر إلا أن خبر وفاة الملك "الصالح" تسرب إلى "لويس التاسع" قائد الصليبين فرأى أن يسرع بتوجيه ضربته قبل أن ينظم المسلمون صفوفهم ويكملوا استعداداتهم، بملأ الفراغ الذي أحدثه موت الملك، وفعلا استطاعوا أن يهزموا المسلمين ووصلوا إلى مشارف القصر الملكي[1].

واستعد المسلمون من أجل مواجهة جديدة واستطاعوا أن يلحقوا هزيمة كبيرة بجيش الصليبين وانتهى الدور العسكري لصالح لويس التاسع والجيش الصليبي بأكمله تقريباً بين أسرى وقتلى، لكن السلطان الأيوبي الجديد "المعظم توران شاه" لم يكن في مستوى الحدث فقد أنب ووبَّخ أمراء يشه على الهزيمة الأولى وأساء معاملتهم، كما أساء إلى شجرة الدر زوجة أبيه رغم أنها حفظت له كرسي العرش حتى قدومه، فقررت رفقة معاونيها التخلص منه حتى لا تفسد البلاد بفساده وتضعف بضعفه فقتل يوم الاثنين التاسع عشر محرم سنة 648هـ/ 1250م[2]، وكان في ذلك نهاية دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك على يد "شجرة الدر" زوجة الملك "الصالح".

استطاعت شجرة الدر أثناء حكم زوجها الملك الصالح أن تتعلم الكثير من أمور الإدارة والسياسة، فقد كانت تخلفه في إدارة الشؤون الداخلية للملك في حالة خروجه للجهاد، مما جعلها سيدة دولة بامتياز، ورغم ذلك اضطرت إلى جمع أعيان الدولة للتشاور في امر السلطنة ومن يحكمها وفي الاخير استقر الرأي على تنصيبها على مصر على أن يكون مقدم الجيش هو "عز الدين أيبك التركماني الصالحي"، وأقسم والعساكر اليمين، وصارت الأمور كلها موكولة إليها وخرجت المراسيم والتوقيع وعلامتها "والدة خليل" وخطب لها على منابر مصر والقاهرة، ونقش اسمها على السكة، واستقر الأمر لها وكان ذلك سنة 648هـ/ 1250م[3]،

[1] – فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 63.

[2] – المقريزي، السلوك، ج1، ص472.

[3] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 63.

ابن تغري بردي: " وتسلطن بعده زوجة والده أمّ خليل شجرة الدرّ باتّفاق الأمراء وخشدا شينها المماليك الصالحيّة، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة".[1]

ورغم قدرة السلطانة على إدارة شؤون البلاد وحب المماليك لها إلا أن أمورا كثيرة تداخلت لتقف أمامها، فقد عارض ذلك الأيوبيون في الشام، أما الخليفة العباسي في بغداد فإنه غضب لتولي امرأة شؤون البلاد وأرسل إلى الأمراء يقول: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجلاً"[2].

أمام هذا الموقف اضطرت شجرة الدر أن تتنازل بالحكم للأمير عز الدين ايبك بعد أن تتزوجت منه، بعدما دامت فترة حكمها ثمانين يوماً، واسمه الكامل "المعز عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالتركماني، وكانت بداية حكمه في ربيع الآخر سنة 648هـ/ 1250م، واستتب له الأمر بعد مناوشات مع الأيوبيين الذي كانوا لا يزالون طامعين في استرداد حكم مصر وربطها بالشام[3].

وبعد أن استقر له حكم مصر فكَّر السلطان أيبك في توطيد علاقته بحاكم الموصل "بدر الدين لؤلؤ" وذلك بزواجه من ابنته، فلما علمت شجرة الدر بذلك الأمر دبرت مكيدة لقتله، قبل أن يتم الزواج فقتل في الحمام في ربيع الأول سنة 655هـ/1257م، يقول ابن كثير: "وقد كان عزم على تزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأمرت جواريها أن يمسكنه لها فما زالت تضر به بقباقيبها والجواري يعركن في معاربه حتى مات وهو كذلك، ولما سمع مماليكه أقبلوا بصحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قطز، فقتلوها"[4] وتولى عرش السلطنة من بعده ابنه علي وسمي بالملك المنصور نور الدين علي ولم يكمل خمس عشرة سنة، أما "شجرة

[1] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص372.

[2] – المقريزي، السلوك، ج1، ص464.

[3] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 69.

[4] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص196.

الدر" فقد قتلت بعد مقتل زوجها بأيام[1]، وعُيِّن الأمير سيف الدين قطز نائبا للسلطنة وصار له الشأن والتدبير[2].

مواجهة المماليك للتتار:

كل هذا حدث قبيل حملة التتار بقيادة "هولاكو" على المشرق الاسلامي، واستيلائهم على بغداد ومقتل الخليفة العباسي "المستعصم بالله" سنة 656هـ/1258م[3]، وهددوا باقي مناطق المشرق الإسلامي، فقد سيطروا على العراق وبلاد الشام ووصلوا إلى غزة في أواخر سنة 658هـ/ 1258م، وجاء الدور على مصر معقل المماليك لتتعرض لهذا الخطر.

لقد وقف صغر سن الملك المنصور عائقاً أمام مواجهة الخطر المغولي الصليبي، فقد أنكر قطز عليه ضعف شخصيته، خاصة بعد صمته وعدم جرأته في إتخاذ قرارات حاسمة في مواقف مصيرية، قال ابن تغري بردي: " ولم يتكلّم السلطان بكلمة فى المجلس لعدم معرفته بالأمور ولصغر سنّه؛ فلهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قطز حتّى يقوم بهذا الأمر المهمّ"[4]، وقال: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة[5]، يقول المقريزي: "وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور علي بن المعز أيبك واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير يوسف الدين قطز في أخذ السلطنة لنفسه"[6]، "وتمكن من ذلك يوم " يوم السبت رابع عشر ذي القعدة سنة خمس وخمسين وستمائة قبض قطز على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما واعتقلهم في برج بقلعة الجبل.

[1] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 70.

[2] – المقريزي، السلوك، ج1، ص495؛ فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص99.

[3] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 70.

[4] – ابن تغري بردي، السلوك، ج7، ص73.

[5] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص101.

[6] – المقريزي، السلوك، ج 1، ص507.

فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام"[1]، و"جلس الملك المظفر سيف الدين قطز على سرير بقلعة الجبل يوم السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة[2].

وتخلص قطز من معارضيه بتهويل خطر التتار، فقد عقد مجلسا للمشاورة والاتفاق على وضع خطة لمواجهة خطر التتار، واتفق الحضور وفي مقدمتهم العلماء العلماء والفقهاء والقضاة على بيعة قطز بالسلطنة ثم بايعه العسكر والأمراء والناس وأما من عارضه من الأمراء فقد أقنعه بأن أمر الجهاد ضد العدو هو فقط الذي يفرض على قطز القيام بأمر السلطنة فإذا انتهى خطر التتار وزال لم يعد لقطز بالسلطنة مكان ويمكن للأمراء تولية من يرغبون فيه[3]، قال ابن تغري بردي: "وجمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه فى أمر التّتار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، فحضروا فى دار السّلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عزّ الدين ابن عبد السلام والقاضى بدر الدين السّنجارىّ قاضى الديار المصرية وغيرهما من العلماء، وجلس الملك المنصور علىّ فى دست السلطنة"[4].

لقد أحس "المظفر قطز" بعظم الخطر وبدأ باعداد جيش قوي لمواجهة التتار، وهنا يجب الاشارة إلى دور العالم الكبير "العز بن عبد السلام" في حشد العامة لدعم الجيش بالمال والرجال[5]، حيث ذُكر عنه أنه قال في الإجتماع المذكور سابقاً: " فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السّلام، وخلاصة ما قال: إنّه إذا طرق العدوّ بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تاخذوا من الرعيّة ما تستعينون به على جهادكم"[6] وفي رمضان سنة

[1] – المقريزي، السلوك، ج 1، ص507.

[2] – نفســـــــه، ص507.

[3] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص101.

[4] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 72.

[5] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 139.

[6] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 73.

658هـ/1260م، دارت معركة عند عين جالوت على أرض فلسطين أسفرت عن هزيمة التتر[1].

لقد أُعتبرت فترة عشر سنوات من تاريخ دولة المماليك مرحلة مهمة في تكوين هذه الدولة وقد امتدت هذه المرحلة بين النجاح في دحر حملة لويس التاسع عشر الصليبية سنة (648هـ/1250م) وبين كسر شوكة الهجمة التترية سنة (658هـ/ 1260م)، ولاشك في أهمية انتصار الجيش الاسلامي في عين جالوت لتدعيم أركان هذه الدولة الناشئة[2].

ويمكن القول أنه رغم الدمار الذي لحق العالم الاسلامي من أثر الغزو المغولي فإن الحملات الصليبية كانت أكثر خطراً ودماراً، فالتتر كانت قوتهم عسكرية صرفة وبعد هزيمتهم ذابوا في الحضارة الاسلامية لكن الصليبين كانوا أصحاب مشروع لن يتحق إلا بالقضاء على الوجود الحضاري الاسلامي[3].

بعد الانتهاء من التتار وفي طريق العودة إلى القاهرة حدث خلاف بين السلطان قطز والأمير الظاهر بيبرس، فقد كان هذا الأخير يأمل في الحصول على نيابة حلب كمكافئة له على ما قدمه من بطولات في تلك المعركة الحاسمة، لكن الملك كان قد عين عليها علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ لكي يكون خليفة له يراقب حركة التتار، حيث قال المقريزي: "وسبب ذلك أن الأمير بيبرس سأل السلطان أن يوليه نيابة حلب فلم يرض فتنكر عليه"[4]، وكان هذا السبب كافيا للحقد على قطز، "فحدث بيبرس جماعة من الأمراء في قتل السلطان"[5]، فقتله واعتلى

[1] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 79؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص516 ؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 140.

[2] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 140.

[3] – نفســــــه، ص 141.

[4] – المقريزي، السلوك، ج1، ص519.

[5] – نفســــــه، ص519.

عرش المماليك، وكان ذلك إعلانا لبداية مرحلة جديدة من التاريخ وذلك بفضل الانجازات السياسية والعسكرية والإدارية التي سيحققها، ودام حكمه سبعة عشر عاماً[1].

كان لسقوط الخلافةِ أثر كبير على سير الأحداث التاريخية فقد جعل المماليكَ في ورطة شرعية وسياسية كبيرة، فقد ظلت الدولة العباسية منذ (132هـ- 750م) وعلى مدى مراحل طويلة من تاريخ العالم الاسلامي حامية للدين وجامعة لكلمة المسلمين حولها، فأصبح الخليفة بذلك رمزا من رموز هذه الوحدة، لكن حملة المغول على بغداد أدت إلى تصفية الخليفة المستعصم بالله (640هـ – 656هـ)/ (656هـ/1258م) آخر خليفة عباسي، غير أن الكثير من المسلمين استشعر خطورة الوضع وضرورة وجود شخصية ذات بعد روحي تجمع حولها كلمة المسلمين، فكانت فكرة بعث الخلافة الاسلامية من جديد، ولكن هذه المرة من مكان غير بغداد، بل من القاهرة، مما جعت الكثير يتساءلون عن النية وراء هذا التصرف وأبعاده السياسية.

بقدر ما كان لخلفاء العصر العباسي في بغداد، أمثال أبي العباس السفاح والمنصور والهادي والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم من قوة ومهابة وعظمة في قلوب المعاصرين لهم، بقدر ما كان لخلفاء العصر في القاهرة أمثال المستعين والمعتز والمعتمد والمقتدر من ضعف وذلة وخنوع وخضوع لقوة كبار القادة في الدولة والجيش[2].

لكن قوة الخلفاء العباسيين في بغداد لم تدم ولعل ما آل اليه أمر الخليفة المعتصم بالله من تلاعب على يد الوزير أبو طالب محمد بن أحمد مؤيد الدين بن العلقمي، ثم القتل على يد التتار لهو خير دليل على ذلك[3].

---

[1] – قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 142.

[2] – حامد زيان غانم، صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1978، ص09.

[3] – نفســـــه، ص10.

وعلى أية حال فقد انتهت الخلافة العباسية ببغداد نهاية مؤسفة على يد جحافل التتار وبمساعدة ابن العلقمي، تلك الخلافة التي استمرت قائمة أكثر من أربعة قرون ما بين قوة وضعف، ولكن حتى أيام ضعفها كان لاسم الخليفة وقع خاص في نفوس المسلمين[1]، يقول ابن خلدون: " لما هلك المستعصم ببغداد واستولى التتر على سائر الممالك الإسلامية فافترق شمل الجماعة وانتشر سلك الخلافة وهرب القرابة المرشّحون وغير المرشحين من قصور بغداد فذهبوا في الأرض طولا وعرضا"[2].

هذا ما استشعره الظاهر بيبرس (658هـ/1260م)- (676هـ/1277م) عقب انفراده بحكم مصر، فأحس أنه بحاجة إلى تأييد شرعي لملكه خاصة وأن كثيرا من الأعداء ظلوا متربصين به، وعلى رأسهم الملك الناصر صاحب دمشق، الذي أخذ يعمل من أجل انتزاع حكم مصر من يد المماليك[3]، ومن جهة أخرى ظل التتار الذين اتخذوا بغداد مركزا لهم مهددين حكم بيبرس في مصر تهديدا كبيرا، ومن جهة ثالثة لم يكن للمماليك قوة تمنحهم الشرعية لحكم البلاد؛ ففكر في إحياء الخلافة العباسية[4]، لتكون تلك القوة التي يستند اليها في حكم مصر بالإضافة إلى ذلك فسيصبح حامي حمى الخلافة الاسلامية وصاحب السيادة العليا على ما عداه من ملوك وحكام؛ هذه هي أهم الأسباب التي دفعت السلطان السلطان "الظاهر بيبرس" يقدم على إحياء الخلافة العباسية[5].

غير أن الظاهر بيبرس لم يكن أول من فكر نقل الخلافة إلى مصر، بل سبقه "أحمد بن طولون" عندما رحب بالخليفة العباسي المعتمد أثناء الخلاف الذي وقع بينه وبين أخيه الموفق عام (269هـ/882م) غير أن مشروع إحتواء الخلافة لم يتم نتيجة قبض "الموفق"

[1]- زيان غانم، صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، ص18.

[2] - ابن خلدون، العبر، ج3، ص664.

[3] - حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص19.

[4] - حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص ص 168- 169.

[5] - حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص19.

على "المعتمد" والحجر عليه ببغداد، يقوا ابن الاثير: "وفيها سار المعتمد نحو مصر، وكان سبب ذلك أنه لم يكن له من الخلافة غير اسمها، ولا ينفذ له توقيع لا في قليل، ولا كثير، وكان الحكم كله للموفق، والأموال تجبى إليه، فضجر المعتمد من ذلك، وأنف منه، فكتب إلى أحمد بن طولون يشكو إليه حاله سرا من أخيه الموفق، فأشار عليه أحمد باللحاق به بمصر، ووعده النصرة"[1]؛ وتجدد أمل حكام مصر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر زمن محمد بن طغج الأخشيد عندما تأزم الموقف بين المتقي وبين الحمدانيين والأتراك عام (333هـ - 944م)،[2] كذلك رحب السلطان المظفر قطز بالأمير أبي العباس أحمد وهو أحد أمراء البيت العباسي الفارين من وجه التتار عقب موقعة عين جالوت[3]، ولم يكن أمراء مصر الوحيدين الذين فكروا في إحتواء الخلافة العباسية بل فكر الملك الناصر يوسف صاحب دمشق هو الآخر في ذلك[4].

إلا أن الفكرة لم تتحقق إلا مع الظاهر بيبرس، يقول ابن خلدون: "وانقرض أمر الخلافة الإسلامية لبني العبّاس ببغداد وأعاد لها ملوك الترك رسما جديدا في خلفاء نصّبوهم هنالك من أعقاب الخلفاء الأوّلين"[5]. فعندما أرسل إليه بعض أمراء بلاد الشام من خبره بوصول أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الامام الناصر العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة إلى دمشق، سارع السلطان بيبرس بالكتابة إلى هؤلاء الأمراء بضرورة التحفظ على هذا الأمير العباسي وإرساله فورا إلى مصر[6]، يقول ابن خلدون في هذا الشأن: "ولحق بمصر كبيرهم يومئذ

[1] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص415.

[2] – حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص169.

[3] – حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص20.

– موقعة عين جالوت وقعت بين المظفر قطز والتتار، اتفق وقوع هذا كله في العشر الأخير من رمضان من سنة 658هـ/1260م. ابن الكثير، البداية والنهاية، ج13، ص 220.

[4] – حامد زيان غانم، صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، ص20.

[5] – ابن خلدون، كتاب العبر، ج3، ص663.

[6] – حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص21.

أحمد بن الخليفة الظاهر، وهو عمّ المستعصم وأخو المستنصر، وكان سلطانها يومئذ الملك الظاهر بيبرس ثالث ملوك الترك بعد بني أيوب بمصر والقاهرة ".[1]

وقد تعمد أن يضفي الظاهر بيبرس على موكب الوافد الجديد مظهر الهيبة والعظمة، فقد استقبله شخصيا ومعه الوزير بهاء الدين وقاضي القضاة تاج الدين ويعض الأمراء، وخرج في استقباله اليهود حاملين التوراة والنصارى حاملين الانجيل، ولم يلبث أن ترجل الظاهر بيبرس حين تقابل مع الخليفة الجديد، وعانقه، وسار الخليفة وهو لابس شعار بني العباس حتى وصل إلى قلعة الجبل سنة659هـ[2]، يقول ابن خلدون: " فقام على قدم التعظيم وركب لتلقّيه وسرّ بقدومه، وكان وصوله له سنة تسع وخمسين فجمع الناس على طبقاتهم بمجلس الملك بالقلعة"[3]، وهناك انعقد مجلس عام حضره قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وشهد في هذا المجلس العربان الذين حضروا من دمشق صحبة الخليفة الجديد بأن نسبه يتصل بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأقر بذلك بعض القضاة والفقهاء، وقبل قاضي القضاة بذلك، فقام السلطان الظاهر بيبرس وبايعه على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقاتها، ونبعه القضاة والعلماء، ثم أخذت له البيعة من سائر الناس، كما نقشت السكة باسمه وأُمر بالدعاء له في الخطب ولقب بالمستنصر بالله، وبذلك تم إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد أن ظل العالم الاسلامي بلا خليفة لمدة ثلاث سنوات ونصف[4]، يقول ابن خلدون في هذا الشأن: "وحضر القاضي يومئذ تاج ابن بنت الأعز فاثبت نسبه في بيت الخلفاء بشهادة العرب الواصلين معه بالاستفاضة، ولم يكن شخصه خفيّا، وبايع له الظاهر وسائر الناس ونصّبه

[1] – ابن خلدون، كتاب العبر، ج3، ص664.

[2] – حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص21.

[3] – ابن خلدون، كتاب العبر، ج3، ص664.

[4] – حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص22.

للخلافة الإسلامية ولقّبوه المستنصر، وخطب له على المنابر ورسم اسمه في السكّة. وصدرت المراسم السلطانية بأخذ البيعة له في سائر أعمال السلطان، وفوّض هو للسلطان الملك الظاهر سائر أعماله، وكتب تقليده بذلك وركب السلطان ثاني يومه إلى خارج البلد، ونصب خيمة يجتمع الناس فيها فاجتمعوا وقرأ كتاب التقليد. وقام السلطان بأمر هذا الخليفة ورتّب له أرباب الوظائف والمناصب الخلافية من كل طبقة، وأجرى الأرزاق السنيّة".[1]

وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد حقق هدفه في إحياء الخلافة العباسية فقد بقي أن يجني ثمرة هذا الجهد وهو تقليد الخليفة العباسي له بحكم البلاد، وتم ذلك فعلا في 24 شعبان عام 659هـ عندما خرج جمع كبير ضم الخليفة والسلطان وقاضي القضاة والأمراء، حيث أقيمت لهم خيمة كبيرة بالمطرية وصعد إلى المنبر صاحب ديوان الانشا فخر الدين بن لقمان وقرأ تقليد الخليفة المستنصر بالله السلطان بيبرس، كما خلع الخليفة المستنصر خلعة السلطنة على السلطان الظاهر بيبرس وهي عبارة عن جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف[2]، ويصف المقريزي في كتابه السلوك في معرفة دولة الملوك: " وقام من بعده ابنه المستعصم بالله عبد الله، فجمع الأموال، وقطع كثيرا من العساكر، فقدم التتار بغداد، وقتلوه في سادس صفر سنة ست وخمسين وستمائة، وله في الخلافة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام. وانقرضت دولة بني العباس بزواله، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة، فأقيم في تلك السنة خليفة بمصر قدم إليها من بغداد، لقب بالمستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر".[3]

[1] – ابن خلدون، كتاب العبر، ج3، ص664.

[2] – حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص23.

[3] – أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العالمية، بيروت، 1997، ص129.

غير أن الأمور لم تجر كما ظن وخطط الظاهر بيبرس، فقد فكر في أن بقاء الخليفة إلى جواره بمصر قد يؤدي إلى التفاف الأهالي حول الخليفة مما يتعرض معه منصبه للخطر فخطط لإعادة الخليفة العباسي إلى بغداد سنة 660هـ/1262م، وبالفعل بدأ في تجهيز موكب الخليفة في عدد كبير من الجنود لحمايته لكن يبدو أن هناك من أشار إليه ألا يفعل ذلك لأن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعه وأخرجه من مصر فخشى عاقبة ذلك، وعمد إلى تقليل عدد الجند المصاحبين للخليفة، غير أن التتار فتعقبوا خطواته وقتلوه[1]، يقول المقريزي: " وسار المستنصر بالله يريد بغداد فحاربه التتار وقتلوه قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر".[2]

وتأسف الظهر بيبرس لما حدث للخليفة المستنصر، وأخذ في طلب أمير عباسي جديد ليحل محل الخليفة المقتول[3].

وفعلا وصل إلى مصر عام 661هـ/1263م الأمير أبو العباس أحمد، فرحب به الظاهر بيبرس ترحيبا كبيرا[4]، وبويع بالخلافة بعد إثبات نسبه ولقب بـ"الحاكم بأمر الله أمير المومنين"، وقلد السلطان الظاهر بيبرس حكم وفوضت له سائر أمور تسيير البلاد[5].

غير أنه استفاد من أخطائه السابقة وكف عن فكرة ارسال الخليفة إلى بغداد، وفضل إقامته بالقاهرة مع حريمه وخدمه وغلمانه، ليكون تحت أنظاره باستمرار[6].

---

[1] – حامد زيان غانم، المرجع السابق، ص24.

[2] – المقريزي، السلوك، ج1، ص129.

[3] – حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص172.

[4] – المقريزي، السلوك، ج1، ص547.

[5] – نفســـــه، ص547؛ زيان غانم، المرجع السابق، ص25.

[6] – المقريزي، السلوك، ج1، ص550؛ زيان غانم، المرجع السابق، ص25.

كان من نتائج إحياء الخلافة العباسية في مصر أن اصبحت هذه القاهرة مركز النشاط الاسلامي الديني والسياسي والعسكري والثقافي بدلاً من بغداد، وبرغم التشكيك في صحة نسب الخلفاء العباسيين بالقاهرة.

لكن رغم كل هذا فإن سلطات الخليفة العباسي لم تتعدَّ الأمور الدينية دون سواها، خاصة ذكر اسمه في الخطبة على منابر مصر ومنابر البلاد التابعة لها عدا جامع السلطان بالقلعة فيذكر اسم السلطان فقط في الخطبة كذلك كان ينقش اسم الخليفة على السكة إلى جوار اسم السلطان، ثم أسقط بعد ذلك اسم الخليفة من السكة وأبقى في الخطبة[1]، ويعبر عن ذلك المقريزي بقوله: "وسار يريد بغداد فحاربه التتار وقتلوه، قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر، فصار من بعده ملوك مصر الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة، ويلقبونه بلقب الخلفاء، وليس له أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة، لتهنئتهم بالأعياد والشهور".[2]

وفي بعض الأحيان عندما يخشى السلطان من الخليفة أو يتسرب إليه الشك من ناحيته، فإن السلطان لا يتردد في القبض على الخليفة وعزله وسجنه، وتولية الخلافة لمن يشاء من أبناء البيت العباسي بمصر والذي تطمئن إليه خواطره.[3]

يقول القلقشندي في هذا الشأن: "والذي استقرّ عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوّض الأمور العامة إلى السلطان، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا في مصلّى السلطان خاصة في جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة،

[1] – زيان غانم، المرجع السابق، ص26.

[2] – المقريزي، السلوك في معرفة دولة الملوك، ج1، ص129.

[3] – زيان غانم، المرجع السابق، ص27.

ويستبد السلطان بما عدا ذلك: من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك"[1]،

في يوم الإثنين الرابع من شعبان 808هـ/1405م استدعى السلطان الناصر فرج برقوق الذي حكم من (801هـ/ 1398م) إلى(815هـ/1412م)، سلطان الديار المصرية أبا الفضل العباس بن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله بن محمد "وبايعه بالخلافة بعد وفاة أبيه" فتلقب بالمستعين بالله، ولبس التشريف، واستقر بداره، وقد وصف المستعين هذا بأنه كان دينا فيه خير وإحسان ولين، حشماً، وقوراً مهاباً".[2] يقول المقريزي: " في يوم الاثنين رابعه: استدعى أبو الفضل العباس بن محمد المتوكل على الله وقرر في الخلافة عوضا عن أبيه. ولبس التشريف بحضرة السلطان ولقب بالمستعين بالله ونزل إلى داره".[3]

وتحدث القلقشندي عن استثناء آخر وقع في تاريخ الخلفاء في الديار المصرية قائلاً: "قلت: ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن قبض على السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة على ما تقدّم ذكره، فاستقل الإمام «المستعين بالله» خليفة العصر بأمر الخلافة: من الكتابة على العهود ومناشير الاقطاعات، والتقاليد، والتواقيع، والمكاتبات وغيرها".[4]

لقد أعاد المماليك الخلافة بسرعة كبيرة واحتضنوها وأوقفوها على قدميها بعد ما اجتاحها هولاكو بجحافله. وإذا كان ثمة من يقول بأن سلطة الخليفة كانت قبل المماليك وفي أثناء حكمهم صورية مفزغة من مضمونها، وأن السلاطين والقادة كانوا في الحقيقة والواقع

[1] – أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العالمية، بيروت، ج3، ص300.

[2] – زيان غانم، المرجع السابق، ص27.

[3] – المقريزي، السلوك، ج6، ص154.

[4] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص، 300.

الخلفاء الفعليين[1]، ورغم أن سلطة الخليفة- كشخص حاكم- كانت صورية في كثير من المعاني، فإن المماليك استطاعوا أن يعززوا في الكيان الإسلامي واقع الوحدة والقوة المركزية الجامعة؛ فقد استطاعوا توحيد مصر وبلاد الشام.[2]

وظلت الخلافة العباسية في مصر على هذا الحال إلى أن جاء عهد الخليفة المتوكل على الله الثالث (ت: 950هـ/1544م) الذي تنازل بالحكم إلى السلطان العثماني سليم الأول سنة 923هـ/1517م[3]، بعد تغلبه على المماليك ودخوله القاهرة، فسلمه الآثار الإسلامية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة، وسلمه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين، ومنذ ذلك الوقت انتقلت الخلافة من البيت القرشي العباسي إلى السلطان العثماني التركي.[4]

دور بيبرس في ترسيخ دعائم دولة المماليك:

خلت الساحة أمام السلطان الظاهر بيبرس بعد تخلص من سيف الدين المظفر قطز وبدأ يفكر في توطيد دعائم دولته خاصة ان الخطر المغولي لم يكن قد انتهى تماما، زيادة على خطر الصليبي الذي كان يهدد المشرق الإسلامي:

1- القضاء على الثورات الداخلية:

- ثورة دمشق: وقام بها "علم الدين سنجر الحلبي" الذي عينه قطز، وحاول أن يستميل أمراء وسلاطين حلب وحمص فرفضوا إجابة طلبه[5]، جاء في السلوك: "وكتب لإحضار البحرية البطالين من البلادة وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة خلا الأمير سنجر الحلبي نائب دمشق فإنه لما استقر في نيابة دمشق كان قد عمر

[1] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، (مقدمة المحقق)، ج1، ص5.

[2] -نفســــــــه، ج1، ص6.

[3]- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981، ص194.

[4] - حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص 166. محمد فريد بك، المرجع السابق، ص194.

[5] - أحمد عودات وآخرون، تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري، دار الكندي، إربد (العراق)، 1990، ص94.

سورها وحصنها فورد عليه الخبر بقتل قطز وسلطنة بيبرس في أوائل ذي الحجة فامتعض لذلك وأنف من طاعة بيبرس".[1]

جهز بيبرس جيشاً للقضاء على ثورة دمشق، فعاد الجيش بحاكم دمشق "علم الدين" في صفر 656هـ/1261م واعتقل بقلعة الوقبض على الأمير سنجر الحلبي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر واعتقله فركب الأمير أيبك الحلبي الكبير في الأمراء الصالحية فلم توفق وتقنطر عن فرسه خارج باب زويلة فأدخل إلى القاهرة ميتا".[2]

– ثورة القاهرة: بزعامة رجل شيعي من بقايا الفاطميين، يعرف بالكوراني سكن جبل المقطم فلما كثر اتباعه أخذ يدعو لقلب نظام الحكم المملوكي، وتمخضت عن هذه الدعوة ثورة سنة (658هـ/ 1260م)، شق الثوار شوارع القاهرة واقتحموا اصطبلات الجنود، وأخذوا الخيول، فأرسل بيبرس الجند والقوا القبض على جميع زعمائهم وصلبهم على باب زويلة.[3]

2– إحياء الخلافة العباسية[4].

3– التخلص من العناصر الأيوبية[5]: كان الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل، صاحب الكرك يناوئ سلاطين المماليك منذ عهد عز الدين أيبك اعتقاداً منه أنه أحق منهم في سلطان مصر والشام، وكان الظاهر بيبرس قد قرر سابقاً القضاء عليه لولا أن المغيث بعث برسالة شفاعة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله يسأله الشفاعة فتشفع له عند بيبرس[6]، فاتهمه الظاهر بيبرس بمراسلة المغول، يقول ابن تغري بردي: "قبض على الملك المغيث صاحب

[1] – المقريزي، السلوك، ج1، ص521.

[2] – نفســــــــــه، ص495.

[3] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص94.

[4] – كنا قد خصصنا مطلبا كاملاً عن دور بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة.

[5] – حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص ص 166-168.

[6] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص96.

الكرك الذي كان معه تلك الأيّام على قتال المصريين وغيرهم، فوصل به إلى القاهرة فى يوم الأحد خامس عشر جمادى الآخرة فكان ذلك آخر العهد به".[1]

4- عقد تحالفات مع دول مجاورة: حيث عقد عدة تحالفات مع ملوك مسلمين غير مسلمين:

- حالف ميخائيل الثامن باليوج امبراطور البيزنطيين سنة 660هـ/1262م[2]، حيث وصل فارس الدين أقوش المسعودي إلى القسطنطينة في سفارة، وأشرف على بناء مسجد هناك.[3]

- حالف ملك صقيلية ونابلي منفرد بن فرديريك الثاني وتبادلا الهدايا سنة 659هـ/1261م.[4]

- حالف بركة خان، وهو خان القبيلة الذهبية أو مغول القبشاق، وهو أول من اعتنق الاسلام من أولاد جنكيز خان.[5]

- حالف سلطان السلاجقة الروم عمر الدين كيكاوي ووعده بالمساعدة ضد أخيه قلبح أرسلان وضد هولاكو وأطماعه في آسيا.[6]

5- تحصين الثغور: وقد استعمل عدة أساليب لذلك الغرض وأهمها:

- تجنيد العشائر المتاخمة للحدود ليقوموا بمهمتهم خير قيام أمام أي عدو خارجي.[7]

---

[1] - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ج120.

[2] - أحمد عودات، المرجع السابق، ص96.

[3] - ابن تغري بردي، السلوك، ج1، ص543.

[4] - أحمد عودات، المرجع السابق، ص97.

[5] - نفســــــه، ص97.

[6] - أحمد عودات، المرجع السابق، ص96.

[7] - نفســــه، ص96.

– إعمار القلاع والحصون والأبراج والمناورة وتزويدها بالمؤن والذخيرة [1]، وإصلاح ما وقع فيها من الأمور التي تعيق حسن استعمالهان والنص التالي لأبي المحاسن ابن تغري بردي يبين مدى اهتمامه بذلك: "وورد الخبر بأن خليج الإسكندرية قد انسد وامتلأت فوهته بالطين وقل الماء في ثغر الإسكندرية بهذا السبب فسير السلطان الأمير عز الدين أمير جاندار فحفره"[2]، " وفي جمادى الأول: سافر الأمير سيف الدين بلبان الزيني أمير علم إلى الشام برسم تجهيز مهمات القلاع وعرض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور وإلزام الأمراء بتكميل العدد والعدة وإزاحة الأعذار بسبب الجهاد"[3]، وقال أيضاً عن تعمير الحصون: "وأمر بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهي قلعة دمشق وقلعة الضلت وقلعة عجلون وقلعة صرخد وقلعة بصرى وقلعة شيزر وقلعة الصبيبة وقلعة شميميش وقلعة حمص. فعمرت كلها ونظفت خنادقها ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد وجرد إليها المماليك والأجناد وخزنت بها الغلات والأزواد "[4].

6– تنظيم البريد: حتى تعرف الأخبار بسرعة وتصل الأوامر في الوقت المناسب وضع للبريد نظاماً ربط به جميع أنحاء المملكة بشبكة من الخطوط البريدية، وكان مركزها قلعة الجبل بالمقطم بالقاهرة. فإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من الولاة يقول القلقشندي في صبح الأعشى: "وأما اتصال الأخبار بالسلطان، فذكر قاضي القضاة سراج الدين الهنديّ: أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال: فأحوال الرعيّة له ناس يخالطون الرعيّة، ويطّلعون على أخبارهم، فمن اطّلع منهم على شيء أنهاه إلى من فوقه، وينهيه الآخر إلى من فوقه حتى يتّصل بالسلطان. وأحوال البلاد النائية لاتصال الأخبار منها من السرعة ما ليس في غيرها من الممالك، وذلك أن بين أمّهات الأقاليم وبين قصر السلطان أماكن متقاربة، مشبّهة بمراكز البريد

[1] – ابن تغري بردي، السلوك، ج1، ص529؛ أحمد عودات، المرجع السابق، ص97.
[2] – نفســـــــه، ج2، ص07.
[3] – نفســـــــه، ج2، ص07.
[4] – نفســـــــه، ج1، ص527.

بمصر والشأم إلا أن هذه الأماكن قريبة المدى بعضها من بعض، بين كل مكانين نحو أربع غلوات سهم أو دونها، في كلّ مكان عشرة سعاة ممن له خفّة وقوّة، ويحمل الكتب بينه وبين من يليه، ويعدو بأشدّ ما يمكنه إلى أن يوصّله إلى الآخر ليعدو به كذلك إلى مقصده، فيصل الكتاب من المكان البعيد في أقرب وقت"[1]، فكان البريد يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاث أيام.[2]

7- تقوية الأسطول والجيش: عمل السلطان بيبرس على إنشاء قوة برية وبحرية قادرة على صد أعداء الدولة الذين قد يغيروا عليها براً وبحراً، فإهتم بدور صناعة السفن في الاسكندرية ودمياط وكان يشرف عليها بنفسه[3]، وبنى بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر. وأمر بردم فم بحر دمياط فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القرابيص حتى تمتنع السفن الكبار من دخوله واستمر ذلك إلى اليوم[4].

8- مواجهة الصليبين: في سنة663هـ/1265م دخل بيبرس في عمليات واسعة ضد الإمارات الصليبية الساحلية، فسارعت ملكة بيروت إزبيلا بنت الملك جون الثاني إبلين تطلب الهدنة. كما سيطرت جبوش بيبرس على مدينة يافا (666هـ/1268م) ثم إنطاكيا بعد أن شدد عليها الحصار ثم إمارة طرابلس، التي كادت أن تسقط لولا ورود أنباء حملة صليبية ثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع، ولكن مراكب الفرنسيين اتجهت نحو تونس.[5]

9- حرب المغول: رغم أن هجمة المغول كانت قد خفت بعد معركة عين جالوت إلا أنهم كانوا يتحينون الفرصة من أجل معاودة الهجوم على العالم الإسلامي والسيطرة

[1] - القلقشندي، صبح الاعشى، ج5، ص94.
[2] - أحمد عودات، المرجع السابق، ص98.
[3] - نفســـــه، ص98.
[4] - ابن تغري بردي، السلوك، ج1، ص526.
[5] - أحمد عودات، المرجع السابق، ص100.

عليه، وبدأ هذا الأمر بالتنسيق والتعاون بين المغول والفرنج في بلاد الشام، مما دفع السلطان الظاهر بيبرس إلى تحصين الدولة لمواجهة هذا الخطر. [1]

وتولى بعد هولاكو ابنه أبغا وكان على قدر عال من الحنكة[2]، فحاول أن يجرب الصلح مع المسلمين، بشروط تلائمه هو سنة (666هـ/1268م)، وتوجه بيبرس بجيشه لملاقاة الماغول في أرضهم وتمكن من الانتصار عليهم وطارد فلولهم سنة671هـ/1273م. وبذلك أَّمن حدود الدولة الشرقية.

أسرة قلاوون ودورها:

تولى السلطان سيف الدين قلاوون عرش المماليك سنة 678م/1279م بعد الملك العادل بدر الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس الذي كان عمره سبع سنوات[3]، يحدثنا ابن خلدون عن أصله وكيف قدم إلى مصر قائلا: "أصل هذا السلطان قلاون من القفجاق ثم من قبيلة منهم يعرفون برج أعلى وقد مرّ ذكرهم وكان مولى لعلاء الدين آقسنقر الكابلي مولى الصالح نجم الدين أيوب فلما مات علاء الدين صار من موالي الصالح وكان من نفرتهم واستقامتهم ثم قدم الى مصر في دولة المظفر قطز مع الظاهر بيبرس ولما ملك الظاهر قرّبه واختصه وأصهر اليه"[4]، "ثم بايع لابنه العادل"[5]، وصار مدبراً للمملكة، ولكن صغر سن السلطان كان يمثل عائقاً أمام تحقيق بعض أهداف الذي وضعها كبار رجال الدولة نصب أعينهم ومنها الجهاد ضد البقايا المغول والصليبيين[6]، "ولما استوحش الأمراء من السعيد وخلعوه رغبوا من الأمير قلاوون في الولاية عليهم كما قدّمناه ونصب أخاه شلامش بن الظاهر فوافقه

[1] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص103.

[2] – ابن الكثير، البداية والنهاية، ج13، ص 297.

[3] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص295.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج5، ص453.

[5] – نفســــــه، ص454.

[6] – فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص295.

الأمراء على ذلك طواعية له واتصلت رغبتهم في ولايته مدّة شهرين حتى أجابهم الى ذلك فبايعوه في جمادى سنة ثمان وسبعين فقام بالأمر ورفع كثيرا من المكوس والظلامات وقسم الوظائف بين الأمراء"[1].

وكانت أول الصعوبات التي واجهت قلاوون هو معارضة بعض الأمراء من أعوان الظاهر بيبرس لما قام به، فقد أعلن نائب دمشق الأمير "شنقر الأشقر" العصيانه وبايعه العسكر ولقب بالملك الكامل وقبض على الأمير حسام الدين نائب قلعة دمشق لأنه لم يحلف له وكذلك جماعة من الأمراء[2]، وأصبحت بلاد الشام خارجة عن حكم السلطان قلاوون الذي اقتصر سلطانه على الديار المصرية وأعمالها[3]، فأرسل إلى الشام ثلاثة آلاف بقيادة الأمير حسام الدين أيتمش لإخضاع الأمير لاخضاع الأمير شنقر الأشقر خاصة بسبب الأنباء التي راجت حول تحالفه مع المغول، فلما علم بقدوم الجيش من مصر هرب ولجأ إلى صهيون[4]، يقول المقريزي: " فلّما بلغ سنقر ذلك رحل عن عيسى بن مهنّا وتوجّه فى البريّة إلى الحصون التى كانت بقيت فى يد نوّابه، فتحصّن هو ومن معه بها فى أواخر الشهر المذكور وهى: صهيون، كان بها أولاده وخزائنه ودخلها هو أيضا"[5].

ونظراً لحكمة قلاوون وإدراكه لضرورة جمع الشمل وتوجيه قوة المسلمين نحو العدو المشترك، طلب عودة الأمير "سنجر الحلبيّ" بالعسكر إلى دمشق متخليا عن متابعة سنقر

[1] – ابن خلدون، العبر، ج5، ص454.

[2] – أبو الفدا، المختصر، ج4، ص13.

[3] – ابن خلدون، العبر، ج5، ص436؛ فايد حماد عاشور، المرجع نفسه، ص296.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج5، ص447؛ فايد حماد عاشور، المرجع، ص296.

صهيون: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر، وهي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل، خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة ليس لها خندق محفور إلّا من جهة واحدة مقدار طوله ستون ذراعا أو قريب من ذلك وهو نقر في حجر. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ج3، دار صادر بيروت، 1995، ص436.

[5] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص298.

الأشقر وتردّدت الرسل بينهم وبينه، واضطر الطرفان إلى الاتفاق على وتنازل بموجبه السلطان قلاوون للأمير شنقر ببعض المدن والحصون مقابل تحديد جيشه وتعهده بعدم التحالف مع المغول، كان هذا 686هـ/1287م[1].

أما الأمر الثاني الذي كان على قلاوون الحسم فيه فهو تصفية الوجود المغولي والصليبي من على أرض الشام، فمنذ 680هـ/1280م بدأ أبناء هولاكو يتطلعون للعودة فأرسل ابنه أبغا قوة استطلاعية احتلت حلب.

لقد أوحت المراسلات التي تمت بين الأمير شنقر الأشقر والمغول من جهة ومع الصليبيين من جهة أخرى، على وجود تصدعات في الجهة الاسلامية، فتعامل قلاوون بذكاء في هذه المسألة، فعقد صلحا لمدة عشر سنوات مع الفرنج الداوية والاسبتارية وأمير طرابلس[2]، يقول ابن تغري بردي: "وسار الملك المنصور قلاوون حتى وصل إلى الرّوحاء من عمل الساحل، ونزل عليها فى يوم الثلاثاء سابع عشر ذى الحجّة، وأقام قبالة عكّا، فراسلته الفرنج من عكّا فى تجديد الهدنة، فإنّها كانت انقضت مدّتها، وأقام بهذه المنزلة حتى استهلّت سنة ثمانين وستّمائة رحل عنها يوم الخميس عاشر المحرّم. ونزل اللّجّون، وحضر رسل الفرنج بها بحضرة الأمراء، وسمعوا رسالة الفرنج، فآستشارهم السلطان فحصل الاتّفاق على الهدنة، وحلف لهم الملك المنصور على الصورة التى وقع الاتّفاق عليها، وانبرم الصلح وانعقدت الهدنة فى يوم الأحد ثالث عشر المحرّم. لمصلحة اقتضاها الحال".[3]

وهكذا تفرغ قلاوون لعدو واحد، فحقق معه عدة انتصارات، كان أهمها هزيمته للمغول هزيمة منكرة في حمص (680هـ/1281م)، وقد كان لوفاة الملك المغولي أبغا بن

[1] – ابن خلدون، العبر، ج5، ص456؛ فايد عاشور، المرجع السابق، ص297.

[2] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص105.

[3] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص300.

هولاكو أثر كبير على سير الصراع[1]، تم استرجاع حصن المرقب من الصليبيين الذين لا يشملهم الصلح سنة (684هـ/1285م) وقد كان هذا الحصن في غاية المناعة وكان لهذا الحدث أثر كبير في تقويض أركان الصليبين بالشام لأهميته ومكانته، وجاء الدور على الملك بوهموند السادس ليدفع ثمن تحالفه مع المغول، فاستعاد منهم مدينتي اللاذقية (686هـ/ 1287م) وطرابلس (688هـ/ 1289م).[2]

وقد كان لسقوط مدينتي طرابلس واللاذقية بيد المسلمين أثر كبير على الصليبيين فلم يبق لهم سوى عكا وصيدا وصور وعثيلث.[3]

عندما توفي السلطان قلاوون سنة (689هـ/1290م)، وخلفه ابنه الأشرف خليل بن قلاوون[4]؛ رغم محاولات الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة إقصاءه عن منصب السلطنة، فقد تغلب خليل في القضاء على المؤامرة، وكانت هذه أول صعوبة واجهها السلطان الجديد، أما ثاني شيء كان عليه القيام به هو إكمال مشروع والده في رد الهجمة التي قام بها الصليبيين في عكا، ثم اخضاعها[5]، وفعلا تم له ذلك بعد سنة 690هـ/1291م، ولم تبق للصليبيين إلا معاقل قليلة في بلاد الشام، وهي لا تستطيع البقاء بعد استرجاع عكا من قبل المسلمين[6]، خاصة بعد سقوط مدينة صور في أيدي المسلمين دون مقاومة، وفر حاكمها هنري الثاني على قبرص، نفس الشيء بالنسبة لصيدا ثم حيفا، ثم أنطرطوس وعثليث، في نفس السنة، وبذلك تكاملت الفتوحات الإسلامية وتم جلاء الغزاة من جميع ديار العروبة والإسلام[7]،

[1] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص3؛ أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر، ج4، ص16.

[2] – أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر، ج4، ص23؛ أحمد عودات، المرجع السابق، ص ص 105-106.

[3] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص ص 106-107.

[4] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص3.

[5] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص 108.

[6] – أبو الفدا، المختصر، ج4، ص24.

[7] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص 109.

ويصف ابو الفدا ذلك قائلاً: " لما فتحت عكا، ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا صيدا وبيروت، وتسلمها الشجاعي في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل مدينة صور، فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان، ثم تسلم أنطرطرس في خامس شعبان. جميع ذلك في هذه السنة، أعني سنة تسعين وستمائة. واتفق لهذا السلطان من السعادة، ما لم يتفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة، الحصينة، بغير قتال ولا تعب، وأمر بها فخربت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات، جميع البلاد الساحلية الإسلامية، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج"[1].

لكن صراعا داخليا بين المماليك أدى إلى مصرع الأشرف خليل بن قلاوون؛ فقد تكاثر المماليك في هذه الفترة حتى بلغ عددهم في عهد قلاوون المميزين من الجراكسة في نهاية عهده ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك، وعنى بهم قلاوون عناية خاصة، واتبع ابنه أشرف نفس السياسية فاشترى في عهده القصير الذي دام أربع سنوات ألفي مملوك جميعهم من الجراكسة، لكنه خرج عن تقليد أسلافه فسمح لهم بالنزول من القلعة نهاراً على أن يبيتوا فيها ليلاً، وازداد عدد المماليك البرجية بحصولهم مميزات خاصة أدى على الصراع مع المماليك الأتراك وزعيمهم أنذلك بيدرا الذي قتل السلطان وهو في رحلة صيد، فلم يهدأ بال البرجية الجراكسة إلا بقتل بيدرا.[2]

وهكذا دب الضعف في جسم دولة المماليك بعد الصراعات التي ظهرت بينهم، وتوالى على الدولة سلاطين ضعفاء، انشغلوا بهذه الصراعات، وأهملوا باقي أمور الدولة ومنها الاقتصادية خاصةً.

[1] – أبو الفدا، المختصر، ج4، ص25.

[2] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص 110

حتى جاء السلطان الظاهر برقوق الذي كان على نصيب من الحنكة سنة (784هـ/ 1382م)، واستطاع في بداية عهده أن يفشل مؤامرة عزله بالتعاون مع الخليفة المتوكل، فسبقه هو إلى عزله وعين مكانه الواثق بالله سنة (785هـ/1383م)[1].

وفي فترة الظاهر برقوق كانت حملة المغول الثانية بقيادة تيمورلنك، الذي استولى على بغداد سنة 795هـ/1393م، وتعذر عليه مواجهته لأن المغول بعد دخول القاهرة عادوا إلى بلادهم، وتوفي الظاهر برقوق بعد ذلك سنة 801هـ/1399م[2]، وتولى السلطنة بعده ابنه فرج برقوق الذي كان حديث السن[3]، فوقع في أسوأ مصير وهو خروجه للشام لمواجهة تيمورلنك لكنه أدرك حرج موقفه فهرب وترك جيشه يلقى أسوأ مصير على يد المغول، وهذا ما أدى به إلى خسارة موقفه في نفوس رعيته.[4]

وظلت الأمور تراوح موقعها بين الكيد للسلطان وخلعه، وتعرض المماليك بعد ذلك لعدة هجمات خارجية، كان أهمها غزوات البرتغاليين البحرية، لكن القوة التي قسمت ظهر دولة المماليك هو ظهور الأتراك العثمانين، فكانت معركة مرج دابق نهاية دولة المماليك على يد السلطان العثماني سليم الثاني.[5]

[1] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص234.
[2] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص 120.
[3] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص168.
[4] – أحمد عودات، المرجع السابق، ص 121.
[5] – نفســـــــه، ص 131.

2- الظروف الثقافية لعصر القلقشندي:

عرفت مصر في عهد المماليك نهضة علمية وثقافية لا مثيل لها، واهتم السلاطين بشتى ميادين العلم، ويرجع ذلك إلى التنشئة التي كان المماليك يستفيدون منها، فقد اهتم السلاطين الذين توالوا على حكم مصر على تنشئتهم على الطريقة إسلامية، فيدرسون الثقافة الاسلامية، ويتعلمون القراءة والكتابة وحفظ القرآن والوقوف على معالم السيرة النبوية الشريفة[1]، وكان من الطبيعي أن يهتم هؤلاء السلاطين الذين نشأوا في هذه الظروف العلمية بذلك عند وصولهم للحكم، فقد كان السلطان الظاهر بيبرس يهتم بدراسة التاريخ وقد قال في هذا الشأن: "سماع التاريخ أعظم من التجارب"[2]، وتلقى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، علوم الفقه في دمشق ونال شهادة فيها، لذلك كان يشارك العلماء في كل أمر يقضون فيه. [3]

ويشرح ابن خلدون هذه الظاهرة الحضارية قائلا: "واستقرّ العلم كلّه صناعة فاختصّت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلّا المعرّبون من العجم شأن الصّنائع كما قلناه أوّلا. فلم يزل ذلك في الأمصار الإسلاميّة ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النّهر. فلمّا خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة الّتي هي سرّ الله في حصول العلم والصّنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أمّ العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصّنائع"[4].

---

[1] - فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 56.

[2] - أحمد عبد الرحمن الذنيبات، أبو العباس القلقشندي أديبا، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته 2001، ص9.

[3] - نفســـــــه، ص9.

[4] - ابن خلدون، العبر، ج1، ص749.

لقد كان الاهتمام بطلبة العلم واضحا في هذا العصر، فقد جُعِل التعليم مجانيا للجميع، وأعانتهم الدولة على التفرغ، فوفرت لهم المسكن والمأكل والمشرب، ولم يقتصر اهتمام الناس بالعلم من الجانب المعنوي بل تعداه إلى الجانب المادي، ويحكي المقريزي عن ذلك قائلاً: " ويفرق كل سنة في أهل العلم والصلاح مائتين ألف درهم الواحد إلى مائة دينار ذهبا. ومنهم من له أقل من ذلك بحسب حاله"[1]؛ وكما اهتمت الدولة بطلبة العلم اهتمت بالعلماء وخصصت لهم حوافز مالية، قد عبر عن ذلك القلقشندي بقوله: "وقد ذكر المسبحيّ في تاريخه: أن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلّس سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء، وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق، وبنى لهم دارا بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا في الفقه، وأبو يعقوب قاضي الخندق رئيس الحلقة والملقي عليهم إلى وقت العصر، وكانوا سبعة وثلاثين نفرا"[2].

وقد اهتم السلاطين المماليك ببناء المدارس وقد عبَّر القلقشندي في كتابه "صبح الاعشى" عن ذلك بقوله: "ثم جاءت الدولة التركية فأربت على ذلك وزادت عليه، فابتنى الظاهر بيبرس (المدرسة الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية، ثم ابتنى المنصور قلاوون (المدرسة المنصورية) من داخل بيمارستانه الآتي ذكره وجعل قبالتها تربة سنية، ثم ابتنى الناصر محمد بن قلاوون (المدرسة الناصرية) بجوار البيمارستان المذكور، ثم ابتنى الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (مدرسته العظمى) تحت القلعة، وهي التي لم يسبق إلى مثلها، ولا سمع في مصر من الأمصار بنظيرها، ويقال إن إيوانها يزيد في القدر على إيوان كسرى بأذرع، ثم ابتنى ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين (المدرسة الأشرفية) بالصّوّة تحت القلعة ومات ولم يكملها، ثم هدمها الناصر فرج بن الظاهر برقوق لتسلطها على القلعة في سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونقل أحجارها إلى عمارة القاعات التي أنشأها بالحوش بقلعة الجبل؛ ولم تعهد مدرسة قصدت بالهدم

[1] – المقريزي، السلوك، ج5، ص446.

[2] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص414.

قبلها؛ ثم ابتنى الظاهر برقوق (مدرسته الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الكاملية فجاءت في نهاية الحسن والعظمة،"[1].

وكانت النتيجة المباشرة لاهتمام دولة المماليك بالعلم والعلماء أن عرفت البلاد نهضة علمية كبيرة كان من مظاهرها كثرة التآليف في جميع الميادين، وخاصة في ميدان التاريخ الذي نحن بصدد البحث عن علم من أعلامه.

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص416.

3- علم التاريخ في عصر القلقشندي:

أ – المنهج المتبع في كتابة التاريخ في مصر خلال هذا العصر:

عرفت مصر منذ المراحل الأولى للوجود الإسلامي على أرضها اهتماما خاصا بالكتابة التاريخية، فقد كانت سير الفتوحات الاسلامية على مدى أكثر من قرن قائمة على الرواية الشفهية، ولم تظهر الرواية المكتوبة قبل أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة، وأخذت روايات التاريخ منذ ذلك الحين تنمو وتزدهر، مع ظهور نخبة من المؤرخين[1].

فقد عُرف في هذه الفترة عبيد الله بن أبي جعفر (ت: 128هـ/742م)، والليث بن سعد[2] (ت:175هـ/789م)، ويوحنا النقيوس القبطي (ق2هـ/ 7م)، وظهرت في نهاية هذه المرحلة تآليف ومدونات في أخبار الفتح الإسلامي لمصر، وكان ذلك على يدي أبي قبيل بن هانئ المعارفي (ت:199هـ/813م) الذي يُعَدُّ من أقدم الرواة في مصر. كما يجد الإشارة ليزيد بن حبيب (ت:132هـ/746م) الذي كان مصدرا مهما للكثير من الروايات التي نقلت عن الفتح الاسلامي لمصر، نذكر منهم ابن عبد الحكم (ت: 257هـ/ 872م) والكندي (ت: 256هـ/873م)[3].

وقد مهد هؤلاء المؤرخون لظهور مدرسة المصرية للتأليف التاريخي وقد كان غالبية مواضيعها في هذه الفترة تتحدث عن أحداث ما قبل الاسلام وتاريخ السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، وبعض الملاحم والفتن والتنبؤات، وأحداث فتح مصر وأخبارها بعد الفتح،

---

[1] – عبد الله عنان، المرجع السابق، ص8.

[2] – خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، ج5، ط15، دار العلم للملايين، 2002، ص248.

[3] – إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، العربي للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2000، ص 86.

وبعض الروايات عن الخطط وتاريخ القضاة والتنظيمات المالية والإدارية في مصر، وشيء من فتوح إفريقية[1]، ويمكن أن نميز في هذه الفترة بين تيارين مختلفين في الرواية التاريخية[2]:

– تيار الخبر الإسلامي الذي، وهو ما يمكن أن نسميه مدرسة الفسطاط وكانت مادته الأساسية مستمدة من فتوح مصر والمغرب يمازجها الكثير من تاريخ القديم الاسطوري.

– تيار القصص الذي يعتمد على الخرافة والاساطير والملاحم، وقد عرف أصحابه بالقصاص.

وقد كان علم التاريخ في هذه الفترة على صلة واسعة بالعلوم الأخرى كالفقه والحديث على وجه الخصوص، وقد تبلورت ثقافة المؤرخين في تطبيقهم لمنهج الإسناد المستعمل في عادة في علم الحديث[3].

ونأتي بعد ذلك إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حيث نلاحظ أن مؤرخي هذا القرن كانت لهم مصنفات في التاريخ أكثر من مؤرخي القرنين السابقين، ومما يميز هذه الفترة هو طغيان التأريخ المحلي المصري على مؤلفات هذه الفترة أمام تراجع الاهتمام بكتابة تاريخ صدر الإسلام، وقد برز في هذه الفترة عميد المؤرخين "أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي[4] (ت: 257هـ/ 872م)، وهو واضع الحجر الأول في تاريخ مصر الإسلامية، لقد وضع ابن عبد الحكم اللبنة الأولى من المدرسة التاريخية المصرية، فلم يكن التاريخ المصري يتعدى شكل الرواية الشفهية، يتوارثها جيل بعد جيل، وكانت الرواية لاتزال حية في صدور الرواه والمحدثين، فكان تدوينها يومئذ أقرب للتحقيق والضبط[5]، وقد استفاد من مؤلفاته الكندي ثم تداولها المصريون تباعا بالنقل، منذ ابن زولاق (ت:387هـ/997م)

[1] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص87.

[2] – التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، ، دار العلم للملايين بيروت، 1990، ج2، ص133.

[3] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص90.

[4] – الزركلي، الأعلام، ج3، ص313.

[5] – عبد الله عنان، المرجع السابق، ص9.

والمسبحي (ت: 420هـ/1030م)، على ابن وصيف شاه (عاش في القرن7هـ/13م)، وابن دقماق (ت:809هـ/1407م)، والمقريزي (:843هـ/ 1441م)، وابن حجر (:952هـ /1550م)، وابن تغري بردي (:874هـ/ 1470م)، والسخاوي (:902هـ/1499م)، والسيوطي(:911هـ/1505م)[1].

ويمكن القول أن مدرسة التاريخ الإسلامي بمصر، قد استكملت أسباب نشأتها ومراحلها التأسيسية بظهور هذا المؤرخ الكبير، وذلك لأن المؤرخين الذين سبقوه تركوا مادة هائلة ولكن كان ينقصها الترتيب والتنسيق، قبل أن تستكمل هذه المدرسة شخصيتها وسماتها على يده[2].

لقد تطورت الكتابة التاريخية في ذلك الوقت تطورا هاما، وقد كان هذا التطور جزءاً من التطور الثقافي العام الذي عرفه المجتمع الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى، وقد كان هذا التطور تطورا إسلاميا خالصاً، بحيث لم يتأثر بمؤثرات ثقافية أجنبية[3].

وبقي الإهتمام بالتاريخ الإقليمي حاضراً، وتفسير ذلك هو الاستقلال السياسي اذي تمتعت به مصر في تلك الفترة، منذ اواسط القرن الثالث.[4]

وقد حملت سهولة التنقل بين أنحاء الدولة الإسلامية كثيراً من طلاب العلم (والمؤرخين خاصة) على الرحلة في طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ زيادة على رغبتهم في رؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها. فظهر بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمشافهة[5].

---

[1] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص92.

[2] – نفســــــــه، ص92.

[3] – نفســــــــه، ص95.

[4] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج2، ص172.

[5] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص96.

ويمكن القول أن القرن الثالث الهجري يعد مرحلة انتقال بين ما كان في القرنين الأول والثاني الهجريين، وبين ما ظهر من علوم وفنون في القرون التالية[1].

وبما أن الظروف التاريخية هي انعكاس للأجواء السياسية فإن الاضطرابات السياسية التي عرفتها مصر وتحول السلطة، وتغلب بنو إخشيد بعد ذهاب الدولة الطولونية، ثم انتقال الدولة الفاطمية إليها من المغرب، كانت لها تأثير واضح على حركة الكتابة التاريخية وتوجهات المؤرخين.

لقد كانت هذه الفترة موضوع اهتمام جماعة من أعلام المؤرخين والرواة الذين عاشوها أو عاصروها وانتهت إليهم بعض آثارهم[2]. وكان في طليعة هؤلاء "محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي"[3] (ت: 350هـ/960م)، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الولاة والقضاة"، ويشتمل كتابه على تاريخ الولاة والقضاة الذين تولوا حكم مصر منذ الفتح حتى زمن المؤلف، ومن كبار مؤرخي المرحلة "أبو محمد بن حسين بن حسن بن زولاق الليثي المصري[4] (ت387هـ-997م) الذي كتب ذيلا لكتاب قضاة مصر للكندي[5].

كذلك شهدت المدرسة المصرية في كتابة التاريخ خلال القرن الرابع الهجري، تطورا هاما في الكتابة التاريخية، إذ بدأ المنهج التاريخي يأخذ شكلا واضحا تحددت فيه معالمه الأساسية، حيث انتشر التدوين بصفة عامة، وتحرر المؤرخون فبعد أن كان مجرد ناقل للرواية التاريخية ولعب دور الإخباري الذي ينقل المعلومة التاريخية مع ذكر سلسلة الرواة الذين نقلوا هذا الخبر، فأصبح البحث عن ذات الخبر دون التقيُّدِ بسلسلة الرواة الذين طالت بفعل مرور

[1] – آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ت: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، ج1، ص332.

[2] – محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص42.

[3] – الزركلي، الأعلام، ج7، ص148.

[4] – نفســـــــه، ج1، ص178.

[5] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص98.

الزمن، وتمحيص الخبر والتأكد من صحته من خلال المعلومة التي يحملها، وهكذا تحولت المدرسة المصرية إلى محاولة استيعاب الحدث التاريخي، وكان الأمير عز الدين المسبحي في مقدمة أساتذة هذه المدرسة التاريخية الجديدة[1].

واتضح هذا الأسلوب في الأعمال الكثيرة التي عكف القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي[2] (ت: 454هـ-1064م) على إنجازها والتي رغم أنها لم تصلنا جميعها ولم نقف على معظمها إلا من خلال أعمال المؤرخين المصريين، الذين ظهروا بعد عصر القضاعي، ويبدو واضحا تزايد عدد المؤرخين في القرن الرابع الهجري، لأن المؤرخين يعتبرون هذه القرن هو قرن الجغرافيا العربية أيضا بالإضافة إلى التاريخ، وقد اعتبر ذلك جزء من النشاط الذي عرفته جميع نواحي الحياة بما في ذلك مختلف فروع المعارف[3].

أما إذا جئنا للقرنين الخامس والسادس الهجريين، فنجد أنه قد حدث للتاريخ نوع من اليقظة حيث عاد المؤرخون يزاحم بعضهم بعضاً، وكان السبب في ذلك هو تلك الأوضاع السياسية والحضارية التي حدثت للشرق الاسلامي، من التحدي الفرنجي الصليبي من ناحية، ثم هجوم المغول من ناحية أخرى، وظهور دول إسلامية تواجه هذا الخطر، وتتصدى له، وكان هذا السبب في ظهور مؤرخين كبار في في مطلع هذه الفترة[4].

نظرا للتطور العمراني الذي عرفته مصر منذ بناء الفسطاط ثم بناء العسكر إلى جانبها ثم بناء القطائع الطولونية ثم القاهرة المعزية وما تقلب عليها من عمران وخراب، قد جعل الاهتمام بخطط مصر ودروبها وأحيائها، ورغم أن المقريزي كان قد بلغ القمة في كتاباته في هذا

[1] - عبد الله عنان، المرجع السابق، ص56.

[2] - الزركلي، الأعلام، ج6، ص146.

[3] - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص100.

[4] - نفســــــه، ص100.

المجال إلا أنه يمكن الحديث عن كتابات سابقة في هذا المجال قم بها الكندي والقضاعي، وشرف الدين أبي علي محمد بن اسد الجواني.[1]

ولا شك أن من الأوضاع الحضارية التي ساعدت على العودة إلى الاهتمام بالتاريخ واليقظة الثقافية والعلمية، تلك المدارس التي أنشأها السلاجقة في المشرق لتكون عاملا من عوامل الحفاظ على المذهب الشافعي وتراث أهل السنة والجماعة[2].

أما في القرن السابع الهجري فتمثلت المهمة الكبرى للمؤرخين هو الدفاع الذاتي ضد التحدي الصليبي، وتذكير المسلمين بماضيهم العظيم. فظهرت في المشرق على مدى نصف قرن سبع تواريخ عالمية، كتبها مؤرخون كبار منهم: ابن الأثير (ت: 630هـ/1233م)، وسبط بن الجوزي[3] (ت:653هـ/1256م)، وابن نظيف، وابن أبي الدم (ت: 583هـ/ 1186م)، وياقوت الحموي (ت:622هـ/1225م)، والقفطي (ت: 646هـ/1248م)، وابن أبي أصيبعة[4] (ت: 686هـ/1288م)[5].

وكان المؤرخون المصريون في العصرين الأيوبي والمملوكي، يختلفون في نزعاتهم ومذاهبهم، ولقد رتبهم الباحثون طبقات خمس[6]:

- طبقة لكتابة السير الخاصة.
- طبقة التراجم العامة.
- طبقة لتواريخ المدن والبلدان.
- طبقة التاريخ العام.

---

[1] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج2، ص173.
[2] - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص101.
[3] - الزركلي، الأعلام، ج8، ص246.
[4] - نفســــــــه، ج1، ص197.
[5] - إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص104.
[6] - نفســــــــه، ص104.

وقد ظهر في مصر خلال تلك الفترة كل من "ابن العميد" و"ابن ميسر" حيث تكونا في ظل خلافة بغداد وسلطنة الأيوبيين ثم قضيا السنوات العشرين الأخيرة من عُمريهما في ظل المماليك، فمثلا جسور الاستمرار في الفكر التاريخي ما بين عصر سياسي وعصر آخر، شكلا من أشكال التأكيد على وحدة ذلك الفكر في منهجه ومساره[1].

ولم تكن القاهرة مركز المؤرخين المصريين بل مثلت الإسكندرية أيضا قطبا مهما في كتابة التاريخ خاصة تاريخ المدن ومن بين المصنفات التي كتبت في هذه الفترة كتاب بعنوان "رسالة في فضائل الإسكندرية" لمؤلف مجهول واشتمل على فتح الاسكندرية، والحديث عن أسوارها ومساجدها، وكتاب آخر بعنوان "الدرة السنية في تاريخ الاسكندرية" لمنصور بن سليم السكندري المتوفي سنة 674هـ/1276م، وكتاب بعنوان "فضائل الإسكندرية" لأبي على الحسين بن عمر بن الحسن الصباغ[2].

لقد كان القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي من أكثر القرون تأليفاً، باختلاف الموضوعات وتنوعها. وقد أحصى الدكتور مصطفى شاكر في مدة مائة عام (أي منتصف القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الهجري) نحو ثلاث مائة مؤرخا كتبوا ما يزيد على أكثر من سبعمائة مؤلف في التاريخ، وقد شكل مؤرخو مصر أكثر من ربع مؤرخي المشرق الاسلامي في تلك الفترة، كما أن أعمالهم تقارب ثلث كتب التاريخ التي كتبت فيها[3]، ويمكن القول أن هذا العدد الضخم من المؤرخين ومؤلفاتهم، إنما كان نوعا من الاستجابة للتحدي الحضاري للأمة الإسلامية ومن اليقظة ضد الأخطار التي كادت في تلك الفترة تسحق منطقة الشرق الأوسط كلها[4].

---

[1] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص106.

[2] – نفســــــــــه، ص109.

[3] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص 98.

[4] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص110؛ مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج1، ص465.

ويمكن تصنيف من عمل في علم التاريخ في مصر خلال هذه الفترة إلى ثلاث فئات:

1- **موظفو الدواوين:** وقد اهتم هذا الصنف بأمرين هما سير الحكام والسلاطين، وتعليم ناشئة الديوان صناعة الكتابة وأدواتها الثقافية، والتي يشكل التاريخ جانبا هاما منها. وهكذا قدمت لنا هذه الفئة من المؤرخين مجموعة من السير السلطانية وغيرها تزيد عن31 سيرة، كما قدمت مجموعة من الكتب بلغ بعضها من الضخامة أن أضحى موسوعات كبرى تصل العشرين والثلاثين مجلداً، ومنها: "نهاية الأرب" للنويري، ومسالك الأبصار" للعمري، و"صبح الأعشى" للقلقشندي[1].

2- **علماء الدين:** وكان شغلهم التاريخي يتجه بخاصة إلى التراجم وعلم الرجال، وتعليم الناشئة كل ما يتعلق برواة الحديث والحُفَّاظ، ويتوسعون أحياناً فيشملون باهتمامهم جميع المعاصرين من كم ساسة وكتاب وتجار وأهل تقى ونسك، وهكذا وصلت إلينا ثروة واسعة من كتب الرجال في شكل طبقات ووفيات ومعاجم، بلغت حوالي مائة كتاب في التراجم، ومائة وعشر كتب في الطبقات، ومائة وتسعة وعشرين في السير المختلفة بما في السيرة النبوية[2].

3- **أولاد الجند:** فإن أولاد الجند المملوكي الذي كان الجيل الأول منه أجنبيا على الثقافة العربية، جديدا في الإسلام، أما الجيل الثاني فقد تبنى هذه الثقافة بعمق، وغلبا ما عاش هذا الجيل ميسور الحال بسبب الثروة التي تركها لهم آباؤهم، فحاولوا أن يتميزوا في الوسط الثقافي، وكان التاريخ أهون العلوم مركبا بالإضافة إلى أنه بسبب طبيعته التراكمية، قابل لإعطاء الجديد على الدوام، مع تجدد الأحداث والأيام، لذلك كان ميدانا مغريا لأمثال "ابن تغري بردي" و"بيبرس المنصور الدواداري" و"ابن أيبك" و"مغلطاي" و"ابن دقمان" وأمثالهم،

[1] - مصطفى شاكر، المرجع السابق،ج3، ص 98.

[2] - نفســــــــه، ص 98.

وكان اهتمامهم منصبا في غالب الأحيان على الأحداث السياسية وأخبار المعارك والسلاطين ونزعات الأمراء والحياة العامة، وبعض ما أنتج هؤلاء كان موسوعات تاريخية ضخمة وقعت في مجلدات كثيرة وصل بعضها إلى عشرين أو خمسة وعشرين مجلدا[1].

عنى المؤرخون المصريون خلال هذه الفترة لتاريخ مصر، وكانت النظرة الإقليمية هي السائدة، ويكمن أن نحصي أكثر من 38 تاريخا لمصر باسمها، زيادة على بعض الأراجيز الشعرية أو شروحاتها هذا كما أحصي أكثر من ثلاثين تاريخا في تاريخ المدن[2].

من هنا يمكن أن نقول أن التوجه الموسوعي الذي ظهر في هذه الفترة هو محاولة لإعادة ثقة الأمة بذاتها والهرب إلى تاريخ سابق رائع من واقع سيئ وفي هذا استمساك بالعمود الفقري للحضارة الاسلامية المهددة، كي لا تنهار أمام الخطر الخارجي، وتذكير لها بالماضي الذي انتصرت فيه على كل الصعاب التي واجهتها[3].

ب –أهم مؤرخي العصر وأكبر التآليفات التاريخية خلال القرن (8هـ/13م):

1– أهم مؤرخي العصر:

أ– ابن ظافر الأسدي (ت 613هـ/1216م): وهو جمال الدين أبو الحسن على بن ظافر الأزدي الخزرجي، ولد بمصر سنة 567هـ/1171م، وخلف أباه في التدريس بالمدرسة القمحية المالكية بالقاهرة، وعمل بعد ذلك للملك الأشرف، ولكن عاد إلى بلده سنة(612هـ/ 1215م)، وتوفي بالقاهرة في منتصف شعبان سنة 613هـ/1215م[4].

أهم مؤلفاته:

[1] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص 98.

[2] – نفســـــــه، ص 98.

[3] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص106.

[4] – نفســـــــه، ص113.

– أخبار الدول المنقطعة: وقد رتب فيه على السنين أخبار عدد من الدول الإسلامية كالحمادية والسلجوقية والطولونية والإخشيدية وأخبار الدولة الفاطمية في إفريقية ومصر، ويمكن القول أن كتاب "أخبار الدولة السلجوقية" هو جزء من الكتاب السابق.

– وبدائع البداية: وهو يضم ألوان الحكايات التي انتشرت بعضها في كتب التاريخ والأدب كالأغاني والعقد الفريد والزخيرة والعمدة وغير ذلك[1].

– أخبار الشجعان ويبدو أنه كتاب تاريخي أيضا ومنه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني بلندن وله مؤلفات أخرى ضائعة[2].

ب– زكي الدين المنذري (ت656هـ/1258م): أبو محمد عبد العظيم بن عبد العظيم بن القوي زكي الدين المنذري، ولد بمصر في غرة شعبان سنة (581هـ/1158م)، وسمع بمكة ودمشق وحران والرها والإسكندرية، ثم درس في الجامع الظافري بالقاهرة، وولي مشيخة الشافعية في دار الحديث الكاملية نحو عشرين سنة، وتوفي رابع ذي الحجة سنة (656هـ/1258م) بالإسكندرية[3].

له عدة مؤلفات يغلب عليها تراجم رجال الحديث وأشهرها كتابه "التكملة لوفيات النقلة"[4]. يعتبر المؤرخ المنذري حافظ عصره دون منازع، وإماما وحجة ثبتا ورعا فيما يقوله وينقله، وناقدا ماهرا في علم الجرح والتعديل بارعا في علم الرجال والإفتاء، واسع الاطلاع على الأدب، ومكثرا من رواية الشعر، هذا إلى جانب الزهد والورع والتصوف[5].

وله كتب أخرى أشهرها[6]:

---

[1] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص114.

[2] – كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص256؛ إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص114.

[3] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص114.

[4] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 107.

[5] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص115.

[6] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 108؛ إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص115.

– ترجمة أبي بكر الطرطوشي وقد ذكره ابن خلكان (ت:681م/ 1281م) في وفيات الاعيان.

– الإعلام بأخبار شيخ البخاري محمد بن سلام السلمي بالولاء البخاري البيكندي المحدث (ت: 255هـ/870م). وذكره صاحب كتاب كشف الظنون.

– تاريخ من دخل مصر، وقد نقل عنه السيوطي في "بغية الوعاة"، كما نقل عنه الكامل الادفوي (ت738هـ).

جـ – المكين بن العميد (ت: 672هـ/ 1273م): وهو جرجيس (أبو عبد الله) بن أبي اليسر بن ابي المكارم المكين بن العميد ولد بالقاهرة سنة (602هـ/1205م) لموظف نصراني لديوان الحرب، وشغل وهو شاب وظيفة مماثلة ولما فقد ولي أبيه والي سوريا علاء الدين طبريس، حضوته لدى السلطان دعى جميع موظفي ديوانه إلى مصر فيهم أبي اليسير وابنه فوضعوا هناك في السجن وتوفي الأب سنة (636هـ/1238م)، غير ان الابن لم يلبث أن استعاد حريته ووظيفته في سوريا ، وبعد أن ثارت حوله الشبهات في سوريا ذهب على دمشق معتكفا وتوفي سنة (672هـ/ 1273م). [1]

ومؤلفه يحمل اسم تاريخ ابن العميد كل عنوان المجموع المبارك والتاريخ الجامع وهو في أخبار العالم من أول الخليقة على عهد الملك الظاهر بيبرس (658هـ/1260م) فهو تاريخ عالمي وقد جعله قسمين[2]:

– القسم الأول من أول الخليقة إلى ظهور الاسلام اختصر فيه التواريخ وذكر ما حدث للأمم وذكر قصص الأنبياء وملوك النصارى الروم إلى ظهور الإسلام.

– القسم الثاني من ظهور الإسلام إلى سنة (658هـ/1260م) وسماه "تاريخ المسلمين" وقد ترجم كتابه إلى عدة لغات[1].

[1] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 109.

[2] – نفســــــه، ص109.

د – ابن ميسر سنة (ت 677 هـ/1278م): وهو تاج الدين محمد علي بن يوسف بن جنب راغب المعروف بان ميسر القاضي الفاضل توفي سنة(677هـ/1278م) والمعلومات عن هذا المؤرخ قليلة جدا وهي تذكر أنه مؤرخ فاضل وبارع له تصانيف عديدة وأنه دفن في المقطم ومن مؤلفاته في التاريخ كتاب قضاة مصر ولا نعلم شيئا عنه سوى انه كان من بين مصادر ابن حجر العسقلاني في "رفع الإصر"[2] وكتاب في تاريخ مصر أو أخبار مصر وهو تاريخ على السنين في مجلدين، ذيل به ابن الميسر على تاريخ المسبحي المتوفى سنة (320هـ/ 1029م) [3] وكان في إثني عشر مجلداً[4].

هـ – المفضل بن أبي الفضائل (ت: 741هـ/1341م): كتب ذيلا باسم "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد" وفيه تراجم بعض السلاطين والمماليك، و"تاريخ البطاركة اليعاقبة" و"تاريخ المسلمين في اليمن والهند والتتر".

و– ابن عبد الظاهر (ت: 692هـ/1293م): وهو أبو الفضل محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي المصري الضرير، كان كاتب الإنشاء وصاحب ديوان الإنشاء في بلاط الملك بيبرس ثم لدى السلطان قلاوون.[5]

له "النظم الفائق والنثر الرائق" وقد ذكره السيوطي، و"شيخ أهل الرسل" وذكره ابن شاكر في "فوات الوفيات"، وقد جاء كلاهما بأسلوب أدبي غني بالبديع[6].

أما التراث التاريخي لابن عبد الظاهر فيتكون من[7]:

---

[1] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص116.

[2] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 111.

[3] – إبراهيم فرغلي، المرجع السابق، ص117.

[4] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص 111.

[5] – ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج7، ص98.

[6] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 112.

[7] – نفســــــــه، ص 113.

– الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس وهو منظومة شعرية وهو يمتد من أول سيرة إلى سنة (663هـ/1265م)، وقد اختصر شافع العسقلاني (ت 639هـ /1251م) هذه السيرة نثراً.

– "تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور"[1] (قلاوون).

– "الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية المكية الأشرفية" وهي في سيرة الملك الأشرف خليل (ت: 693هـ/ 1293م). ولعلها آخر ما كتبه ابن عبد الظاهر قبل وفاته.

بالإضافة على كتب أخرى في التاريخ، وترجع أهمية مؤلفات ابن عبد الظاهر أنه حفظ لنا الكثير من وثائق العصر في صورتها الأصلية، حيث أعتبر مصدرا هاما للكثير من المؤرخين الذين جاؤوا من بعده الذين كتبوا عن سلاطين المماليك الأوائل ومنهم بيبرس وقلاوون والأشرف، فقد اعتمد عليه القلقشندي في "صبح الأعشى"، والمقريزي نقل عنه الكثير في كتاب "الخطط"[2].

ز – النويري: (ت:732هـ/1332م): هو أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة، الشيخ الإمام المؤرخ شهاب الدين، البكري، النويري، الشافعي[3]، يعتبر النووي رأس المدرسة التاريخية المصرية في العصر المملوكي، ولد حوالي سنة 660هـ/ 1262م، درس بالأزهر الشريف، وتخصص في دراسة الحديث والتاريخ والأدب، اشتغل في شبابه مدة في بنسخ الكتب الجليلة، وكان أنيق الخط، كان يكتب النسخة من صحيح

[1] – محمد بن شاكر بن أحمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1973، ج2، ص179.

[2] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 114.

[3] – يوسف بن تغري بردي بن عبد الله أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1، ص381.

البخاري ويبيعها بألف دينار[1]، يقول ابن تعري بردي: "كان فقيهاً فاضلاً، مؤرخاً بارعاً، وله مشاركة جيدة في علوم، وكتب الخط المنسوب، قيل إنه كتب صحيح البخاري ثمان مرات، وكان يبيع كل نسخة من البخاري بخطه بألف درهم"[2].

اتصل النووي ببلاط الملك الناصر بن قلاوون، ونال عطفه وحظوته، وتقلب في عدة وظائف إدارية ومالية ظهرت فيها جميعاً، كفايته وتفوقه، لكن حبه للأدب جعله يعتزل كل هذا ويتفرغ للتأليف، ويمكن القول أن النويري انقطع في الفترة الفاصلة بين 710هـ/ 1310م– 720هـ/ 1320م، إلى العلم والتتأليف فأنتج لنا بعدها أول جزء من موسوعته "نهاية الأرب في فنون الأدب" سنة 721هـ/1321م[3]، فقال عنه ابن تغري بردي في المنهل الصافي: "وكان يكتب في كل يوم ثلاث كراريس، وألف تاريخاً سماه منتهى الأرب في علم الأدب في ثلاثين مجلداً".[4]

لكن موسوعة "نهاية الأرب" لم تعالج الأدب فقط بل تعدته إلى التاريخ والجغرافية، والسياسة الملكية، والبيان والبديع، والأمثال والأوصاف، ويفيض بالكلام على المواد العلمية المحضة مثل الطب والرياضة والكمياء وغيرها، مصممة على خمس أقسام كل قسم ينقسم إلى عدد من الأبواب، وهذه الفنون الخمسة تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين: الأولى تشمل من الفن الأول: إلى الرابع، وتشمل عشرة مجلدات، وتشمل المجموعة الثانية على الفن الخامس فقط، وتشغل واحداً وعشرين مجلداً. [5]

[1] – محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص70.

[2] – ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص381.

[3] – محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص70.

[4] – ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص381.

[5] – محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص72.

لكن النويري لم يبتكر مخطط الكتاب بل اقتبسه مع بعض التصرف من مؤلف معاصر له هو محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوطواط (ت: 718هـ/ 1318م) الذي وضع موسوعة صغيرة عنوانها "مباهج الفكر ومناهج العبر".[1]

وقد وضع النويري خطته على أساس الأقاليم الجغرافية أولاً، ثم على الأساس الزمني، من الأسرات الحاكمة، وتوسع خاصة في السيرة النبوية وفي تاريخ مصر والشام، وخاصة المماليك، وجمع مادته من مختلف المؤرخين الكبار، وحفظ لنا أحياناً كثيرة بعضاً مما ضاع من آثارهم، ومنهم ابن ميسر، والجزري، وابن السباعي، وابن الأثير، وابن واصل، وابن خلكان، وابن عبد الظاهر، والنسوي، وهنا نجد النويري المؤرخ الحقيقي فهو لا يكتفي بما يأخذ عن الآخرين، ولكن يضيف إلى الأحداث رأيه وخبراته ومعلوماته.[2]

ح- ابن الملقن: (ت:803هـ/1403م): وهو عمر بن على بن احْمَد بن مُحَمَّد الانصاري سراج الدَّين أَبُو حَفْص المصرى الشَّافِعِي الْمَعْرُوف بِابْن الملقن[3]، توفي أبوه وعمره سنة فنسبه الناس على زوج أمه الذي كان يلقن القرآن، فعرف بابن الملقن، وإن كان يرفض هذا الاسم[4]، اختص في علم الحديث، فجاءت جهوده ومعارفه وإنتاجه في التاريخ من باب خدمة الحديث، قال الزركلي: " من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال "[5]، بالرغم من أنه اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً، وبرع في الفقه وفي الخط وفي

[1] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.

[2] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص122.

[3] – خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، الأعلام، ج5، دار العلم للملايين، 2002، ص57؛ إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج1، ص792.

[4] – مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.

[5] – الزركلي، الأعلام، ج5، ص 57.

الأصول وفي الإفتاء، وكان له عدد كبير من المؤلفات، يقول الزركلي في الاعلام:" له نحو ثلاثمائة مصنف"[1]، وبعضها في مجلدات تبلغ العشرين[2]، ومن أهمها:

1- نزهة النظار في قضاة مصر: وقد وصل فيه المؤلف إلى سنة 780هـ، ورتبه طبقة بعد طبقة، وأورد في آخره منظومات في أسماء القضاة. [3]

2- إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ذكر فيه تراجم كتب ستة هم أحمد بن حنبل وابن خزيمة وابن حبال والدارقطني، والحاكم، ويبدو أن معظمه ضاع حتى أن السخاوي لم يطلع إلا على مجلد واحد منه، وقد ذكره في الضوء اللامع قائلاً"ومن تصانيفه ومما لم أقف عليه إكمال تهذيب الكمال ذكر فيه تراجم رجال كتب ستة وهي أحمد وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم، قلت: قد رأيت منه مجلدا وأمره فيه سهل"[4].

3- العقد المذهب في طبقات حملة المذهب: وهو في طبقات الشافعية، من زمن الشافعي رضي الله عنه، إلى سنة 770هـ، وعدة الأسماء فيه ألف وسبعمائة، أخذ من طبقات الاسنوي وابن كثير والسبكي. وقد رتبه على ثلاث طبقات: الأولى في أصحاب الوجوه وهذه على 34 طبقة، أما الثانية فهي دونهم وفيها ست وثلاثون طبقة، والثالثة على حروف المعجم[5].

4- الاشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات[6]: وهو مختصر كتاب "نهاية المنهاج إلى ما استدرك على المنهاج" للإمام النووي، وقد قسمه المؤلف ثلاث أقسام: الأول في الناحية اللغوية، والثاني في الأسماء المشتركة والمترادفة، والثالث في أسماء

---

[1] - نفســــــه، ص57.

[2] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص120.

[3] - نفســــــه، ص120.

[4] - السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص102.

[5] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص126.

[6] - البابانى، هدية العارفين، ج1، ص791.

الأماكن وتحقيقها في مواطنها وضبطها. بدأ في تأليفه سنة 743هـ ثم زاد عليه بقدره سنة 745هـ. ثم لم يزل يزيد حتى 758هـ[1].

5- كتاب الصوفية: وهو في مجلد صغير جمع فيه جملة من طبقات العلماء الاعيان وأوتاد الأقطار في كل قطر وأوان.[2]

جـ- أكبر التآليف التاريخية (الموسوعية) لهذا العصر:

إذا كان التأليف العربي على الطريق الموسوعية قد بدأ مع كتاب "مفاتيح العلوم" لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي المتوفى سنة 387هـ/ 997م فإن القرن الثامن الهجري في مصر يمتاز بظاهرة ثقافية خاصة، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى؛ فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء الذين توفروا على جمع أشتات العلوم والفنون المعروفة يومئذ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل، وكتبت فيه عدة موسوعات جليلة ما زالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي. وأقطاب هذه الحركة ثلاثة من أكابر العلماء والكتاب المصريين هم: أحمد بن عبد الوهاب النويري، المتوفى سنة 733هـ/ 1333م صاحب كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب"، وأحمد بن فضل الله العمري، المتوفى سنة 749هـ/ 1348م، صاحب كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وأبو العباس القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى في كتابة الإنشا".[3]

وهذه أهم التآليف الكبرى (الموسوعات) المتنوعة المحتوى لكنها ذات طابع تاريخي، والتي عرفها هذا العصر:

[1] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص126.

[2] - نفســــــــه، ص126.

[3] - القلقشندي، صبح الأعشى (مقدمة المحقق)، ج1، ص3.

1- المختصر في علم التاريخ للمحي الكافيجي:

ولد "محي الدين أبو عبد الله، محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي، الحنفي" المعروف بـ"الكافيجي"، في بلاد الروم قبل التسعين وسبعمائة للهجرة ونشأ بها، متتلمذ على يد جماعة من العلماء، منهم: "البرهان الخافي"، و"الحافظ البرازي" و"البرهان حيدرة" و"عبد الواحد الكوتاني" و"الشمس الفنري"، وغيرهم[1]، يقول السيوطي: "ولقي العلماء الأجلاء، فأخذ عن الشمس الفنري، والبرهان حيدرة، والشيخ واحد، وابن فرشته شارح المجمع، وحافظ الدين البزازي"[2].

إرتحل إلى الشام والحجاز، حيث حج أكثر من مرة، والقدس ومصر، التي دخلها في أثناء سلطنة "أشرف برسباي"(ت: 831هـ/1438م)، متخذاً من القاهرة موطناً له، وقد تنزل في "البرقوقية" منصرفا إلى التدريس والفتوى، فاجتمع به مشاهير علمائها وتلاميذها من سائر المذاهب، كما قصده الطلبة من خارجها وقد رأوا فيه اجتهاداً في تحصيل العلم، ودأباً في تقريره، وتقدما في أكثر فروعه، كالفقه، والأصول، والفرائض، والكلام، والحديث، واللغة، والفلسفة، حتى وصفه السخاوي بـ: "علامة الدهر وأوحد العصر، ونادرة الزمان، وفخر هذا الوقت والأوان"[3]؛ ولدى السيوطي: "إماما كبيراً في المعقولات كلها"[4]؛ وهذا ما أهَّله لتولي بعض الوظائف الدينية، إذْ أسند له "الظاهر جقمق" (ت:857هـ/1453م) مشيخة زاوية "الأشرف برسباي"، كما أسند له "الأشرف اينال" (ت:865هـ/1461م) "مشيخة الشيخونية"، فظل بها حتى توفي في الرابع من جمادى الثانية سنة تسع وسبعين

[1] – محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات "من دولة المماليك الجراكسة"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص16.

[2] – جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص117.

[3] – السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص 261.

[4] – جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ج1، ص 117.

وثمانمائة للهجرة، مخلفا وراءه تراثاً ضخماً[1]، كانت أهم مؤلفاته في المختصرات[2]، ويهمنا منه مؤلفه "المختصر في علم التاريخ"، يذكره السخاوي بعنوان آخر بقوله: "له المختصر في علم الأثر والمختصر المفيد في علم التاريخ".[3]

يعتبر "المختصر في علم التاريخ" من أهم مؤلفات الكافيجي، فرغ من تأليفه يوم الثلاثاء الثامن رجب سنة 867هـ/1462م، مرتبا على مقدمة وثلاث أبواب، وخاتمة[4]. وجاءت كما يلي:

1- مقدمة[5]:

أ- الإشادة بفوائد علم التاريخ.

ب- الدافع إلى تأليفه.

جـ- عنوان الكتاب.

د- تنظيم مادة الكتاب.

هـ- الاحتياط لما هو بصدد الكتابة فيه.

2- الباب الأول: في مبادئ علم التاريخ التأريخ[6].

أ- التعريف بلفظ التاريخ لغة واصطلاحاً.

ب- التعريف بالزمان: الوقت

جـ- التعريف بأقسام الزمان لغويا وفلكيا (السنة الشمسية والقمرية)، الشهر واليوم.

---

[1] - محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 19.

[2] - جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص118.

[3] - السخاوين الضوء اللامع، ج7، ص260.

[4] - محمد عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 22.

[5] - نفســـــــه، ص 22.

[6] - نفســـــــه، ص 23.

د- السبب في اتخاذ المسلمين للتأريخ.

هـ- العلة في التاريخ من لدن الهجرة.

و- التاريخ لاتخاذ المسلمين للتأريخ: بعد أن "كانوا يسمون كل سنة باسم الحادثة التي وقعت فيها ويؤرخون بها، أصبحوا يتخذون العدد للتاريخ".

ز- حصر التواريخ المشهورة (التقويم عند مختلف الشعوب).

حـ- تحديد موضوع علم التاريخ.

ط- التعليل لوجوب الاحتجاج إلى علم التاريخ.

ك- الشروط الواجب توافرها في المؤرخ.

3- الباب الثاني: في أصول علم التاريخ ومسائله[1]:

أ - إعتبار وجه الحضور والعيان.

ب- اعتبار وجه العلم واليقين.

جـ- إعتبار وجه غلبة الظن.

د – اعتبار وجه تعارض بلا ترجيح.

هـ- إعتبار وجه غير هذه الوجوه الأربعة السالفة.

4- الباب الثالث: فقد جعله في بيان شرف أهل العلم، وفي فضل العلم، وفي بيان ما يفيد التذكير والاعتبار: وقد أورد قصتين من باب التذكير والاعتبار[2]:

أ - قصة العنقاء.

ب- قصة ذي القرنين.

5- الخاتمة: شغلت عدة سطورن وأريد بها التأريخ لفراغ مؤلفه من تحريره، على ما نبه إليه قبل.

---

[1] - محمد عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 26.

[2] - نفســــــــه، ص 28.

– أسلوب الكتاب:

أسلوب الكتاب تتمازج فيه لغتي العلم والأدب، ذلك لأن المؤلف صاحب مهارات وامكانيات علمية وأدبية كبيرة، في جميع المجالات التاريخية والفقهية والفلكية، كل هذا تجلى في تحليله للظواهر وقدرته على استخلاص النتائج والعبر ومقارنه الاحداث والأفكار.[1]

– مصادر الكتاب:

لم يُصرح بمصادر كتابه ولم ينسب مادته إلى أصحابها، اللهم إلا في ثلاث مواضع، نسب في: [2]

– أولها إلى الشيرازي (ت:710هـ/1311م) في كتابه "نهاية الإدراك في دراية الأفلاك"،

– وثانيها لـ"السيف الآمدي" (ت:631هـ/1233م) في كتابه "أبكار الأفكار"،

– في ثالثها لـ "الجوهري" (ت:393هـ/1003م) في كتابه الصحاح في اللغة.

لكن يُلاحظ استعماله عدة مصادر أخرى رغم أنه لم يصرح بها لكن مادتها واضحة في الكتاب، ومنها:

– عرائس المجالس للثعلبي.

– "فضائل مصر" لعمر بن محمد بن يوسف الكندي.

– تقويم الكتاب:

ويمكن القول أن الكتاب كان نبراسا للعديد من المؤلفين الذين جاءوا من بعده والذين ألفوا كتبا في نفس المجال؛ ونذكر منهم على سبيل المثال: "السخاوي" في كتابه

[1] – محمد عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 29.

[2] – نفســــــــه، ص 30.

"الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ"، و"السيوطي" في كتابه "الشماريخ في علم التاريخ"، حيث يمكن اعتبارُ هذين المؤلفين امتدادا له و إضافة إليه أيضاً[1].

ترجع أهمية الكتاب في كونه الكتاب الوحيد الذي أُلِّف في تلك المرحلة حول مصطلح علم التاريخ مستوفياً لجانبيه النظري والتطبيقي، رغم أن بعض مادته مقتضب فهو لا يتعدى أن يكون أشبه برؤوس أقلام.

2- تاريخ الرسل والملوك لابن الفرات: (ت:907هـ/1405م)هو "محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد المحب أبو الشفاء بن الشهاب بن ناصر الدين المقرئ المالكي ويعرف بابن الفرات باسم النهر"[2]، "ولد في سنة سبعين وسبعمائة تقريبا (735هـ/1336م) بالقاهرة، وقرأ بها القرآن، وتلا به لأبي عمرو علي الفخر الضرير، وأخذ الفقه عن عبيد البشكالسي، والشهاب المغراري، وفي النحو عن المحب بن هشام، قرأ عليه جميع التوضيح لأبيه، وسمع على قريبه ناصر الدين محمد بن الحسن ابن الفرات الحنفي، وأبي الفرج بن الشيخة وجلس يؤدب الأطفال برأس الزجاجيين، وأخذ عنه ابن فهد والبقاعي"[3]، والرجل من أوساط الشيوخ المحدثين أو الموظفين. شدا على طريقة التعليم في عصره بعد الحديث الحديث في مصر وفي دمشق، وسمع من حفاظ عصره كما أسمع وتكسب بحوانيت الشعوب في ظاهر القاهرة على باب المقاهي كما ولي خطابة المدرسة المعزية بمصر وعقود الزواج. لكنه كان لهجا بالتاريخ لا يزال مكبا على كتابته كما يقول السخاوي. ومن باب الهواية تحول ابن الفرات مؤرخا ذا مشروع من أجرأ المشاريع التاريخية هو أن يقدم تاريخا عاما وإسلاميا يجمع فيه كل شيء وهكذا ولد كتابه التاريخي الكبير تاريخ الدول والملوك[4].

---

[1] - محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 31.

[2] - السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص78؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج2، ص313.

[3] - السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص78.

[4] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 128.

كتب ابن الفرات في تاريخه مسودة تبلغ مائة مجلد، بيض منها نحو العشرين، وقفتُ عليها واستفدت منها. وهي القرون الثلاثة الأخيرة" أي القرون الثامن والسابع والسادس. وآخر ما كتب إلى إنتهاء سنة ثلاث وثمانمائة هجرية الموافق لألف وأربعمائة ميلادي[1]، يقول عنه ابن حجر: " وكان لهجاً بالتاريخ فكتب تاريخاً كبيراً جدّاً بيّض بعضه فأكمل منه المائة الثامنة ثم السابعة ثم السادسة ثم هكذا صنع في نحو من عشرين مجلّداً ثم شرع في الخامسة وشرع في تبييض المائة الرابعة فأدركته الوفاة وكتب شيئاً يسيراً من أوّل القرن التاسع، وتاريخه في هذا كثير الفائدة إلاّ أنه بعبارة عامّية جدّاً ".[2]

وطريقة ابن الفرات أن يتخير من المصادر ما يريد الكلام عنه فيثبته بالنص الحرفي بعد ذكر المصدر، الذي قد يذكره تفصيلا أو يذكر عنوانه فحسب أو صاحبه وحده، أو يكتفي بالقول: "قال أهل التواريخ" الكتاب منظم على أساس السنين كما أن ابن الفرات لم ينس الوفيات فهو يثبتها في ذيول الحوادث[3].

وترجع أهمية تاريخ ابن الفرات من أمرين إثنين:

1- أنه حفظ لنا أقساما كبيرة من بعض الكتب الضائعة، والمؤلفين المجهولين أحيانا تمام الجهل، ومن هؤلاء مثلاً تواريخ ابن أبي طي التي فقدت كلها، وكتاب "المختار من عيون التواريخ" لابن أبي أصيبعة، وكتاب "نظم السلوك" لسبط بن عبد الظاهر، وكتاب "معادن الذهب في تاريخ الملوك والعلماء وذوي الرتب" وكتاب "جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام" لأبي الغنائم، و"ذخيرة الكتاب" لابن المكرم، وغيرها كثير.[4]

[1] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص 128.

[2] - ابن حجرن إنباء الغمر، ج2، ص313.

[3] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3،ص 128.

[4] - نفســـــــــــه، ص128.

2- تاريخ عصره فإنه مُسَجِّلُهُ بدقة، وهو لا يذكر تاريخ الحادث فقط، ولكن يذكر اليوم كما يذكر الوقت بدقة، فالأقسام الأخيرة من تاريخه تحسبها جريدة يومية. وقد تدرج في ذلك حسب الأجزاء فهو في أحداث القرن السادس يتابع السنين مع الإشارة أحيانا للأشهر والأيام، وفي السابع منذ أواسطه وحتى أواسط الثامن، يسجل بالشهور ويضيف الأيام ما أمكنته المصادر. وفي القرن التاسع تصبح الأيام والساعات هي طريقة التأريخ عنده. واعتمد في ذلك على ما يسمع ويقرأ ويشهد[1].

ويلاحظ على ابن الفرات المؤرخ أربعة أمور أخرى هي[2]:

1- أنه يتخير النصوص الأقدم والمعاصرة للأحداث حين ينقل عن المصادر.

2- أنه يناقش بعض الاحداث أحياناً ويرجح خبراً على آخره.

3- أنه ذو ميل أدبي واضح فهو ينقل احيانا القصائد الطويلة ويبدي الرأي الأدب.

4- أنه يقع في اللحن الفاحش والعبارة العامة جداً في كثير من الأحيان.

لم يبق لنا شيء من مسودة ابن الفرات. أما المجلدات العشرون التي بيضها للقرون السادس والسابع والثامن. فقد بقي منها عشر مجلدات محفوظة بخطه.

3- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقمان:

هو صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، المعروف بابن دقمان (ت:809هـ/1408م)، تدرج جده لأبيه عز الدين أيدمر أحد أمراء الناصر محمد بن قلوون في وظائف الدولة المملوكية إلى أن ولي نقابة الجيوش المنصورة عوضا عن شمس الدين المهمندار

[1] - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج3، ص 128.

[2] - نفســـــه، ص 128.

(ت:732هـ/1332م)، سنة سبع وعشرين وسبعمائة للهجرة، وظل شاغلا لهذه الوظيفة إلى حين وفاته في سادس سنة أربع وثلاثين وسبعمائة للهجرة.[1]

ولد صارم صارم الدين ابراهيم، في حدود الخمسين وسبعمائة، ونشأ في طبقة أولاد الناس، ودرس وتفقه على المذهب الحنفي، واشتغل بالعلم، وأسندت إليه وظيفة خزن الكتب في الخانقات الصلاحية، كما تولى قبل وفاته ولاية "دمياط" ثم عزل وعاد إلى القاهرة، فمات بها بعد قليل، في ذي الحجة سنة تسع وثمانمائة عن نحو الستين عاماً.[2]

له عدة مؤلفات من أهمها:

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار.
- ترجمان الزمان في تراجم الأعيان.
- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين.
- الدر المنضد في وفيات أمة محمد.
- فوائد الفوائد.
- الكنوز الخفية في تراجم الصوفية.
- نزهة الانام في تاريخ الإسلام.
- نظم الجمان في طبقات أصحاب إمامنا النعمان.
- ينبوع المزاهر في سير الملك الظاهر.

نعته ابن حجر بمؤرخ الديار المصرية في زمانه، اما السيوطي فقد تحدث عن حسن محاضرته، وأشار ابن حجر في صدر كتابه "الانباء"، واعتمد عليه الكثير من المؤرخين مثل "ابن تغري بردي" و"ابن الفرات"، و"ابن حجر"، و"البدر العيني".

[1] - محمد عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 106.

[2] - نفســـــــه، ص 106.

4- المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقريزي:

ولد تقي الدين أبو محمد، أحمد بن علي عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن تميم[1].

ترك المقريزي عدة مؤلفات في مجال التاريخ والأنساب والعقائد والفقه والأدب، والعلوم البحته زادت على نحو مائتي مجلدة كبار، ولكن لم يبق من هذه المؤلفات إلا النزر اليسير، المثبت عناوينه لدى من ترجم له، أو اعتنى بالفهرسة العامة.[2]

واسندل للمقريزي وظائف مهمة ومتنوعة، كان بعضها في مصر وبعضها في الشام، فقد كتب التوقيع، وولي الحسبة بالقاهرة سنة إحدى وثمانمائة، والخطابة بجامع عمرو وبمدرسة الناصر حسن، والامامة بجامع الحاكم ونظره، وقراءة الحديث بالمؤيدية، ودخل دمشق مراراً، وتولى بها نظر وقف القلانسي والبيمارستان النوري، كما عرض عليه "الناصر فرج قضاء قضاة الشافعية في الشام، فأبى، ورشحه لأن يكون رسولاً (سفيراً) له لدى "تيمور لنك".[3]

له عدة مؤلفات أهمها[4]:

1- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.

2- إغاثة الأمة في كشف الأمة.

3- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.

4- التاريخ الكبير المقفى في تاريخ مصر والواردين عليها.

5- تراجم ملوك الغرب.

6- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة.

---

[1] - محمد كمال الدين عز الدين، المقريزي مؤرخاً، ط1، عالم الفكر، 1990. ص23، 24؛ محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 157.

[2] - محمد كمال الدين عز الدين، المقريزي مؤرخاً، ص51.

[3] - محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، ص 173.

[4] - نفســـــه، ص51.

أما كتابه الذي هو محور حديثنا فهو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار. وألفه في تاريخ "مصر" وخططها، انقسم إلى مقدمة وسبع أجزاء[1]:

المقدمة: وأشار فيها المقريزي إلى ما دفعه لتأليف الكتاب، وتضمن محتواه ومنهجه في تنظيم مادته، وقد شرح ذلك بقوله:

"أعلم أنَّ عادة القدماء من المعلمين قد جرت أنْ يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهي: الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة وصحة الكتاب ومن أيّ صناعة هو وكم فيه من أجزاء وأيّ أنحاء التعاليم المستعملة فيه فنقول: أما الغرض في هذا التأليف فإنه جمع ما تفرّق من أخبار أرض مِصْر وأحوال سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مِصر وهي التي إذا حصلت في ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر في كل وقت بما كان في أرض مِصْر من الآثار الباقية والبائدة ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها وكيف كانت مصائر أمورهم وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر".[2]

ويشرح المقريزي منهجه في تقسيم الكتاب كما يلي[3]:

وأما أجزاءه أولها: يشتمل على جمل من أخبار أرض مِضر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها.

وثانيها: يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها.

وثالثها: يشتمل على أخبار فسطاط مِصر ومن ملكها.

رابعها: يشتمل على أخبار القاهرة وخلائقها وما كان لهم من الآثار.

[1] – نفســـــه، ص140.

[2] – المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1،ص9؛ محمد كمال الدين عز الدين، المقريزي مؤرخاً، ص140.

[3] – المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص10.

وخامسها: يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال.

وسادسها: يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها.

وسابعها: يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر.

وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدة أقسام.

مصادره: ويتحدث المقريزي عن مصادر الكتاب قائلاً:"سلكت فيه ثلاث أنحاء، وهي: النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته"[1].

1- المؤلفات السابقة: فأما النقل من داوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم، فإني أعزو كل نقل إلى الكتاب الذي نقلته منه، لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته، فكثيرًا ممن ضمني وإياه العصر، واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ، وجهل مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذي يقطع عليه ولا يحتاج في الشريعة إليه وحسب العالم أنْ يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه.[2]

لكن السخاوي يذكر في كتابه الضوء اللامع شيئا مهما عندما يتحدث عن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الله الشهاب الأوحدي، فقد اورد ما يلي: "واعتنى بالتاريخ وكان لهجا به وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها فبيضها التقي المقريزي ونسبها لنفسه مع زيادات"[3]

[1] - المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1،ص10.

[2] - المقريزي، المواعظ والاعتبار ، ج1،ص11.

[3] - السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص956.

2- الأخذ الشفهي عن العلماء: وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ، فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدّثني إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه، أو أكون قد أنسيته، وقلّ ما يتفق مثل ذلك[1].

3- المشاهدة الشخصية: وأمّا ما شاهدته فإني أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين، وقد قلت في هذه الرؤوس الثمانية ما فيه قنع وكفاية، ولم يبق إلا أنْ أشرع فيما قصدت، وعزمي أن أجعل الكلام في كل خط من الأخطاط، وفي كل أثر من الآثار على حدة، ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع وأكثر فائدة وأسهل تناولًا. [2]

لقد كان للمقريزي الأثر الكبير على المؤرخين الذين جاءوا بعده، فقد ظهرت بصماته واضحة على تطور علم التاريخ من ناحية المنهج أو المادة.

[1] - المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1،ص11.

[2] - نفســــــه،ص11.

4- حياة القلقشندي:

أ- اِسم ونسب القلقشندي:

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبي اليمن الفزازي القلقشندي ثم القاهري الشافعي، نسبة إلى بلدة قلقشندة[1].

وهناك اختلاف في تسمية أبائه فقد أورد ابن حجر العسقلاني في كتاب "إنباء الغمر بأنباء العمر" ما يلي: "أحمد بن علي بن أحمد، القلقشندي نزيل القاهرة، تفقه وتمهر وتعانى الأدب، وكتب في الإنشاء وناب في الحكم، وكان يستحضر الحاوي وكتب شيئاً على جامع المختصرات، وصنف كتاباً حافلاً سماه صبح الأعشى في معرفة الإنشاء وكان مستحضراً لأكثر ذلك، مات في جمادى الآخرة عن خمس وستين سنة "[2]، ويذكر السخاوي في "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"ما يلي: "أَحْمد بن عبد الله بن أَحْمد بن عبد الله الشهَاب بن الْجمال القلقشندي، يَأْتِي فِي ابْن عَليّ بن أَحْمد بن عبد الله فَالصَّوَاب فِي اسْم أَبِيه عَليّ"[3]، وهو يقارن ويرجح بين كلا النسبين على أن اسم والده هو علي، وبالتالي يكون نسبه بأن اسمه أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبو اليمن الفزازي القلقشندي ثم القاهري الشافعي، في حين يرد اسمه في كتاب هدية العارفين قائلاً: "أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي شهاب الدين أبو العباس المصري الشافعي"[4].

---

[1] – قرية قلقشندة: تقع على الجنوب من مركز طوخ، مديرية القليونة.

[2] – أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1969، ص 178.

[3] – شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، ص 355.

[4] – إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج1، طبع وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول، 1951، ص122.

لكن معظم الذين ترجموا للقلقشندي اعتمدوا على ما جاء به السخاوي في النجم اللامع حين قال: " فَالصَّوَاب فِي اسْم أَبِيه عَليّ"[1]، وهو في ذكر ذلك ينتقد من سبقه في ترجمته حيث يقول: "وسمى العيني والمقريزي والده عبد الله وهو وهم"[2]. لكن رغم انتقاد السخاوي للعيني والمقريزي إلا أنه لم يقدم دليلا على ما ذهب إليه ورغم أنهما معاصران للقلقشندي، لكن ما يحسب لابن حجر أنه كان معاصرا لابنه نجم الدين وقد ترجم له أيضاً[3].

ينتمي إلى أسرة عريقة تنحدر من قبيلة "بني بدر" من فزارة" حيث يتحدث عنها القلقشندي نفسه في أحد كتبه التي خصصها للأنساب، فيقول: "وبنو بدر من فزارة قبيلتنا التي إليها نعزي، وفيها ننتسب، ولهم أجل بلاد العرب –القليوبية من الديار المصرية– ويجاورهم فيها بنو عمهم من بني مازن بن فزارة، ولكل منها بلاد تخصه، ولازالت بينهما العداوة والشحناء، ولبني بدر منهم الرياسة والقوة والغلبة، وأهل بلدتنا قلقشندة من القليوبية فرقتان: فرقة بني بدر، وفرقة من بني مازن"[4].

ب– مولده ونشأته تعليمه:

كان مولد أبو العباس القلقشندي سنة (756هـ/1355م)[5] بقلقشندة، على أن هذا التاريخ متفق عليه، ولم يحدث أن اختلف في ذلك إثنان من المؤرخين الذين ترجموا له، حيث أشار معظم المؤرخين إلى سنِّهِ عند الوفاة فذكر ذلك المقريزي وابن تغري بردي، والسخاوي، حيث توفي في القاهرة ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة سنة 821هـ/ 1418م. عن نحو خمسة وستين سنة[6].

---

[1] – السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص 355.

[2] – السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص8.

[3] – القلقشندي، نهاية الارب، (مقدمة المحقق إبراهيم الأبياري).

[4] – القلقشندي، نهاية الارب، ص177.

[5] – السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص8.

[6] – أحمد الذنيبات، المرجع السابق، ص37.

تلقى القلقشندي تعليمه الأول في قريته "قلقشندة" وبقي بها حتى سن الخامسة عشر تقريباً، إذْ لا يعرف سن انتقاله إلى الاسكندرية، ويبدو أنه شعر بأن بلده ضاقت عن آماله ورغبته في العلم فارتحل عنها طلبا للاستزادة والتفقه في الدين والأخذ من مشاهير العلماء[1].

ولعل ما ذكره صاحب "إنباء العمر" من ذكائه وقدرته على الحفظ والاستظهار والاستحضار، كان دافعا للقلقشندي للسفر للإسكندرية، ليلتقي هناك العلماء، ويتتلمذ على يد الشيخ العلامة "سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي حسن الشهير بابن الملقن"[2] الذي كتب له إجازته في الفتيا[3]، وشرف الدين مسعود زاره في دمشق[4]، وقد أجازه للتدريس القاضي تاج الدين بن غنوم[5]، كما تذكر المصادر أن القلقشندي درس على يد "ابن شيخة"، حيث يذكر ابن حجر العسقلاني في المجمع المؤنس: "وسمع من ابن الشيخة وغيره من شيوخنا"[6]، ثم زار دمشق مرة أخرى سنة 813هـ/ 1410م[7].

غير أن المصادر لا تتحدث كثيراً عن رحلته في طلب العلم بين قلقشندة والاسكندرية ثم القاهرة، إلا ما ذكره هو في كتبه.

[1] – أحمد الذنيبات، المرجع السابق، ص64.

[2] – نفســـــه، ص65.

[3] – نفســـــه، ص60.

[4] – الظمياء محمد عباس السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي –دراسة تحليلية–، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2001، ص31.

[5] – أحمد الذنيبات، المرجع السابق، ص61.

[6] – نفســـــه، ص65.

[7] – الظمياء السامرائي، المرجع السابق، ص31.

الوظائف التي تقلدها القلقشندي:

أُسندت إليه عدة وظائف في ظل الإدارة المملوكية ومنها: التوقيع في "ديوان الإنشاء"[1]، والمباشرة في ديوان الأحباس[2]، وكان متوليه يختار من بين العلماء المشهورين في القدرة على الإفتاء والتقوى والصلاح[3]، كما خدم نائب الإسكندرية "الصلاح ابن العوام" مدة[4]، وناب في الحكم عن قاضي القضاة الشافعي الجلال البلقيني[5]، فقد أورد ابن حجر العسقلاني في كتاب "إنباء الغمر بأنباء العمر" ما يلي: "أحمد بن علي بن أحمد، القلقشندي نزيل القاهرة، تفقه وتمهر وتعانى الأدب، وكتب في الإنشاء وناب في الحكم"[6].

وتمثل سنة (791هـ/1388م) منعطفاً كبيرا في حياة القلقشندي العلمية، إذ عين فيها كاتباً للدرج الشريف[7]، من لدن المقر البدري محمد بن فضل الله العمري، أيام توليه رئاسة دواوين في الديار المصرية، وتدرج القلقشندي في العديد من الوظائف التابعة لديوان الإنشاء، فعمل موقعاً، للدست حيث قال ابن تغري بردي في كتابه المنهل الصافي: "أحمد بن عبد الله، القاضي شهاب الدين القلقشندي الشافعي، أحد موقعي الدست ونواب الحكم"[8]، وغيرها من وظائف هذا الديوان[9].

---

[1] – محمد عز الدين، ابو العباس القلقشندي مؤرخا، ص25

[2] – نفســــــــه، ص25

[3] – ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص 178؛ الظمياء السامرائي، المرجع نفسه، ص30.

[4] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص25

[5] – نفســــــــه، ص25

[6] – ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص 178.

[7] – أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، دار الكتاب العلمية، بيروت، ص8.

[8] – يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص352.

[9] – الظمياء السامرائي، المرجع السابق، ص30.

5- مساهمات القلقشندي العلمية:

أ- أهم مؤلفات القلقشندي:

سنقتصر في هذا المقام على ذكر مؤلفات القلقشندي التاريخية أو التي تخدم علم التاريخ وعلى رأسها صبح الاعشى الذي يعتبر موسوعة كبيرة يحتوي على العديد من المعلومات التاريخية:

1- صبح الأعشى في صناعة الإنشا:

المراد بالإنشا الكتابة الديوانية، وهو ديوان كان يتولى متقلده مهام جسيمة ترجع إلى تنظيم المراسلات العامة، سواء منها الصادرات أو الواردات، والعمل على تنظيم البريد، والاهتمام بشؤون الجواسيس والعيون، ولا ريب أن اهتمام بمثل هذه الأمور يتطلب من الكاتب أن يكون قوي الملاحظة حاد الذكاء، ذا خبرة ومرونة سياسية[1].

يحتوي كتاب صبح الأعشى على أربعة عشر مجلداً تشتمل على ما يقرب سبعة آلاف صفحة، وهو كتاب رائع من الكتب التي لا يستغني عنها الأديب، أو المؤرخ، أو المهتم بالنظريات السياسية، لأنه حوى على كل فن طرفاً، مع سلاسة في الأسلوب، وروعة في التعبير. وانسجام بين الموضوعات، وقد سماه صاحبه بهذه التسمية لأنه نور يهتدى به، فالأعشى في اللغة العربية هو ذلك المصاب بمرض يفقد على اثره الرؤية إذا انعدمت أشعة الشمس، ولاريب أن المصاب بهذا المرض لا ينتظر الفرجة إلا بطلوع نور الصباح، فإذا كان هذا الكتاب بمثابة الصبح للاعشى، فمعنى ذلك أن الكتاب لن يوفقوا في مهمتهم ما لم يدرسوه، ولن يبدعوا في صناعتهم إذا لم يجعلوه رائداً ومناراً[2].

---

[1] - محمد بن عبد العزيز الدباغ، نظرات حول كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، مجلة دعوة الحق، العدد الخامس، السنة السادسة، 1963، ص 46.

[2] - أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ، ص15.

وقد سار القلقشندي في تأليفه للكتاب على منهاج خاص، ووضع له تصميما حدد به الموضوعات التي يهتم بدراستها[1]، وبناه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة[2].

أما المقدمة فخصصها لمبادئ يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشا.

وأما المقالات العشرة ففصلها كما يأتي:

1- المقالة الأولى: فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية.

2- المقالة الثانية: في المسالك والممالك.

3- المقالة الثالثة: في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرهما من ذكر الأسماء والكنى، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات ونحوها على كتاب الانشا، ومقادير قطع الورق وما يناسب كل قدر منها من الأقلام، ومقادير البياض وبيان المستندات التي تصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء وكتابة الملخصات وبيان الفواتح الخواتم.

فهي مقالة تعلم الكاتب ما يحتاج إليه من النظم المتعلقة بالمكاتبات الادارية والمصطلحات الخاصة التي لا يستغني عنها في رسائله.

4- المقالة الرابعة: في المكاتبات.

5- المقالة الخامسة: في الولايات.

6- في الوصايا الدينية والمسامحات والاطلاقات والطرخانيات[3]، وتحويل السنين والتذاكر وذكر نسخ من ذلك.

7- المقالة السابعة: في الإقطاعات والمقاطعات.

---

[1] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج1،ص ص 21-24؛ محمد الدباغ، المرجع السابق، ص ص 46- 48.

[2] - محمد الدباغ، المرجع السابق ، ص 47.

[3] - الطرخانات: مكاتبات خاصة توجه إلى أشخاص عجزوا عن مسايرة وظيفتهم لكبر سنهم فيخبرون بواسطتها أن عطايا الملك لا تزول عنهم رغم عجزهم. محمد بن عبد العزيز الدباغ، مجلة دعوة الحق، العدد الخامس، السنة السادسة، ص 47.

8- المقالة الثامنة: في الإيمان.

9- المقالة التاسعة: في عقود الصلح والفسوح الواردة على ذلك.

10- المقالة العاشرة: في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولاغيرها.

الخاتمة: فذكر فيها أمورا تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، كالكلام عن البريد ومطارات الحمام الرسائلي، وأبراجه، والمناور، والمحرقات.

وأثر القلقشندي واضح فيما أورده من الوثائق التي توضح كيف كان يُقَلَّد كبار الموظفين وظائفهم، وما دونه من الكتب والرسائل تبادلها الأمراء مصر والخلفاء، والسلاطين، وقد استمد مادته من مصادر عاش مؤلفاتها في العصر الذي كتبوا فيه مما يرفع من شأنها في تحقيق النظم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية. وليس من اليسير الاهتداء بتلك الوثائق لعدم اهتمام القلقشندي بوضع عناوين تسهل مهمة الباحث في الكشف عن هذه الوثائق وما تشتمل عليه من الموضوعات. وتقع معظم هذه الرسائل في جزئين السابع و الثامن من صبح الاعشى، وتكمن أهمية معلوماته في اعتماده على مصادر آلت إلى الضياع[1].

2- كتاب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب[2]:

ألفه القلقشندي للمقري الجمالي العثماني الأموي، وقدمه هدية إليه شأنه شأن كتاب عصره[3]، ويذكر ذلك في كتابه مبينا سبب تأليفه للكتاب: "وهؤلاء هم عشيرة المقري

[1] - على ابراهيم حسن، استخدام المصادر وطرق البحث، في التاريخ الإسلامي العام والتاريخ المصري الوسيط، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة، 1980،ص 169.

[2] - أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروتن 1980، ص14، 15.

[3] - السيد عبد الستار بن درويش الحسنى البغدادي، نظرات في كتاب نهاية الارب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي، ط1، دار الفتح، 2011، ص20.

الجمالي الموضوع له هذا الكتاب ومن جرثومة نسبه ومن غرائب الاتفاق الذي أوجبه سعده واثبته حظه إن اقتضت اتفاقية حروف المعجم جعل حيه أول الأحياء الواردة في هذا الكتاب ذكرا ولو تقصد ذلك متقصد لم يتأت له لكنه أعز الله تعالى نصره قد أكمل الدهر سعده، وأسعد الوقت جده، واعقمت الأيام عن مثله فلم تأت بنظيره له مثله ولا بعده:

عزيز بـــه مصر تكامل عزهـــــا وعن رأيه أمر الممالك يصدر

وتلقى له كل الملوك مسامعـــــا وتصغي له فيما يســـر ويجهر[1]

وقسم كتابه كما يلي[2]:

-مقدمة

-الباب الأول مقدمة في ذكر أمور يحتاج إليها في علم الأنساب ومعرفة القبائل

-الفصل الأول في فضل علم الأنساب وفائدته

-الفصل الثالث في طبقات الأنساب

-الفصل الرابع في ذكر مساكن العرب القديمة

-الفصل الخامس في بيان أمور يحتاجها الناظر في علم الأنساب إليها

-الباب الثاني المقصد في معرفة تفاصيل أنساب قبائل العرب

-في ذكر عمود نسب النبي صلى الله عليه وسلم

-في ذكر تفاصيل قبائل العرب مرتبة مقفاة على حروف المعجم:

بنو الحارث، بنو الكلاع، آل أبي الحرم، البلابيش، العطويون، بنو بدا، بنو جابر، بنو حدان، بنو دهمان، بنو ساعدة، بنو شيبة، بنو عبد القيس، بنو عفير، بنو فضالة،بنو مغيلة.

-الباب الثالث خاتمة في ذكر أمور تتعلق بأحوال العرب .

[1] - القلقشندي، نهاية الأرب، ج1، ص30.

[2] - نفســـــــه، ص4،5.

-الفصل الأول في معرفة ديانات العرب قبل الاسلام وعلومهم .

-الفصل الثالث في ذكر حروب وأيام العرب في الجاهلية .

-الفصل الرابع في الجاهلية وهي ثلاث عشرة نارا .

-الفصل الخامس في ذكر أسواق العرب المعروفة قبل الإسلام.

3- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان[1]:

هو كتاب متمم ومكمل لكتابه الأول في الأنساب، يشرح ذلك في مقدمة كتابه قائلا: " وبعد، فلما كان العلم بقبائل العرب من لازم كتابة الإنشاء الذي أهمل جانبه، وسكن لقلة معانيه بعد الحركة ضاربه، ورفض تداوله حتى قل معانيه وعز طالبه؛ وكان كتابي المسمى "نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب"، قد احتوى من ذكر القبائل على الجم الغفير، وطمع في الاستكثار فلم يكتف من ذكر الشعوب باليسير؛ إلا أن من القبائل المذكورة فيه ما أخنى عليها الزمان، وجهل حالها الآن في الوجود والعدم فلم تعرف لها أرض ولم يوقف لها على مكان؛ مع أن القدر الذي يحتاج كاتب الإنشاء منه إلى الأخذ بتفصيله، ويضطر إلى معرفة تفريعه وتأصيله؛ من يضمه نطاق الديار المصرية من عربان الزمان".[2]

أهدى القلقشندي كتابه لصاحب ديوان الإنشاء قائلاً: "وكان المقر الأشرف العالي المولوي القاضوي الكبيري النظامي المدبري السفيري اليميني المشيري الأصيلي العريقي الكفيلي الناصري: نظام الملك نجي السلطنة، لسان المملكة، مالك زمام الأدب، جامع أشتات الفضائل أبو المعالي محمد الجهني البارزي الشافعي المؤيدي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية...كانت خزانته العالية عمرها الله تعالى بدوام أيامه، وأراه من محاسن جمعها في اليقظة ما يمتنع أن يراه القاضي الفاضل في منامه؛ قد سعدت بإسعاد جدوده، وخصت من

[1] - أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1982. ص 4،5.

[2] - نفســـــــه، ص2.

نفائس التأليف بكل نفيس لا سيما مصنفات آبائه وجدوده؛ مع اشتماله من شريف النسب على الصفقة الرابحة، وتمسكه من الانتساب إلى العرب العاربة من بني قحطان... أحببت أن أخدم جانب علاها بمختصر من ذكر قبائل العرب المنتظم في سلك الزمان الآن وجودهم، والمحيطة بعنق الآفاق في هذا العصر عقودهم".[1]

وقسم القلقشندي كتابه كما يلي[2]:

1- المقدمة في ذكر أمور يُحتاج إليها في علم الأنساب، ومعرفة القبائل وفيها خمسة فصول:

الفصل الأول: في فضل علم الأنساب ومسيس الحاجة إليه.

الفصل الثاني: في بيان من يقع عليه اسم العرب، وذكر أنواعهم وما ينخرط في سلك ذلك.

الفصل الثالث: في معرفة طبقات الأنساب، وما يلتحق بذلك.

الفصل الرابع: في ذكر مساكن العرب القديمة التي منها درجوا إلى سائر الأقطار.

الفصل الخامس: في ذكر أمور يحتاج إليها الناظر في علم الأنساب.

2- المقصد في معرفة تفاصيل أنساب القبائل وفيه فصلان:

الفصل الأول: في ذكر عمود النسب النبوي، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وما يتفرع عنه من الأنساب.

الفصل الثاني: في ذكر تفاصيل القبائل، وما يتيسر ذكره من مساكنهم الآن.

الخاتمة في ذكر نبذة من أوصاف المقر الأشرف الناصري المؤلف له هذا الكتاب، ومناقبه، ونُبذة من سيرته الغراء.

---

[1] - القلقشندي، قلائد الجمان، ص2، 3.

[2] - نفســـــه1، ص4،5.

بالإضافة على الكتاب الذي نحن بصدد دراسته "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" فهناك مجموعة من الكتب في شتى المجالات لكننا إقتصرنا على أهم كتب القلقشندي التي لها علاقة بالتاريخ من قريب أو بعيد، ومن هذه المؤلفات الأخرى[1]:

- حلية الفضل وزينة الكرم، في المفاخرة بين السيف والقلم.
- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر (وهو ملخص لكتاب صبح الأعشى).
- الكواكي الدرية في المناقب البدرية.

ب- العلوم المساعدة لعلم التاريخ في مؤلفات القلقشندي:

1- علم الأنساب:

أدرك القلقشندي كل الادراك أهمية علم الأنساب عند العرب وتعلقهم منذ القدم واهتمامهم به درسا واستقصاءً، فقد كان بمثابة السياج للقبيلة التي كانت مظهراً مصغراً للأمة ، فكان إشتغال القلقشندي بعلم الأنساب بالرغم من "جلالة قدره وعلو مكانته، ورفعة ذكره"[2].

وقد استدل القلقشندي بشرف هذا العلم وجلالة قدره، وهو اشتغال أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) بالأنساب، واستدل القلقشندي بأبي القاسم بن خيرة الاشبيلي في كتابه "ريحان وريعان الشباب في مراتب الآداب" أن أبا بكر الصديق كان نسابة وأورد في ذلك حادثة حيث خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فوقف على قوم من

[1] - محمد كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص29.

[2] - القلقشندي نهاية الأرب، ص6؛ جواد مطر الموسوي، علم الأنساب عند القلقشندي، مجلة المورد، العدد الأول، السنة 2007. وزارة الإعلام، بغداد، العراق، ص83.

ربيعة ودارت بينه وبينهم محاورة دَلَّت على علو كعبه في علم الأنساب[1]، وتدل هذه المحاورة التي جمعته بـ"دغفل بن حنظلة"[2] التي أوردها القلقشندي أهمية الأنساب و اهتمام العرب بذلك.

وقد ذكر القلقشندي نسابة وهو "زيد بن الكيس النمري" من بني عوف بن سعد بن ثعلبة بن وائل، وكذا النحاس بن أوس بن الحارث بن سعد بن هذيم العدواني من قضاعة، الذي قال عنه أبو عبيدة: "أنه من أنسب العرب". وصنف القلقشندي في علم الانساب جماعة العلماء، ومن أهم: أبو عبيد (ت:224هـ/م)، والبهيقي (ت: 408هـ/م)، وابن عبد البر (ت:464هـ/م) [3].

ويستعين القلقشندي بـ "الماوردي" في كتابه "الأحكام السلطانية" (ت: 405هـ/م) و"الزمخشري" في كتابه "الكشاف" (ت: 538هـ/م)، فيقسم طبقات الأنساب إلى ست[4]:

1- الشعب: وهو النسب الأبعد مثل: عدنان، ويجمع على شعوب، ويسمى شعباً، لأن القبائل تتشعب منه.

2- القبيلة: وهي ما انقسم فيها الشعب، مثل: ربيعة ومضر، وتجمع قبال وسميت قبيلة لتقابل الانساب فيها.

3- العمارة: وهي ما انقسم فيها القبيلة، مثل قريش أو كنانة، وتجمع على عمارات وعمائر.

[1] – القلقشندي نهاية الأرب، ص6؛ جواد مطر الموسوي، علم الأنساب عند القلقشندي، ص83.

[2] – القلقشندي نهاية الأرب، ص6، جواد مطر الموسوي، علم الأنساب عند القلقشندي، ص 84.

[3] – القلقشندي نهاية الأرب، ص6؛ جواد مطر الموسوي، المرجع السابق، ص83.

[4] – القلقشندي نهاية الأرب، ص13؛ جواد مطر الموسوي، المرجع السابق، ص ص84-85.

4- البطن: وهي ما انقسم فيها أنساب العمارة مثل: بني عبد مناف، وبني مخزوم، وتجمع على بطون وأبطنة.

5- الفخذ: وهو ما انقسم فيه أنساب البطن مثل: بني هاشم، وبنو أمية، ويجمع على أفخاذ.

6- الفصيلة: وهي ما اِنقسم فيها أقسام الفخذ مثل: بني العباس، والمطلب.

وقد أشار القلقشندي إلى أهمية علم الأنساب حيث قال أن المعرفة به من الأمور المطلوبة، والمعارف المندوبة لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية فقد وردت الشريعة المطهرة باعتبارها في مواضع منها[1]:

- العلم بنسب النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه النبي القرشي الهاشمي الذي كان بمكة وهاجر منها إلى المدينة، فإنه لا بد لصحة الإيمان من معرفة ذلك، ولا يعتذر مسلم في جهل به وناهيك بذلك.

- التعارف بين الناس حتى لا يعتزى أحمد على غير آبائه، ولا ينتسب إلى سوى أجداده.

- اعتبار النسب في الإمامة التي هي زعامة العظمى لاعتبارها من قريش، ولولا المعرفة بعلم النسب لفاتت معرفة هذه القبائل وتعذر حكم الإمامة العظمى التي بها عموم إصلاح.

- مراعاة النسب الشريف في المرأة المنكوحة.

- التفريق بين جريان أحكام الرق على العجم دون العرب.

وعن علاقة علم الأنساب بالأحكام الشرعية والمعارف الدينية فإن أحكام الميراث، والنكاح، والوقف، والعاقلة في الدية، والنسب في الإمامة التي هي الزعامة

[1] - جواد مطر الموسوي، المرجع السابق، ص83.

العظمى، وكفاءة الزوج للزوجة في النكاح، ومراعاة النسب الشريف في المرأة المنكوحة، والتفريق بين جريان أحكام الرق على العجم[1].

وعلى الباحث في علم الأنساب أن يكون على اطلاع بجغرافية بلاد العرب وحدود شبه الجزيرة العربية ، ومنازل وأماكن وجود القبائل العربية وتحركاتها وهجراتها، كذلك يجب أن قابلية التفريق بين العرب والأعراب، والعرب والعجم، وأن يكون على معرفة بطبقات العرب[2].

وإدراكا من القلقشندي إلى أهمية الأنساب تناولها في ثلاث كتب وهي: "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، و"نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، و"قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان" في كل واحد كان يضيف ويحذف وينظم ويستدرك ما فاته، وهذا يدل على ما في علم الأنساب من جلالة القدر، وعلو المكانة، ورفعة الذاكرة[3].

2- علم الجغرافيا:

وقد اعتمد القلقشندي في جمع مادته الجغرافية وعرضها إلى موسوعة "ابن فضل الله العمري" (ت:739هـ/1349م) المسمى "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" كما اعتمد وبدرجة أقل على كتب المؤرخين المسلمين الاوائل مثل ابن خرداذبة، وابن حوقل، والمسعودي، والهمذاني، والمهلبي، والسمعاني، والبكري، والإدريسي، والغرناطي، وابن سعيد وياقوت الحموي، وأبي الفدا[4].

[1] - جواد مطر الموسوي، المرجع السابق، ص86.

[2] - القلقشندي نهاية الأرب، ص ص 15-19. جواد مطر الموسوي، المرجع السابق، ص86.

[3] - جواد مطر الموسوي، المرجع السابق، ص86.

[4] - صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، وزارة الثقافة بغداد، 1981، ص17؛ أحمد عزت عبد الكريم، أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، ص208.

وقد وزع القلقشندي مادته الجغرافية المتناثرة عبر كتبه على عدة مواضيع يمكن تصنيفها إلى ما يلي[1]:

- شكل الأرض وجهاتها الأربع وأقاليمها السبع، ثم يعرج على البحار.

- جغرافية المماليك والأمصار، وجاءت على النحو التالي:

أ- جغرافية بلاد مصر ممزوجة بتاريخها من الفتح على عصر المماليك.

ب- وصف بلاد الشام من حيث محاسنها وعجائبها، بحيراتها وأنهارها، جبالها وزرعها، بالاضافة إلى عرض تاريخي لملوك الشام من الجاهلية حتى عصر المماليك.

جـ- الحجاز بجباله وعيونه، ومحاصيله ومواشيه، ثم يفصل الكلام عن مكة والمدينة والطائف، في سرد تتداخل فيه الروايات التاريخية مع المادة الجغرافية.

د- وقد احتلت إمبراطورية المغول وما جاورها ثم الأجزاء الأخرى من شبه جزيرة العرب وبلاد السند والهند، حيزا مهما من دراسة القلقشندي.

هـ- كما لم يهمل القلقشندي وصف بلاد الروم وآسيا الصغرى وبلاد الألمان ومملكة البندقية وجنوى، وروما، وفرنسا، وجاليسيا، ولمبارديان والبلغار والصقالبة، بالرغم من اتسام المعلومات الخاصة بهذه المناطق بالإيجاز.

وقد اهتم القلقشندي في دراساته الجغرافية بدراسة عدة أصناف من مواضيع الجغرافيا وهي:

1- الجغرافيا الطبيعية: اهتم القلقشندي بالجغرافية الطبيعية لكنه يهتم بالجانب الوصفي دون التحليلي وقد قسم معلوماته المتناثرة كما يلي[2]:

---

[1] - محمد محمود الصياد، نظرة جغرافي في صبح الاعشى، أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، المكتبة العربية القاهرة، 1973. ص203 ؛ صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، ص17.

[2] - محمد محمود الصياد، نظرة جغرافي في صبح الاعشى، ص ص211.

أ- الأرض: إن المعلومات التي أوردها القلقشندي عن شكل الأرض وأقاليمها والبحار المحيطة بها وإلى ذلك مما يتعلق بوصف الأرض، إنما هي عرض لمعلومات الجغرافيين العرب وآرائهم، لذلك فهو كثيرا ما يكرر عبارة "و قيل"، "قال في تقويم البلدان" و"قال المسعودي" و"قال الشريف الإدريسي"، و"قال في الروض المعطار"ن وهكذا.[1]

ويذكر القلقشندي أن الأرض مقسمة بخطين، الأول هو خط الليل والنهار، والخط الثاني يقسمها شمالا وجنوبا، ثم يسرد بعض ما قيل عن الأقاليم السبعة من الأرض.

ب- المناخ: الرياح: قال القلقشندي أن كلمة ريح عند العرب وتجمع على الرياح، وأن لفظ الريح في القرآن لم يأت إلا في الشر، والرياح لم يأت إلا في الخير، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[2]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[3]. أما سبب حدوث الرياح فيذكر القلقشندي أنه دخان يرتفع من الأرض فيضربه البرد في ارتفاعه فَيَتَنَكَّسْ ويتحامل على الهواء، فيحركه الهواء بشدة فيحصل الريح، ويبدو من خلال تفسير القلقشندي لهذه الظاهرة تأثره ببعض النظريات التي ظهرت في القرون الوسطى والتي حاولت تفسير الكون والظواهر الطبيعية، ولعله يريد بأن ارتفاع درجة الحرارة يؤدي إلى تمدد الهواء وصعوده إلى أعلى.[4]

ويقسم الرياح على أربع[5]:

---

[1] - انظر: صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، ص ص 11-40؛ محمد محمود الصياد، نظرة جغرافي في صبح الاعشى، ص ص201- 214.

[2] - سورة القمر الآية 19.

[3] - سورة الأعراب الآية 57.

[4] - صباح محمود محمد، المرجع السابق، ص20.

[5] - نفســـه، ص22.

– الصبا: وتأتي من الشرق من مطلع الثريا على بنات نعش، وتسمى أيضا القبول لاستقبالها مطلع الشمس.

– الدَّبور: ومهبها من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبي، وتسمى أيضا الريح الغربية لهبوط من جهة المغرب.

– الشمال: ومهبها من ناحية القطب الشمالي إلى مغرب الشمس.

– الجنوب: ومهبها من حد القطب الاسفل إلى مطلع الشمس.

ويذكر القلقشندي "النكباء" وهي ريح تهب بين مهبي ريحين، وتميل في طبعها إلى النوع الذي هي أقرب إليه في مهبه.

الرعد: يقول القلقشندي إن الرعد صوت هائل يسمع من السحاب، ويكتفي بذلك، ثم ويروي بعض المعتقدات العامة حوله، ثم بعض ما يُنسب للفلاسفة من آراء وأقوال. [1]

البرق: ويعرفه القلقشندي البرق بأنه ضوء بين جوانب السحاب، ويسرد كذلك بعض معتقدات العامة. وكذا آراء بعض الحكماء من أنه ناتج عن احتكاك الهواء بالدخان.[2]

الثلج والبرد: يذكر القلقشندي أن الثلج ينزل كالقطن المندوب على أعالي الجبال وتُذهب حرارة الشمس بعضاً منه، أما في المناطق الباردة فيبقى الثلج على قمم الجبال طول السنة، اما سبب تكوينه فينقل القلقشندي، ما ذكره بعض الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض إلى طبقات الجو العليا فيتكاثر على هذه الصورة نتيجة انخفاض درجات الحرارة.[3]

[1] – صباح محمود محمد، المرجع السابق، ص24.

[2] – نفســـــــه، ص25.

[3] – نفســـــــه، ص27.

أما البرد فإنه لا يقع إلا في الخريف والربيع، وأما سبب تكوُّنه فيقول القلقشندي إنه بخار يتصاعد من الأرض ويرتفع في الهواء فلا تدركه البرودة حتى يجتمع قطرات مائيةن ثم تدركه حرارة من الجوانب فتنهزم برودتها على مواطنها فتنعقد بَرَداً (أي يتجمد).[1]

جـ- الظاهرات الضوئية (قوس قزح والهالة): يقول القلقشندي أن هذه الظواهر التي تشاهد حول الشمس أو القمر في السحب التي تتكون من بلورات الثلج، ناتجة عن انكسار الضوء في تلك البلورات ذات الأشكال المنشورية السداسية التي تطفو في الهواء[2]، وهو بذلك يقترب من التفسير العلمي لظاهرة قوس قزح.

د- طبائع الفصول الأربعة: إختلف العرب في تقسيم السنة على فصول، فقد قسمها البعض على أربع فصول يسمى أولها الربيع الأول الذي تسميه العامة بالخريف، أما الصيف فعامة الناس تسميه الربيع الثاني، ثم القيظ الذي يسميه الناس الصيف.

وهناك من يقسم السنة على فصلين الشتاء والصيف، ويقسم منهما إلى ثلاثة أزمنة، ويسمى كل زمن باسم الغيث الواقع فيه، فأزمنة الشتاء هي: الوسمي ثم الشتاء ثم الربيع، أما الصيف فأزمنته: الصيّف(بتشديد الياء) ثم الحميم ثم الخريف.

أما طبائع الفصول فيذكر القلقشندي أن فصل الربيع بتمييز بحرارته ورطوبته لهبوب ريح الجنوب، مما يؤدي إلى ذوبان الثلوج في ايامه. والعرب تسمى المطر الذي ينزل في الخريف ربيعاً، ويقال للأرض التي يصيبها الربيع ربيعية، أما الصيف فيتميز بحرارته وجفافه، وتهب فيه رياح الصبا، اما الخريف فيتميز ببرودته وجفاف هوائه وتهب فيه رياح الشمالية، والخريف عند العرب المطر الذي يأتي في آخر القي، أما الشتاء فهو بارد رطب، تهب فيه ريح الدبور، ويقال للمطر الذي ينزل فيه بـ" الشتى"[3].

[1] - صباح محمود محمد، المرجع السابق، ص28.

[2] - نفســــــه، ص 28.

[3] - نفســــــه، ص 30.

هـ- الوصف المناخي عند القلقشندي[1]:

- لم يكن القلقشندي قادرا على أن يأتي بأراء خاصة به في مجال الجغرافية الطبيعية وخاصة المناخ إنما كان ينقل براء الفلاسفة والحكماء في كل حالة.

- لقد جاء الوصف المناخي عابراً وضائعاً بين الصفحات الجغرافية والتاريخية الأخرى.

- يذكر القلقشندي في كثير من الحالات الصفة المناخية لموقع جغرافي، ويهمل الكثير من المواقع الأخرى، بدون تبيان الحالة المناخية لها.

- أورد العديد من المصطلحات المناخية الغامضة، وهذا ما لم يعط فكرة واضحة عن الحالة المناخية للأقليم.

- من خلال العرض الجغرافي لمنطقة الحجاز يبين القلقشندي رأيه في تأثير البيئة الجغرافية على السكان وهو الرأي نفسه الذي أورده العلامة ابن خلدون في مقدمته.

- اتبع القلقشندي طريقة مقارنة بين الأقاليم والمواقع الجغرافية وهذا أسلوب علمي مفيد جداً في الدراسات الجغرافية.

- تعلق واهتمام القلقشندي بدراسة الأسماء الجغرافية وتعليلها، وهو ما يعرف حديثاً بعلم أسماء الأماكن[2].

2- الجغرافيا الإقتصادية:

إهتم القلقشندي كثيراً بالأمور الاقتصادية، فهو عندما يتحدث عن الديار المصرية مثلاً يعني بالحديث عن نهر النيل وزيادته ونقصه، وما تنتهي إليه الزيادة ويبلغه النقص، وكيفية قياس مناسيبه، والجسور الحابسة لمياهه، عن الأرض على حين استعماله في الزراعة ، وأصناف الأراضي وما يختص منها بكل صنف، ومزارعها وأصناف مزروعاتها وأحوال زرعها

[1] - صباح محمود محمد، المرجع السابق، ص ص 30-40.

[2] - نفســــــه، ص209.

وأسعار الغلات، والعملة المستعملة، وما يتعامل به وزنا من الدنانير المسكوكة، والموازين والمكاييل والمقاييس المستخدمة في عمليات البيع والشراء. والميزانية العامة للدولة ومصادرها المختلفة من مال الخراج، وما يتحصل من استخراج المعادن والزكاة والمكوس المفروضة على التجار الواصلين عن طريق البحر على الديار المصرية، أو القادمين براً عن طريق الشام، على غير ذلك من النواحي التي يستطيع أن يخرج منها الجغرافي بصورة كاملة عن جغرافية مصر الاقتصادية، على عهد المماليك.[1]

ويذكر القلقشندي تصنيفاً للتربة المصرية منقولا عن ابن مماتي(ت:606هـ/ 1201م) يتضمن ثلاث عشر صنفا تختلف باختلاف الزراعة وعدمها، وبسبب ذلك تتفاوت الرغبة فيها وتختلف قيمتها باختلاف ما يزرع فيها، ولا يقوم التصنيف الذي يورده القلقشندي على الخصائص الطبيعية للتربة وإنما أساسه في المقام الأول مبلغ تمتعها بمياه النيل والغلة سبق زرعها فيها، ويتحدث عن أنواع من الأرض تطرق إليها الفساد بسبب الظروف الطبيعية المحيطة بها كأرض "الخرس" التي فسدت بما استحكم فيها من مواقع الزرع وهي التي تسمى علميا بـ"القَلَوِيَّة" ولا يزال وصف الخرس مستعملا للدلالة عليها في الريف المصري، و"المستبحر" وهي الأرض السيئة الصرف[2]، والتي يقول عنها القلفشندي: "إنها أرض واطئة إذا حصل الماء فيها لا يجد مصرفاً له عنها، فيمضي زمن المزارعة قبل زواله بالنضوب"[3]، ثم هناك "السباخ" وهي "أرض غلب عليها الملح حتى لم يعد ينتفع بزراعتها"، وهي في نظر القلقشندي أردا أنواع الأرض، وهي ليست كذلك الآن فقد أصبح الأراضي الملحة مع التقدم العلمي من أسهل أنواع الأراضي استصلاحاً.[4]

[1] – صباح محمود محمد، المرجع السابق، ص213.
[2] – نفســــــــه، ص214.
[3] – القلقشندي، صبح الاعشى، ج3، ص 448.
[4] – محمد محمود الصياد، المرجع السابق، ص214.

وهكذا نجد المعلومات الاقتصادية متناثرة في مؤلفات القلقشندي الذي تبين مدى موسوعيته وتنوع معلوماته.

3- الجغرافيا الإدارية:

في حديث القلقشندي عن مصر والشام والحجاز وغيرها من البلدان يتناول الأقسام الإدارية في كل منها، وما في كل قسم من كور ونواح وأعمال مستقرة، ويتحدث عن أطوالها وعروضها، وعما اشتهرت به من منتجات، وعمن انجبت من رجال، وقد يتطرق به الحديث على ذكر تاريخها وآثارها ومكانها في التاريخ العام، للدولةن ولا يفوته، في واحدة منها أن يضبط اسمها ليتجنب القارئ أي خطأ، في نطق الاسم، وله في هذا الحديث إشارات لُطافٌ ومقارنات تدل على الدقة واليقظة، فهو مثلا في حديثه عن "منوفة" يقول: "وربما غلط بعض الناس فظن انها منف وبينهما بعد كثير"[1]، ويعلق على كلام العمري، عن المحلة الكبرى بقوله: "ووقع في التعريف التعبير عنها بمحلة المرحوم وهو وهم، وإنما هي قرية من قراها، أما أسيوط فإثبات الألف فيها هو الجاري على ألسنة العامة بالديار المصرية والثابت في الدواوين حذفها"[2].

ومادام الرجل يتحدث عن التقسيم الإداري فهو يرى أنه من الضروري أن يقف القارئ على ترتيب الديار وكيفية إدارتها، وأرباب الوظائف كنواب السلطنة والكشاف والولاة وغيرهم، والسلطات المخولة لكل منهم[3]، وينجح القلقشندي في رسم صورة حية للجغرافية التاريخية للبلاد التي تحدث عنها في العصر الذي عاش فيه، ويصبح بذلك مصدراً من المصادر التي لا يمكن أن يستغنى عنها في دراسة الجغرافيا المدن والأقاليم والإدارة لتلك الفترة.

[1] - القلقشندي، الصبح الأعشى، ج3، ص 406.

[2] - نفســــــــه، ص 396.

[3] - محمد محمود الصياد، المرجع السابق، ص212.

4- علم أسماء الأماكن:

اهتم القلقشندي بذكر أسماء الأماكن وتعليلها، حيث يروي جميع ما يعرفه من تفسيرات للأسماء، وقد ينفرد هو بتفسير خاص به، فمثلا يتحدث عن مصر ويقول: "أما تسميتها مصر فقيل أن نقراووس ابن مصريم أول من سماها باسم أبيه مصريم تبركاً"[1]. ثم يدلي القلقشندي بدلوه قائلاً: "ويجوز أن تكون سميت مصر لكونها حداً فاصلاً بين المشرق والمغرب إذ المصر في أصل لغة العرب اسم للحد بين الأرضين"[2].

أما "الشام" فقد اختلف في سبب تسميته شاماً حسب القلقشندي فقد سمي نسبة لسام بن نوح لانه نزل به واسمه بالسريالية شام بشين معجمة والعرب تنقلها إلى السين المهملة، وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض فسمي شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الإنسان شامة، وقيل سميت شاماً لأنها من شمال الكعبة والشام لغة في الشمال.

ويسير القلقشندي على نفس المنوال في ذكر الأماكن والأمصار ما أختلف فيه من نظريات حول أصل الاسم ويرجح أحدها، وفي كتاباته أمثلة كثيرة لا يتسع الامر لذكرها جميعاً. [3]

وهكذا يمضي القلقشندي باحثاً دقيقاً عن علل الأسماء وأسبابها في عبارة واحدة ومنطق سليم، فيسهم في تكوين فرع جديد من فروع الجغرافيا الحديثة. [4]

وبهذا يمكن القول أن القلقشندي ساهم مساهمة كبيرة في وضع نواة لكثير من العلوم التي أصبحت فيما بعد اختصاصات قائمة بذاتها.

---

[1] - القلقشندي، صبح الاعشى، ج3، ص 351.

[2] - نفســـــه، ص 351.

[3] - محمد محمود الصياد، المرجع السابق، ص214.

[4] - نفســـــه، ص214.

الفصل الثاني

كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة (الشكل والمحتوى):

1- تاريخ تأليف الكتاب:

2- الشكل:

أ – تنظيم الكتاب وتقسيمه.

ب –كيفية جمع وعرض المادة (كيفية النقل من المصادر)

جـ –اللغة والأسلوب.

3- المحتوى:

أ – مصادر الكتاب (المؤلفات).

ب – المادة التاريخية المتعلقة بالخلافة في مآثر الإنافة:

1- مفهومها، حكمها، وكيفية انعقادها.

2- رسوم وتقاليد الخلافة في مآثر الإنافة:

- ألقاب الخلافة.
- الوظائف المساعدة لمنصب الخليفة.
- ترتيب الخلافة.
- شعار الخلافة.

1- تاريخ تأليف الكتاب:

يدور موضوع الكتاب حول الخلافة الاسلامية وهذا ما يبدو جليا من خلال عنوانه ومحتواه، وقد ألَّفه القلقشندي بعد كتابي "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" و"نهاية الأرب في أنساب العرب"[1]، فقد أشار إليهما في كتاب "مآثر الإنافة" وبخاصة "صبح الأعشى" كقوله: "وَكتب المكتفى كتابا بِالْفَتْح إِلَى سَائِر الأقطار قد ذكرته برمتِهِ على طوله فِي كتابي صبح الْأَعْشَى فِي كِتَابة الإنشا"[2]، الذي أكثر من الكلام عنه عند ذكر العهود والمكتبات[3]، ويُلاحظ التكامـــل الموجـــود بين الكتابين فكثيرا ما كان الثاني يصحح الأول ويتممـه، وذكر أيضا كتاب"نهاية الأرب في أنساب العرب" في كتاب مآثر الإنافة بقوله[4]: " فنشأ إسماعيل بينهم وتعلم لغتهم وتزوج منهم وهم بنو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وقد أوضحت الكلام على ذلك مبسوطا في كتابي نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب".[5]

ويبدو أن كتاب "مآثر الإنافة" هو آخر ما ألَّف القلقشندي، ولم يُذكر هذا الكتاب في كتاب "الضوء اللامع: ولا كتاب "شذرات الذهب" وخفي اسمه على المحدثين[6]،

---

[1] – شوقي أبو خليل، من كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي، ط2، دار الفكر، دمشق، 1997. ص12.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص272.

[3] – نفســـــــه، ص"ج"(مقدمة المحقق)

[4] – سنخصص مبحثا خاصا في الفصل الثالث للمقارنة بين مادة مآثر الإنافة ومادة كتابي "صبح الأعشى" و"نهاية الأرب".

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص272.

[6] – نفســـــــه، ص"ج"(مقدمة المحقق)

ويقول القلقشندي في كتابه "مآثر الإنافة": "إلى حين تأليف هذا الكتاب في مبادئ سنة تسع عشرة وثمانمائة"[1].

وقد ألفه للديوان "العزيزي العالي المولوي السيدي النبوي الإمامي الأعظمي المعتضدي" وقد أشار فيه على أهمية الخلافة، وأنها رفعت من قدر الديار المصرية، بعد أن حلت فيها بقوله: "أحمده على أن رفع قدر الديار المصرية، بنقل الخلافة إليها وقدمها على سائر الممالك، فأمست ومدارها في المهمات عليها[2].

وقد أشار إلى سبب تأليفه لهذا الكتاب، فذكر أنه أراد خدمة الخزانة العالية فقال: "أحببت أن أخدم خزائنه العالية بتأليف في معالم الخلافة يشتمل على دقائق حقائقها ويتكفل بذكر لوازمها المستظرفة ولواحقها محليا له من جواهر المناقب المعتضدية بما يعلو به قدره وتغلو به قيمته ويرتفع به ذكره ليسير هذا التأليف بانتسابه اليه في الآفاق سير المثل ويخلد بذكر مناقبه الشريفة ذكره على مر الدهور وتعاقب الدول وسميته مآثر الانافة في معالم الخلافة إذْ لم أكن من قبيل هذا الشأن ولا من فرسان هذا الميدان بل أمير المؤمنين أمتع الله الوجود بوجوده بذلك أدرى وبمعرفته أجدر وأحرى"[3].

صرح القلقشندي بعنوان الكتاب في التمهيد، مثل ما أوردنا في الاستشهاد السابق[4]. بعد ذكره لسبب وضعه له، وكما جرت العادة عنده في كل مؤلفاته أن يفصح عن العنوان في البداية، وقد قام بنفس الشيء في صبح الأعشى ونهاية الأرب.

نفاسة الكتاب تأتي من الموضوع الذي يدور عليه، ذلك لأن الخلافة في الاسلام أعظم مؤسسة دينية، حدَّدت نظام الحكم، ووضعت أُسسه وطرقه، ولم يُؤلف كتاب واحدٌ

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ص21، ص211.

[2] – أحمد عبد الرحمن الذنيبات، المرجع السابق، ص58.

[3] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص 4.

[4] – نفســـــه، ص 4.

يشتمل على ما يتعلق بالخلافة، وإنما هي شذرات نجدها متفرقة في التواريخ وكتب الحديث والفقه والإدارة، فجاء القلقشندي فجمع أخبارها منذ نشأتها إلى أيامه، مفصلة مُبَوَّبة، حتى غدا هذا الكتاب أول مرجع يرجع إليه الباحث في هذا الموضوع.[1]

فقد أفرد القلقشندي للمواضيع المتعلقة بالخلافة أبواباً وفصولاً خاصةً، مثل:[2]

- معنى الخلافة، ومن تكون عنه الخلافة.
- شروط الخلافة، وبيان الطُرق التي تنعقد بها الخلافة.
- فيما يلزم الخليفة الرعية، وفيما يلزم الرعية للخلافة.
- فيما ينعزل الخليفة به من الخلافة، أو ولي العهد من ولاية عهده.
- ذكر الوظائف التي تصدر عن الخليفة.
- مقرات الخلفاء، وما انطوت عليه الخلافة من المماليك، وترتيب الخلافة وشعارها، وكيفية تقليد الخليفة الملوك السلطنة.
- من ادعى الخلافة في بعض الأقاليم.
- أوائل منسوبة إلى الخلفاء، وغرائب ومُلح وأعاجيب تتعلق بهم.

رغم أن القلقشندي لم يشر في كتابه إلى سبب اختياره لهذا العنوان إلا أن كلمة الإنافة تعني لغة المشية الحسنة والسيرة العطرة[3]، والمقصود بمآثر الإنافة هي تتبع السيرة الحسنة لنظام الخلافة منذ بدايتها حتى زمن القلقشندي.

[1] - شوقي أبو خليل، من كتاب مآثر الإنافة ، ص12.

[2] - نفســــــــــه، ص18.

[3] - نفســــــــــه، ص11.

2- الشكل:

أ- تنظيم الكتاب وتقسيمه:

تجري المعلومات في كتاب مآثر الإنافة مرتبة في دقة ونظام بديع، وتتوالى الحوادث والتواريخ بأسلوب سهل ممتنع، بحيث ينطلق وراءها القارئ في غير ملل ولاسُؤْم، ثم تجئ بعد ذلك أنواع العهود والعقود والمخاطبات، هذا إلى جانب ما ساقه المؤلف من طرائف وتنبيهات[1].

ويبدو من خلال النظرة الأولية لتوزيع أفكار كتاب مآثر الإنافة النضج المنهجي الذي وصل إليه القلقشندي من خلال براعته في عرض مادته العلمية وتصنيفها وترتيبها، فقد قسم الكتاب الى مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة وسبق كل ذلك بتمهيد قصير.

أ- التمهيد:

وذكر فيها القلقشندي أسباب تأليف الكتاب وهو إبرازه فضل منصب الخلافة وأهميته في إعلاء كلمة الإسلام، بعدما أثنى على الخليفة المعتضد وكيف أعلى الله بوجوده مكانة مصر.

واستعرض تطور الخلافة حتى وصولها الى الديار المصري ابتدأها[2] بـ: "الحمد لله الذي الحمد لله الذي جعل الخلافة الداوودية بإمامها الأعظم ثابتة القواعد ومد رواقها المعتضدى[3] على كافة الأمة فأروى بصوب عهاده المعاهد وصير بيتها المعمور كعبة للقصاد ومحرابها الامامي وجهة للمقاصد وجمع لها نعوت الفضل في قرن فناصرها المنصور وطالعها

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص" أ"(مقدمة المحقق)

[2] - شوقي أبو خليل، من كتاب مآثر الإنافة، ص21.

[3] - يقصد الخليفة العباسي المؤلف له هذا الكتاب وهو المعتضد بالله داود بن المتوكل على الله.

الرشيد ومسترشدها المهتدى الى أرشد المراشد أحمده على أن رفع قدر الديار المصرية بنقل الخلافة المقدسة اليها وقدمها على سائر الممالك فأمست ومدارها في المهمات عليها وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتجاوز فضلها الحد ويتوارثها الخلف عن السلف"[1]، ثم أبرز أهمية الخلافة: "وبعد فلما كانت الخلافة هي حظيرة الاسلام ومحيط دائرته ومربع رعاياه ومرتع سائمته بها يحفظ الدين ويحمى وتصان بيضة الاسلام وتسكن الدهما وتقام الحدود فتمنع المحارم عن الانتهاك وتحفظ الفروج فتصان الأنساب عن الاختلاط والاشتباك وتحصن الثغور فلا تطرق ويذاد عن الحرم فلا تقرع جنة جماها ولا ترشق..."[2]، ثم يقدم لكتابه ويذكر أهميته وهدفه من تأليفه قائلا:" أحببت أن أخدم خزائنته العالية بتأليف في معالم الخلافة يشتمل على دقائق حقائقها ويتكفل بذكر لوازمها المستظرفة ولواحقها محليا له من جواهر المناقب المعتضدية بما يعلو به قدره وتغلو به قيمته ويرتفع به ذكره ليسير هذا التأليف بانتسابه اليه في الآفاق سير المثل ويخلد بذكر مناقبه الشريفة ذكره على مر الدهور وتعاقب الدول وسميته "مآثر الانافة في معالم الخلافة"[3] إذ لم أكن من قبيل هذا الشأن ولا من فرسان هذا الميدان بل أمير المؤمنين أمتع الله الوجود بوجوده بذلك أدرى وبمعرفته أجدر وأحرى فكنت في ذلك كناقل التمر الى في المكاتبات الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد بالخلافة والكتب الصادرة عن الملوك والوزراء ونحوهم اليهم"[4].

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص 1.

[2] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص 1، شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص21.

[3] – جرت العادة عند القلقشندي في كل مألفاته أن يفصح عن العنوان في مقدمته.

[4] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج1، ص4.

1- المقدمة:

وتحدث فيه عن معنى الخلافة، ومن يطلق عليه اسم الخليفة، ومن تكون عنه الخلافة، وكيفية النسبة إلى الخليفة، وما يقع عليه من الكنية والألقاب[1].

وقدَّم القلقشندي لهذا الجزء قائلا:"في معنى الخلافة، ومن ينطلق عليه اسم الخلافة، ومن تكون عنه الخلافة، وكيفية النسبة إلى الخليفة، وما يقع عليه من الكنية والألقاب"[2].

وقد قسم المؤلف هذا الجزء لفصلين[3]:

- استهل الفصل الأول بمعرفة معنى الخلافة لغة واصطلاحاً، وهي:"خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة"، ثم أطلق في العرف العام على الزعامة العظمى، وهي الولاية العامة على كافة الأمة، والقيام بأمورها، والنهوض بأعبائها[4]. ثم ينتقل لاستعراض آراء العلماء واللغويين في الخلافة.

وذكر من تكون عنه الخلافة فلعلماء فيه ثلاث مذاهب:

المذهب الأول أن الخلافة تكون عن الله فيقال في الخليفة: خليفة الله[5].

وهو ما حكاه الماوردي في "الأحكام السلطانية"[6] وامتنع عن ذلك جمهور العلماء، لقولهم انما يستخلف من يغيب أو يموت، والله تعالى باق موجود على الأبد لا يغيب ولا يموت[7].

---

[1] - شوقي أبو خليل، من كتاب مآثر الإنافة، ص23.

[2] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج1، ص 5.

[3] - محمد عز الدين، المرجع السابق، ص96.

[4] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص8.

[5] - نفســــــــه، ص 9.

[6] - أبو الحسن علي الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة، ص39.

[7] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص 15.

المذهب الثاني: أن الخلافة تكون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقال خليفة رسول الله صلى عليه وسلم، لأنه خلفه في أمته وعليه ينطبق الماوردي في "الأحكام السلطانية"[1] والنحاس في "صناعة الكتاب"[2].

المذهب الثالث: أن الخلافة تكون عن الخليفة قبل ذلك الخليفة، فيقال: فلان خليفة فلان، واحد بعد واحد، حتى ينتهي إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيقال فيه: خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ذلك خوطب أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3] في أول أمره بخليفة خليفة رسول الله[4].

أما كيفية النسب إلى الخليفة: فقد قال القلقشندي: "فإنه يقال خلفي بفتح الخاء واللام كما ينسب إلى حنيفة حنيفي وقول العامة درهم خليفتي[5] ونحوه خطأ إذ قاعدة النسب أن يحذف من المنسوب إليه الياء وتاء التأنيث على ما هو مقرر في كتب النحو"[6].

أما الفصل الثاني من المقدمة فقد خصصه لما يقع على الخليفة من الكنية والألقاب:

– الكنية[7]: أما ما يقع على الخليفة من الكنية، فلم تزل الكنى جارية على الخلفاء من بدء الخلفة وهلم جرا. جريا في ذلك على عادة العرب في الاهتمام بشان الكنية[8].

---

[1] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص39.

[2] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص 16.

[3] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص282.

[4] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص 17.

[5] – ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص74.

[6] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1 ص 17.

[7] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص97.

[8] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1، ص 18.

واستعرض القلقشندي كنية الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم إلى أن قال: "واستمر الأمر فيهم على ذلك إلى زمننا"[1]. كما بين أهمية الكنية في المراسلات الرسمية،"وقد قال النووي في الأذكار: والأدب أن يخاطب أهل الفضل ومن قاربهم بالكنية، وكذلك إن كتب إلى أحد منهم رسالة أو روي عنه رواية. وقد كان الاول أكثر ما يعظم بعضهم بعضا في المخاطبات والمكاتبات ونحوها بالكنى"[2]، وطرق اختيار الكنية، وما كان من الشريعة في ذلك، وعلى العموم فإن الرجل يكنى باسم أكبر أولاده حيث يقول:"ومما يجب التنبيه عليه هنا أنه إذا كان للرجل ولد واحد كنى به بلا منازع، فإن كان له ولدان فأكثر كنى بأكبرهم، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكنى أبا القاسم، وكان القاسم أكبر بنيه"[3]، ويصوغ في هذا الشأن ما قال النووي: "فلو تكنى بغير أولاده فلا بأس، فلو لم يكن له ولدٌ أصلا بأن لم يولد له ولد فإنه يجوز تكنيته، حتى الصغير، قال: وقد كنى مجموعة من الصحابة رضوان الله عليهم قبل أن يولد لهم، كأبي هريرة، وخلائق لا يحصون من التابعين"[4].

أما ما يقع على الخليفة من ألقاب فأربعة ألقاب[5]:

– اللقب الأول عبد الله: وأول من تلقب بذلك من الخلفاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان يكتب في كتبه الصادرة عنه من عبد الله عمر أمير المؤمنين وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك ولزموه حتى أن المأمون كان اسمه عبد الله فكان يكرر في

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج 1، ص 18.

[2] – نفســــــه، ص 18.

[3] – نفســــه، ص 18.

[4] – نفســــه، ص 19.

[5] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص97.

كتبه وعهوده لفظ عبد الله مرتين الأولى منهما اللقب والثانية الاسم الخاص فكان يكتب في كتبه من عبد الله عبد الله بن هارون وفي العهود هذا ما عهد عبد الله عبد الله بن هارون[1].

– اللقب الثاني الإمام: وهو من الألقاب المستجدة للخليفة في أثناء الدولة العباسية بالعراق والأصل في ذلك أن الشيعة كانوا يعبرون عمن يقوم بأمرهم بالإمام من حيث إن الإمام في اللغة هو الذي يقتدي به وهو بأئمتهم مقتدون وعند أقوالهم وأفعالهم واقفون لاعتقادهم فيهم العصمة وكان إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس قد تلقب حين أخذت له البيعة بالخلافة بالإمام نسجا على هذا المنوال وبقي في خلفاء بني العباس إلى الأن[2].

– اللقب الثالث لقب الخلافة الخاص بها: كالمنصور والهادي والرشيد والمأمون والمعتصم بالله والمتوكل على الله ونحو ذلك على ما سيأتي ذكره في تراجمهم لحق الله ثم تبعه باقي خلفاء بنى أمية على التلقيب على ما سيأتي في تراجمهم إن شاء الله تعالى قال ابن حزم" وليس بصحيح"[3].

– اللقب الرابع لقب أمير المومنين: وأول من لقب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه[4] في اثناء خلافته وكانوا قبل ذلك يدعون أبا بكر رضي الله عنه في خلافته بخليفة رسول الله صلى اله عليه وسلم ثم دعوا عمر بعده في أول خلافته بخليفة خليفة رسول الله، واختلف في أصل تلقيبه بذلك فروى أبو جعفر النحاس في كتابه صناعة الكتاب بسنده إلى أبي بأمير المؤمنين واستمر ذلك فيهم إلى حين انقراضهم وملوك الحفصيين من بقايا الموحدين بإفريقية يخاطبون في بلادهم بأمير المؤمنين إلى الآن وترد كتبهم على ملوك الديار

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج1، ص 20.

[2] – نفســــــه، ص 21.

[3] – نفســــــه، ص 22.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص283.

المصرية متضمنة لذلك، أما ملوك الغرب الأقصى الآن من بني مرين فإنهم يخاطبون بأمير المسلمين جريا على ما استقر عليه أمر تلك البلاد من التلقيب بذلك من حين أحدث هذا اللقب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في دولة الملثمين من لمتونة من البربر[1]. وهذا مؤكده من مصادر أخرى[2].

3- الباب الأول:[3] في وجوب عقد الامامة لمن يقوم بها، وبيان شروط الإمامة التي لا تصح بدونها، والطرق التي تنعقد بها، وما يلتزم الخليفة للرعية، وما يلزم الرعية للخليفة، وما ينعزل به الخليفة ويخرج به عن الامامة[4].

وقد قسم القلقشندي هذا الباب إلى ستة فصول:

الفصل الأول: في وجوب عقد الامامة لمن يقوم بها، قال الماوردي[5]: وعقدها لمن يقوم واجب بالإجماع وإن شذ عنه الأصم يعني حيث لم يقل بوجوب ذلك مشيرا بذلك إلى أنه لو ندر المخالف مع كثرة المجمعين لم تنقطع حجية الإجماع كما هو الراجح في كتب أصول الفقه، وقد اختلف في أصل وجوبها فذهب قوم إلى أن وجوبها ثابت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم عند التنازع ولولا ذلك لكانوا فوضى مهملين[6].

وذهب آخرون إلى أنها إنما وجبت بالشرع ولا أثر للعقل في ذلك لأن الإمام يقوم بأمور شرعية كان يجوز في العقل لا يرد التعبد بها فلم يكن العقل موجبا لها واحتج لذلك بأنه

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ص 27.

[2] - ابن خلدون، العبر، ج1، ص283.

[3] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج1، ص 5.

[4] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص24.

[5] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص17.

[6] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج1، ص 29.

لابد للأمة من إمام يقيم الدين وينصر السنة وينصف المظلومين من الظالمين ويستوفي الحقوق ويضعها مواضعها قال الماوردي ولا خلاف بين أهل العلم أنها فرض كفاية كالجهاد ونحوه إذا قام بها من هو أهل لها سقط فرضها عن كافة الناس وإن لم يقم بها أحد أثم من الناس فريقان أحدهما أهل الحل والعقد حتى يختاروا للأمة إماما يقوم بأمرهم والثاني أهل الإمامة حتى ينتصب للإمامة أحدهم قال و لا إثم ولا حرج على من عدا هذين الفريقين من من سائر الأمة في تأخير إقامة الإمام قال النووي في روضته فإن لم يكن من يصلح إلا واحد تعينت عليه ولزمه طلبها إن لم يبتدوه[1].

الفصل الثاني: في شروط الامامة وقد اعتمد على قول الشافعية في ذلك حيث اشترطوا لصحة عقدها أربعة عشر شرطا في الإمام[2]:

1- الذكورة فلا يجوز إمامة المرأة.

2-البلوغ فلا تنعقد إمامة الصبي.[3]

3-العقل، فلا تنعقد إمامة ذاهب العقل بجنون أو غيره.

4-البصر، فلا تنعقد إمامة الأعمى.

5- السمع: فلا تنعقد إمامة الأصم.

6- النطق فلا تنعقد إمامة الأخرس.

7- سلامة الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

8- الحرية فلا تنعقد إمامة من فيه رق.

9- الإسلام فلا تنعقد إمامة الكافر.

---

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ص 30.

[2] - نفســــــــــه، ص ص 31-39.

[3] - رغم اعتماد القلقشندي على الماوردي إلا أن شرطي شرطي الذكورة والبلوغ لم يذكرهما صاحب الاحكام السلطانية. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ص 19-20.

10- العدالة فلا تنعقد إمامة الفاسق.

11- الشجاعة والنجدة فلا تنعقد إمامة الجبان.

12- العلم المؤدى إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

13- صحة الرأى والتدين فلا تنعقد إمامة ضعيف الرأى.

14- النسب فلا تنعقد الإمامة الهاشمي[1].

الفصل الثالث: في بيان الطرق التي تنعقد بها الخلافة، ولها ثلاث طرق لكل طريقة مجموعة من الأحكام:

الطريق الاولى: البيعة: وهي أن يجتمع أهل الحل والعقد، ويعقدون الامامة لمن يستجمع شرائطها: لسببين: أن يموت الخليفة الذي كان منتصبا عن غير عهد إلى أحد بعده، أو أن يخلع الخليفة نفسه من الخلافة أو يخلعه اهل الحل والعقد، لموجب اقتضى ذلك[2].

الطريق الثاني: من الطرق التي تنعقد بها الامامة العهد وهو أن يعهد الخليفة المستقر الى غيره ممن استجمع شرائط الخلافة بالخلافة بعده فاذا مات العاهد انتقلت الخلافة بعد موته الى المعهود اليه ولا يحتاج مع ذلك الى تجديد بيهة من اهل الحل والعقد[3].

الطريق الثالث: من الطرق التي تنعقد بها الإمامة القهر والاستيلاء فإذا مات الخليفة فتصدى للإمامة من جمع شرائطها من غير عهد إليه من الخليفة المتقدم ولا بيعة من أهل الحل والعقد انعقدت إمامته لينتظم شمل الأمة وتتفق كلمتهم وإن لم يكن جامعا لشرائط الخلافة بأن كان فاسقا أو جاهلا فوجهان لأصحابنا الشافعية أصحهما انعقاد إمامته أيضا

[1] - الماوردي وهو مصدر الكتاب في هذا الجزء اشترط النسب القرشي لكن القلقشندي لم يقل بالزاميته. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص20

[2] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج1، ص 40.

[3] - نفســــــه، ص 48.

لأنا لو قلنا لا تنعقد إمامته لم تنعقد أحكامه ويلزم من ذلك الإضرار بالناس من حيث إن من يلي بعده يحتاج أن يقيم الحدود ثانيا ويستوف الزكاة ثانيا ويأخذ الجزية ثانيا والثاني لا تنعقد إمامته لأنه لا تنعقد له الإمامة بالبيعة إلا باستكمال الشروط فكذا بالقهر[1].

الفصل الرابع: وتضمن ما يلزم الخليفة للرعية[2]:

أحدها: حفظ الدين

الثاني:حماية بيضة الاسلام والذب عن الحرم

الثالث:تحصين الثغور

الرابع:جهاد الكفرة المعاندين للاسلام

الخامس: تنفيذ الأحكام وقطع الخصومات، حتى لا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

السادس: إقامة الحدود لتتوقى المحارم وتصان الأنفس والأموال.

السابع: إختيار الأكفاء والأمناء وتقليد الولايات للثقات النصحاء.

الثامن: جباية أموال الفيء والصدقات والخراج على ما أوجب الشرع نصا واجتهاداً.

التاسع: تقدير العطاء وما يستحقه كل واحد من بيت المال.

العاشر: مشارفة الأمور العامة بنفسه، غير معتمد على ولاته وعماله.

الفصل الخامس: فيما يلزم الرعية للخليفة[3]:

الأول:الطاعة ما لم يخالف أمر الشرع.

---

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة، ص 58.

[2] – نفســـــه، ص ص 59- 62.

[3] – نفســـــه، ص ص62-64.

الثاني:المعاضدة والمناصرة في أمور الدين وجهاد العدو.

الفصل السادس: فيما ينعزل به الخليفة، وهو حالات منها الخلع، الانعزال[1].

الفصل السابع[2]: في الوظائف التي كانت تصدر عن الخليفة في الزمن المتقدم، وما يصدر عنه الآن من تفويض السلطنة إلى السلطان، ويرجع المقصود من ذلك إلى عشر وظائف:

1- الوزارة وهي وزارة تفويض و وزارة تنفيذ[3].

2- الإمارة وهي امارة استكفاء وإمارة استيلاء.

3- الامارة على القتال .

4- القضاء وهي القيام بالأحكام الشرعية وتنفيذها على أوامر الشرع وقطع النزاعات.

5- ولاية المظالم وهي قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة.

6- النقابة على ذوي الانساب.

7- النظر على إقامة الصلوات الخمسة والجمعة، والصلوات المندوبة كالتراويح.

8- الإمارة على الحج.

9- جباية الصدقات.

10- لنظر في الحسبة.

---

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ص ص65-73.

[2] - نفســــــــه، ص ص74-80.

[3] - ابن خلدون، العبر، ج1، ص297.

4- الباب الثاني: " في ذكر من ولى الخلافة من صدر الاسلام وهلم جرا الى زماننا وتفصيل حال كل خليفة منهم وولاة اقطار الاسلام شرقا وغربا في زمانه والحوادث والمجريات الواقعة في أيامه وبيان مقرات الخلافة وما انطوت عليه من الأقاليم وترتيب الخلافة على ما كانت عليه في الزمن القديم وذكر المشاهير ممن ادعى الخلافة في بعض الأقاليم وبطلان شبهة دعاويهم".[1]

ويحتوي هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول[2]: فيمن ولي الخلافة من صدر الإسلام إلى زمن القلقشندي: ويعتبر هذا الجزء أكبر جزء من مشر الإنافة.

وهم كما ذكروا في مآثر الإنافة [3]على التوالي:

1- الخلفاء الراشدون: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عثمان بن عفان رضي الله عنه، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الحسن بن علي رضي الله عنهما.

2- خلفاء بني أمية: وهم أربعة عشر خليفة: معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، يزيد بن معاوية بن ابي سفيان، معاوية بن يزيد، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك،سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد.

3- خلافة بني العباس بالعراق: أبو العباس السفاح، أبو جعفر المنصور، أبو عبد الله المهدي، أبو محمد الهادي، أبو عبد الله الأمين، أبو العباس المأمون، أبو اسحاق المعتصم

[1] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص24.

[2] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، ص101.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 81؛ ج2، ص259.

بالله، أبو جعفر الواثق بالله، أبو الفضل المتوكل على الله، أبو جعفر المنتصر بالله، أبو عبد الله المعتز بالله، أبو عبد الله المهتدي، أبو العباس المعتمد على الله، أبو العباس المعتضد بالله، أبو محمد المكتفي بالله، أبو الفضل المقتدر، أبو منصور القاهر بالله، أبو العباس الراضي بالله، أبو اسحاق المتقي لله، أبو القاسم المستكفي بالله، أبو القاسم المطيع لله، أبو بكر الطائع لله، أبو العباس القادر بالله، أبو جعفر القائم بأمر الله، أبو القاسم المقتدى بأمر الله، أبو العباس المستظهر بالله، أبو منصور المسترشد بالله، أبو جعفر الراشد بالله، ابو المظفر المستنجد بالله، أبو محمد المستضئ بالله، أبو العباس الناصر لدين الله، أبو نصر الظاهر بأمر الله، أبو جعفر المستنصر بالله، أبو أحمد المستعصم.

4- خلفاء بني العباس بالديار المصرية وهم أحد عشر خليفةً: أبو القاسم المستنصر بالله، أبو العباس الحاكم بأمر الله، أبو الربيع المستكفى بالله، أبو العباس الحاكم بأمر الله، أبو إسحاق الواثق بالله، أبو الفتح، المعتضد بالله، ابو عبد الله المتوكل على الله، أبو يحي المستنصر بالله، أبو حفص الواثق بالله، أبو الفضل المستعين بالله.

الفصل الثاني: في مقرات الخلفاء، وما نطوت عليه الخلافة من المماليك، وبيان ترتيب الخلافة وشعارها، وكيفية تقليد الخليفة الملوك والسلطنة.

1- المقرات[1]:

- المدينة المنورة كانت مقر الخلافة الراشدة إلى حين انتقر علي رضي الله عنه على العراق[2].

- الشام: وهي ديار خلافة بني أمية على حين زوال دولتهم، وذلك أن معاوية رضي الله عنه، كان أميراً على الشام قبل الخلافة، ثم استقل بالأمر حين سلم إلية

[1] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص73.

[2] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص 222.

الحسن، وبقي بالشام حتى انقراض خلافتهم، بقتل مروان بن محمد، على ما تقدم ذكره، وكانت دار اقامتهم دمشق[1].

- العراق[2]: وهو دار خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حين انتقاله إليه ثم ابنه الحسن إلى حين تسليمه لمعاوية، ثم كانت دار الخلافة بني العباس إلى حين تسليمه لمعاوية، ثم كانت دار خلافة بني العباس إلى حين انقراض الخلافة من العراق بقتل المستعصم. وكان بدءُ مبايعة السفاح اول خلفائهم بالكوفة، ثم بني بعد ذلك بالأنبار مدينة وسماها الهاشمية، ونزلها، فلما ولي أخوه أبو جعفر المنصور الخلافة بعده بني بغداد وسكنها، وصارت منزلا لخلفاء بني العباس بعده إلى حين قتل المستعصم[3].

- الديار المصرية: كان المستنصر بالله أول من بويع بالخلافة، ثم الحاكم بأمر الله، الذي أسكنه الاشرف بن المنصور قلوون الكبش، ثم صارت ديارهم على القرب من المشهد النفيسي[4].

2- ترتيب الخلافة[5] ومنها:

- الجلوس على سرير الخلافة.
- الصلاة في المقصورة في الجامع في الجمعة والعيدين.
- ضرب النقود ونقش اسم الخليفة.
- نقش اسم الخليفة على ما ينسج من الكسوة والطرز من الحرير والذهب بلون يخالف للون الاصلي.

---

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص 222.

[2] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص74.

[3] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص 223.

[4] - نفســــــــه، ص 223.

[5] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص75.

– الدعاء للخليفة على المنابر.

– انراد الخليفة على الكتابة على ولايات الوظائف كالوزارة، والقضاء وسائر الولايات.

3– شعار الخلافة[1] ومنها:

– الخاتم، اتخذ الخلفاء خواتم في كل خاتم نقش يخصه، لأن الملوك لا يقرؤون كتابا غير مختوم[2].

– البُردة: وهب بردة النبي صلى الله عليه وسلم والتي كان الخليفة يلبسها في المواكب[3].

– القضيب: وهو عمود كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذه بيده[4].

– ثياب الخلافة، اختصت كل خلافة بلون فالامويون بالخضرة والعباسيون السواد.

الفصل الثالث: وتضمن مشاهير من ادعى الخلافة في بعض الاقاليم: وقد قسمهم القلقشندي إلى أربع طوائف:

أ– بنو أمية في الأندلس: وذلك أن بنى العباس عند استيلائهم على الأمر، وانتقال الخلافة إليهم، تتبعوا بني أمية بالقتل، فهرب عبر الرحمن بن معاوية، وسار حتى دخل الأندلس، فعرف بالداخل ودعا إلى نفسه بالخلافة هناك، وقصده بنو أمية من المشرق والتجئوا

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص232.

[2] – شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص80.

[3] – نفســــــــــه، ص80.

[4] – نفســــــــــه، ص82.

إليه[1]. وقد كان آخر من بويع منهم بالخلافة المعتد بالله هشام بن محمد، وقد انقرضت دولتهم بوفاته سنة ثمان وعشرون وأربعمائة[2].

ب – العبيديون[3]: وهم أبناء عبيد الله المهدي، ويقال لهم العلويون نسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونسبة إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالمصريين نسبة إلى مصر[4]، وكان مبدأ أمرهم أن المكتفى بالله طلب عبيد الله المذكور وهو يومئد بسلمية لأمر بلغه عنه، ففر من الشام إلى العراق، ثم لحق بمصر، ثم إلى إفريقية من بلاد المغرب في زي التجار، ودخل سجلماسة ببلاد المغرب، فقبض عليه، وكان أبو عبد الله الشيعي قد أقام له الدعوة بتلك البلاد قبل دخولها، فسار من أفريقية في جماعة من البربر ودخل سجلماسة، وأخرج عبيد الله المهدي من الحبس وبايعه وارتحل به إلى إفريقية. وظل العبيديون بإفريقية حتى عهد المعز لدين الله، فبعث مولاه جوهرا إلى الديار المصرية فملكها وبنى القاهرة في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ثم انتقلت الدولة إلى مصر، وظلو بها حتى قطع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الخطبة لهم، وخطب للخلفاء العباسيين ببغداد[5].

جـ – الحفصيون: من بقايا الموحدين بإفريقية، وكان مبدأ أمرهم أن بلاد المغرب قد ظهر فيها القول بالظاهر حتى حملهم ذلك على القول بالتجسيم، وكان محمد بن تومرت من بعض بطون المصامدة من البربر، وقد شب في طلب العلم ورحل إلى المشرق قاصدا الحج، ودخل العراق ولقي أكابر علمائه وفحول النظار به، وأخذ مذهب أبي الحسن الأشعري في القول بالتأويل، المتشابه بعلماء الاشاعرة، ثم عاد إلى بلاد الغرب وطعن على أهله في الوقوف

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص246.

[2] – نفســــــه، ص248.

[3] – شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص90.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص248.

[5] – نفســــــــه، ص250.

مع الظاهر، وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بقول الأشاعرة في جميع العقائد، إلا أنه كان بقول الإمامية من الشيعة بعصمة الإمام[1]. وتلقب بعد ظهور دولته بالمهدي، ولقب خلفه عبد المؤمن بن علي بالخليفة إشارة على أنه خليفته، ولقب أبا حفص عمر بن علي بالشيخ، وسمي اتباعه بالموحدين، ثم غلب أبناء أبي حفص على افريقية، وقد تلقب أحدهم وهو أبو عبد الله محمد بالمستنصر بالله بلقب الخلافة وتبعه من بعده في التلقيب بألقاب الخلافة[2].

دليل بطلان دعوة الثلاثة السابقون للخلافة[3]:

القول العام عن جمهور العلماء رضي الله عنهم على أنه لا يصح نصب خليفتين، فمن خرج عنهم أو شق عصاهم فهو باغ لا تسوغ مبايعته ولا تحل متابعته[4].

5- الباب الثالث[5]: "في ذكر ما يكتب للخلفاء من البيعات والعهود في القديم والحديث"[6]. وفيه فصلان[7]:

الفصل الأول[8]: في البيعات وهي تكتب لمن يقوم بالخلافة بمبايعة أهل الحل والعقد دون عهد من الخليفة قبله[9]، واختلفت اساليب الكُتَّاب بعد ذلك دولة بعد دولة، وقد استقر أمرهم، في ذلك على أربعة مذاهب:

---

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص251.

[2] - نفســــــــه، ص254.

[3] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص94.

[4] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص255.

[5] - شوقي خليل، المرجع السابق، ص24.

[6] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص 260.

[7] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، ص107.

[8] - نفســــــــه، ص107.

[9] - ذكر ذلك ابن خلدون، العبر، ج1، ص261.

المذهب الأول: أن تفتتح البيعة بأن يقال: تبايع عبد الله أبا فلان فلانا أمير المومنين على كذا وكذا، مع بسط القول في ذلك بما يناسب المقام وتأكيده بالإيمان المعقدات والاليات المحرجات. وعلى هذا الاسلوب كانت طريقة الأولين في الخلافة الأموية وصدر الخلافة العباسية[1].

المذهب الثاني: أن تفتتح البيعة بلفظ من عبد الله أبي فلان أمير المومنين. سلام عليكم، فإن أمير المومنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على ابن عمه محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يقال: أما بعد، فالحمد لله، ويؤتى بخطبة مناسبة المقام، ثم يعزى في الخليفة الماضي إن كانت البيعة مرتبة على موت خليفة، ويذكر أعباء الأمة إلى حين ذهابه، ثم يقال انه لم يوجد من ينهض بأعباء الخلافة بعده إلا ولده فلان أو أخوه أو ابن عمه أو نحو ذلك، ويؤتى بتقريظة وذكر استحقاقه للخلافة دون غيره، ثم القائم بالبيعة له بحضرته أو في بعض أطراف بأخذ البيعة له على من قبله من الرعية، وعلى ذلك كانت تكتب بيعات الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية بجملتها[2].

المذهب الثالث: أن يفتتح البيعة بلفظ: هذا. ويغزى بالخليفة الذاهب إن كانت البيعة مرتبة على الموت، ثم يهنِّئ بالخليفة المستقر، أو يلوِّحُ بذكر الخلع المخلوع واستحقاق المستقر في الخلافة، بحيث لا يكون في التلويح إلى الخلع تنقيص لجانب المخلوع، ولا حطَّ لقدره، إلا أن يكون قد وقع لموجب شرعي، اقتضاه الحال، وربما افتتحت البيعة بآية من كتاب الله تعالى[3].

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج2، ص261.

[2] – نفســــــــه، ص266.

[3] – نفســــــــه، ص274.

المذهب الرابع: من البيعات التي تكتب للخلفاء أن تفتتح البيعة بالحمد لله، وهو الذي استقر عليه العمل في زماننا جريا على طريقة متأخري كُتَّاب الديار المصرية في كتاب عهود الخلفاء والملوك[1].

الفصل الثاني:[2] فيما يكتب للخلفاء من العهود، وهي ما يكتب لمن يقوم بخلافة بعهد من الخليفة قبله، بالشروط المعتبر في ذلك، على ما تقدم ذكره في الكلام على الطرق التي تنعقد بها الإمامة، وللكتاب في عهود الخلفاء للخلفاء مذهبان[3]:

أ- المذهب الأول: أن يفتتح العهد باللفظ: هذا ما عهد فلان لفلان أو: هذا عهد فلان لفلان. أو هذا كتاب كتبه فلان لفلان. وما أشبه ذلك، ثم يؤتى بوصف الخليفة والتنبيه على وجه استحقاقه الموجب لتقدمه على غيره، ثم يذكر تفويض الخلافة إليه بعد العاهد، ويؤتى من وصيته بما يناسب المقام، مقتصرا في ذلك على الإشارة والتلويح، غير مصرح فيه بلفظ الأمر، كما يقال في عهود الملوك: أمره بكذا. وأمره بكذا، على ما سيأتي في ذكر عهودهم للملوك، وتعظيما لشأن ولي العهد بالخلافة، وتشريفا لمقامه عن أن يكون مأمورا، وعلى هذه الطريقة كانت عهود الخلفاء من السلف رضوان الله عليهم.

ب المذهب الثاني: في العهود التي تكتب للخلفاء أن يفتتح العهد بالحمد لله. وعليه العمل في زمن القلقشندي، مع الاقتصار على تحميدة واحدة والاختصار في القول[4].

6- الباب الرابع:[1] "فيما كان يكتب عن الخلفاء من ولايات ملوك الأقاليم وأمرائها وولايات الوزراء والقضاة والولاية على الصلوات ونقابة ذوي الأنساب وغير ذلك من سائر الولايات الدينية والديوانية وما يكتب عنهم"[2]؛ وفيه فصلان[3]:

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص295.

[2] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، ص107.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 319- ج3، ص76.

[4] - نفســــــــه، ص337.

الفصل الأول[4]: فيما يكتب عن الخلفاء من العهود للملوك، وهو المستمر مما كان يكتب عنهم من الولايات إلى زمن القلقشندي، وللكتاب فيه أربعة مذاهب:

أ- المذهب الأول: أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ: هذا، مثل أن يقال: هذا عَهْدٌ عَهِدَ به فلان لفلان. وهذا ما عهد فلان لفلان، أو هذا ما أمر به فلانا، أو هذا كتاب اكتتبه فلان لفلان، وما أشبه ذلك، ثم يقال: أمره بكذا، وأمره بكذا، حتى يُأتى على ما يُؤثره من المأثورات المتعلقة بالعهد مما يناسب الحال إلى آخر القصد. ثم زاد الكُتَّاب أن يقال في آخر العهد: هذا عهد أمير المومنين إليك، وحجته عليك، أو نحو ذلك، ويؤتى بما يطابق المقصد[5].

ب- المذهب الثاني: في افتتاح عهود الملوك عن الخلفاء أن يفتتح العهد بقوله: من فلان على فلان، كما يبتدأ في المكتبات، ثم يأتي بعد ذلك بقوله: أما بعد ذلك بقوله: أما بعد، ثم تارة يأتي بعد البعدية بتحميد، مثل ان يقول: أما بعد فالحمد لله. ويخلص من ذلك إلى ذكر أمر الولاية وما ينخرط في سلكها، وتارة يأتى بعد البعدية بخطاب المولى والدعاء له، ويتخلص منه إلى العهد من الوصايا وغيرها[6].

ت- المذهب الثالث: أن يفتتح العهد بلفظ: إن أولى، أو إن أحق، وما أشبه ذلك، وهي طريقة غريبة خارجة عن أصول الكتابة، من حيث إن رتبة الملوك فيما يكتب

---

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، ص107.

[2] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص24.

[3] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، ص107.

[4] - نفســــــــه، ص107.

[5] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص1.

[6] - نفســــــــه، ص77.

لهم التعظيم، ومثل هذا الافتتاح إنما يكتب لأصحاب الرتب السافلة التي لا تقارب رتبة الملك ولا ما دونها[1].

ث- المذهب الرابع: في عهود الملوك أن يفتتح العهد بالحمد لله، وهو الذي استقر عليه عمل المتاخرين من كتاب الديار المصرية[2].

الفصل الثاني[3]: فيما يكتب عن الخلفاء لمن دون الملوك وهو على خمسة أساليب:

أ- الأسلوب الأول: ان يفتتح ما يكتب بلفظ: عهد من فلان على فلان، أو: هذا ما عهد عبد الله ابو فلان الإمام الفلاني أمير المومنيين إلى فلان بن فلان، ويصفه بما يليق به، ثم يقال: فقلده كذا وكذا، ويذكر الوظيفة المولاة، ثم يقال: أمره بكذا وأمره بكذا، غلى آخر الوصايا، ثم يقال: هذا عهد امير المؤمنين إليك، على نحو ما تقدم في عهود الخلفاء إلى الملوك، وعلى هذا جل ما كان يكتب، في الدولة العباسية بالعراق من وظائف أرباب السيوف والأقلام إلا أنه في آخر الدولة كان يقع الوصف والإطراء في حق الخليفة وحق المولى أكثر منه مما قبل ذلك، والأصل في هذا الأسلوب ما كتب به عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردة[4].

ب- الأسلوب الثاني: أن يفتتح ما يكتب بلفظ أما بعد. ثم الذي كان في الزمن القديم أن يكتب: أما بعد فإن كذا. ويؤتى على مقصد الولاية إلى آخره، ثم انتهى الحال

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص 86.

[2] - نفســــــــــه، ص99.

[3] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، ص107.

[4] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص138.

في الدولة العباسية بالعراق إلى أن يقال: أما بعد الحمد لله، ويؤتى بخطبة مناسبة للحال، ثم يؤتي على مقصد الولاية[1].

ت- الأسلوب الثالث:أن يفتتح ما يكتب بخطبة مبتدأة بالحمد لله، وهو أُسلوب نادر الوقوع، فيما كُتب بخطبة مبتدأ بالحمد لله، وهو أسلوب نادر الوقوع فيما كُتب به الخلفاء، لم يُعرف منه إلا ما تقدم ذكره من عهد الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بمملكة الديار المصرية[2].

ث- الأسلوب الرابع: أن يفتح ما يكتب بلفظ: أحق، أو أولى، أو نحو ذلك، وبذلك كان يكتب في تواقيع صغار الولايات[3].

ج- الأسلوب الخامس: أن يفتح ما يكتب بلفظ: هذا كتاب، ثم يقال: أما بعد فالحمد لله، ويؤتى بخطبة مناسبة للحال، وربما أتى فيها بثلاث تحميدات، ثم أتى على المقصود إلى آخره. وعلى هذا النحو كان يكتب لزعماء أهل الذمة من البطارقة ونحوهم[4].

7- الباب الخامس[5]: "فيما كان يكتب عن الخلفاء في الاقتطاعات وتحويل السنين والزام أهل الذمة الشرائط الازمة لهم"[6].

الفصل الأول[7]: فيما كان يكتب عنهم من الاقتطاعات، وقد كان عادتهم فيه ان يكتب: هذا كتاب من عبد الله فلان الإمام الفلاني. ويأتي على المقصد إلى آخره من انقطاع

---

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص180.

[2] - نفســــــــه، ص193.

[3] - نفســــــــه، ص198.

[4] - نفســــــــه، ص201.

[5] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص24.

[6] - نفســــــــه، ص24.

[7] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص107.

استغلال، وهو الذي يؤخذ فيه خراج الارض ورقبتها باقية لبيت المال، أو اقطاع تمليك، وهو أن يملك الارض ويقرر عليه قطيعة تؤخذ منها لبيت المال، ويسمى هذه: المقاطعة[1].

الفصل الثاني: فيما يكتب في تحويل السنين الخراجية عن الخلفاء، وهو أن يكتب بنقل السنة الشمسية إلى السنة الهلالية بالاسم دون الحقيقة، توفيقا بينهما، وإزالة للشبهة في أمرها، وذلك أن أيام السنة الشمسية في المدة التي تقطع الشمس الفلك فيها مرة واحدة حسب ما توجيه حركتها في ميلها في الجنوب والشمال ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم بالتقريب وايام السنة الهلالية في المدة التي يقطع القمر الفلك فيها اثنتي عشر دفعة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وسدس يوم، فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوم وسدس يوم، وتكون زيادة السنين الالسنين الهجرية على السنين الهلالية في كل سنين شهر واحد وثلاث أيام ونصف تقريبا[2]، وهذا كله يؤثر على الخراج، فيصير الخراج منسوبا الى السنة السابقة ودفعه منسوبا للسنة اللاحقة[3].

الفصل الثالث: فيما كان يكتب عن الخلفاء في إلزام أهل الذمة ما يلزمهم بشريطة عقد الذمة وأخذهم بذلك.

وأول ما كتب بذلك في خلافة المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون الرشيد[4].

8- الباب السادس: [5] في المكاتبات الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد بالخلافة والكتب الصادرة عن الملوك والوزراء ونحوهم اليهم[6]:

---

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص210.

[2] - نفســــــه، ص222.

[3] - نفســــــه، ج3، ص222.

[4] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص228.

[5] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص25.

[6] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص 7.

الفصل الأول[1]: في الكتب الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد: للكتب الصادرة عن الخلفاء أربعم مذاهب:

أ- المذهب الأول: ويفتتح الكتاب بلفظ: "أما بعد"، وربما أتى فيه بعد البعدية بالتحميد.ذ، إذا كان الكتاب مما يدل على نعمة ظاهرة من فتح أو غيره، وقد ينتهي التحميد إلى ثلثه، وقد يقتصر على تحميدة واحدة، وربما أهمل التحميد ووقع الافتتاح باما بعد فإن أمير المومنيين[2].

ب- المذهب الثاني: فيما يكتب عن الخلفاء من الكتب أن يفتتح الكتاب بلفظ: من فلان إلى فلان. والأصل في ذلك أن معظم كتب النبي صلى الله عليه وسلم الصادرة عنه كانت على هذا النمط[3].

جـ- المذهب الثالث: مما يكتب عن الخلفاء أن يفتح الكتاب بخطبة، ثم يؤتى ببعدية[4].

د- المذهب الرابع: مما يُكتب به عن الخلفاء أن يفتتح الكتاب بالسلام، بأن يُكتب: سلام الله تعالى ورحمته وبركاته يخص: المقر الكريم، أو: الجناب الكريم، أو غير ذلك من الألقاب التي يكتب بها عن السلطان، ويؤتى على تلك الألقاب على آخرها، ثم يقال: ويبدى لعلمه، أو يوضح لعلمه، على حسب ما تقتضيه تلك المكاتبة في السلطانيات[5].

---

[1]- محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، 107.

[2] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص236.

[3] - نفســــــــه، ص246.

[4] - نفســــــــه، ص265.

[5] - نفســــــــه، ص274.

الفصل الثاني[1]: في الكتب الصادرة عن الملوك وفيها ستة أساليب:

أ- الأسلوب الأول: وهو أقدمها اصطلاحا أن يفتتح الكتاب بلفظ: لفلان من فلان، ثم يصدر بالسلام والتحميد وسؤال الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يقال: أما بعد، فإن كذا، ويختم بالسلام ونحوه، على نحو تقدم في المكتبات عن الخلفاء، لا يختلف ذلك في شيء إلا في تقديم اسم المكتوب إليه على المكتوب عنه[2].

ب-الأسلوب الثاني: مما يكتب به إلى الخلفاء أن يفتتح الكتاب بخطبة مفتتحة بالحمد لله، وربما كرر الحمد إلى ثلاث، ويقع ذلك في الكتب التي تظهر فيها النعمة كالفتوح ونحوها[3].

جـ - الأسلوب الثالث: مما يكتب للخلفاء أن يفتتح الكتاب بالتصلية على الخليفة على مذهب من يجوز من الفقهاء الصلاة على غير الانبياء عليهم السلام إلا بطريق التبعية[4].

د - الأسلوب الرابع: مما يكتب به إلى الخلفاء أن يفتتح الكتاب بالسلام على الخليفة، قال ابن شيت في "معالم الكتابة" وعليه العمل في زماننا، وكان في أواخر الدولة الأيوبية[5].

هـ- الأسلوب الخامس: مما يكتب به إلى الخلفاء أن تُفتتح المكاتبة بالدعاء بشئ من المتعلقات الخلافة في الجملة[6].

---

[1] - محمد عز الدين، القلقشندي مؤرخاً، ص107.

[2] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص277.

[3] - نفســــــــــه، ص301.

[4] - نفســــــــــه، ص309.

[5] - نفســــــــــه، ص315.

[6] - نفســــــــــه، ص318.

و- الاسلوب السادس: أن يقتتح الكتاب بالدعاء لديوان الخلافة، وعليه الاصطلاح الآن، قال في"التعريف" وكان سببُ المخاطباتهم الديوان الخضعان عن مخاطبة الخليفة[1].

9- الباب السابع[2]: ذكر أوائل منسوبة الى الخلفاء وغرائب وملح وأعاجيب تتعلق بهم[3]، وفيه فصلان[4]:

الفصل الاول[5]: أوائل منسوبة إليهم. أول من بويع بالخلافة ابو بكر الصديق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد مر ذلك في الباب الأول في الكلام على الطرق التي تنعقد بها الخلافة[6].

الفصل الثاني[7]: في ذكر غرائب وملح وأعاجيب تتعلق بالخلفاء[8]:

- من ولي الخلافة في حياة أبيه.
- من ولي الخلافة وله أخ اسن منه.
- من ولي الخلافة من الإخوة.
- إتفاقيات عجيبة في خلع الخلفاء.

10- خاتمة[9]: فيما يختص بالخليفة المعتضد الموضوع له الكتاب وفيه فصلان:

---

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص322.

[2] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص25.

[3] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص 7.

[4] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص108.

[5] - نفســــــــــه، ص108.

[6] - القلقشندي، مآثر الانافة، ج3، ص334.

[7] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص108.

[8] - مادة هذا الفصل مأخوذة من كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم.

[9] - شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص25.

الفصل الأول: في نسبه[1].

الفصل الثاني: في ذكر طرف من مناقبه وأوصافه[2].

ومما يلاحظ جليا الدقة في تقسيم الكتاب فالأبواب مقسمة على فصول والفصول إلى مذاهب أو أساليب، وبذلك كان توزيع المادة بشكر يدل على النضج المنهجي والعلمي الذي تميز به القلقشندي.

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص109.

[2] – نفســــــــه، ص109.

ب – جمع وعرض المادة: (كيفية النقل من المصادر):

اتبع "القلقشندي" في كتابه مآثر الإنافة نفس المنهج في الاسناد إلى المصادر مما يدل على وحدة منهجه مهما اختلفت مصادره[1]:

الحالة الأولى: التصريح بعنوان الكتاب واسم المؤلف[2]: مثل قوله: "والثاني وبه جزم الماوردي في الأحكام السلطانية[3] أنه ينعزل به، كما لا يصح عقد إمامته مع الفسق ابتداءً حتى لو عادت عدالته لم يكن إلى الإمامة إلا بعقد جديد"[4]؛ ومثل قوله أيضاً: "ومن عجيب ما وقع في خلافته، ما حكاه الشيخ أبو علي ابن سينا في كتابه الشفاء، أنه في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وقع بجرجان صاعقة، فنشبت في الأرض، ثم نبت نبوة الكرة التي ترمي بها الحائط، ثم عادت فنشبت في الأرض، وسمع الناس لذلك صوتاً عظيماً هائلاً، فتفقدوا أمره، فظفروا به في صورة حديد ملتئم من أجزاء جاوشية مستديرة، قد التصق بعضها ببعض، يزن مائة وخمسين منا، فحمل إلى جرجان، فالتمس منه "محمود بن سبكتكين" صاحب خرسان انفاذه إليه إن أمكن أو قطعة منه، فتعذر نقله لثقله، فحاولوا كسر قطعة منه، فلم تعمل فيه الآلات، فأعملت الحيلة في فصل جزء منه، فأنفذ إليه، فرام أن يطبع منه سيفاً فتعذر"[5].

---

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص115.

[2] – نفســــــه، ص115.

[3] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص42.

[4] – القلقشندي، مآثر الانافة، ج1، ص 72.

[5] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص116.

وكما نرى في هذه الحالة يصرح القلقشندي بالماوردي وكتابه الأحكام السلطانية، وفي الثانية يصرح بابن سينا وكتابه الشفاء.

الحالة الثانية: الاسناد إلى مصدر مصرحاً بعنوان الكتاب دون اسم المؤلف:[1] مثل قوله: "وفي سنة سبع وسبعين ومائتين غار نيل مصر، ووقع الغلاء حتى بلغ الكر بها خمسمائة دينار، كما ذكر صاحب تاريخ النيل"[2]، وقوله: "قال صاحب رأس مال النديم، ثم القائم، ثم الراضي، ثم المقتضي، ثم المستكفين، ثم المطيع، ثم الطائع، فخلع"[3].

وقد ذكر في الحالتين السابقتين مؤلفين استشهد منهما وهما كتاب "رأس مال النديم في تواريخ أعيان أهل الإسلام" ابن بابة" و"تاريخ النيل" لكنه لم يذكر صاحبيهما.

الحالة الثالثة: الإسناد إلى المصدر مُصرحاً باسم المؤلِّف دون عنوان الكتاب: [4] في قوله: بويع بالخلافة -يقصد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه- البيعة العامة حين سلم إليه الحسن بالكوفة، في الخامسة والعشرين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وقال الدولابي في ذي الحجة ببيت المقدس سنة أربعين، وكان قد بويع قبل ذلك يوم إجتماع الحكمين بصفين"[5]. وقوله: "قال الصولي: حدثني الحسين بن يحي الكاتب، قال: لما ولي المعتز لم يمض إلا مدة حتى أحضر الناس وأخرج المؤيد فقيل: أشهدوا أنه دُعي فأجاب، وليس به أثر، ثم مضت أشهر، فأحضر الناس وأخرج المستعين، فقال: إن منيته أتت عليه وها هو لا أثر فيه، فاشهدوا أنه قد مات حتف أنفه ولا أثر به، ثم لم تكمل السنة حتى استخلف

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص116.

[2] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص 265.

[3] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص116.

[4] - نفســــــه، ص116.

[5] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص 110.

المعتمد فأخرج المهتدي ميتاً، وقيل اشهدوا أنه مات حتف أنفه من جراحته، فتعجب الناس من تلاحقهم في مدة يسيرة"[1].

وقد ذكر في الاستشهاد الأول الدولابي، أما في الثاني فيتحدث عن الصولي دون أن يذكر مؤلَّفيهما.

الحالة الرابعة: الاسناد إلى مبهم:[2] ومثل قوله: "ورأيت في بعض التواريخ أن الإمام الحاكم بأمر الله أبا العباس، أحمد ابن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان"[3].

وقوله:"ورأيت في بعض التواريخ أن أول خليفة دعى له على منبر أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه دعا له عبدالله بن عباس بالبصرة".[4]

وقوله كذلك: "رأيت في بعض التواريخ أن الإمام الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان حين عهد بالسلطنة إلى الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد مبايعته الحاكم المذكور عند موت أبيه في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة طلع الأمراء والقضاة إلى القلعة"[5]

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص117.

[2] – نفســـــه، ص117.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص231؛ محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص117.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص231.

[5] – نفســـــه، ص242.

وقوله كذلك: "رأيت في بعض التواريخ أن يزيد بن عبد الملك بن مروان كان قماشه يحمل على ستمائة جمل وأنه خلف عشرة آلاف قميص لنفسه وليقس على ذلك باقي أمواله هذا والخلافة بعد لم تبلغ حد العظمة".[1]

ونجده أنه في هذه الحالات السابقة لا يُصرح لا بالمؤّلف ولا المؤلَّف.

الحالة الخامسة: إغفال الاسناد تماماً: وهذه حالة عامة وموجودة بكثرة في كتاب مآثر الإنافة، فهو لا يصرح تماما وفي أحيان كثيرة بمصادره، وإن كان النقل نقلا متتابعاً[2]، ومن ذلك نقله عن كتاب "المذمة في استخدام أهل الذمة" لـ"ابن النقاش" في الفصل الثالث من الباب الخامس[3]، فيما كان يكتب عن الخلفاء في إلزام اهل الذمة ما يلزمهم بشريطة عقد الذمة، وأخذهم بذلك، دون عزو إلى مصدره[4].

جاء في الفصل الثالث من الباب الخامس: "وفيما كان يُكتب عن الخلفاء اِلزام أهل الذمة ما يلزمهم بشريطة عقد الذمة وأخذهم بذلك. وأول ما كتب بذلك في خلافة المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون الرشيد وذلك أنه حج فسمع رجلا يدعو عليه، فهم بقتله، فقال له الرجل: والله يا أمير المؤمنين ما قلت ما قات إلاَّ وقد أيقنت بالقتل، فاسمع مقالي ثم مُرْ بقتلي، فقال: قل، فشكا إليه استطالة كتاب أهل الذمة على المسلمين، في كلام طويل، فخرج أمرُ أمير المؤمنين المتوكل بأن يلبس النصارى واليهود ثياب العَسَليِّ، وأن لا يمكنوا من لُبْس البياض كي لا يتشبهوا بالمسلمين، وأن تكون ركبهم خشباً، وان تهدم بيعهم المستجدة

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص363.

[2] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص118.

[3] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج3، ص ص 228– 229.

[4] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص118.

وأن تطلق عليهم الجزية، ولا يُفسح لهم في دخول الحمامات خدمها من المسلمين، وأن تفرد لهم حمامات خدمها من اهل الذمة، وأن لا يستخدموا مسلماً في حوائجهم، وأفردهم بمن يحتسب عليهم، وأمر أن يُكتب بذلك كله كتاباً فكُتب"[1].

وقد جاء في المذمة قول ابن نقاش: "وكثر تظلم الناس من كتاب أهل الذمة، وتتابعت الإغاثات، وحج المتوكل تلك (السنة)، فراى رجلاً يطوف بالبيت ويدعو على المتوكل، فأخذه الحرس وجاءوا به سريعاً، فأمر بمعاقبته، فقال له: والله يا أمير المومنين، ما قالت ما قلته إلا وقد أيقنتُ بالقتل، فاسمع كلامي ومر بقتلي، فقال: قل؛ فقال: سأطلق لساني بما يُرضي الله ورسوله ويغضبك، إن أمير المؤمنين اكتنفت دولته كتاب من الذمة، فأحسنوا الاختيار لأنفسهم وأساءوا الاختيار للمسلمين، وابتاعوا دنياهم بآخرة أمير المؤمنين، خفتهم ولم تخف الله، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة، وأول ليلة يخلو المرء في قبره بعمله، فبكى المتوكل على أن غشي عليه، وطلب الرجل فلم يوجد، فخرج أمره بكبس النصارى واليهود بباب العلي، وأن لا يمكنوا من لبس البياض لئلا يتشبهوا بالمسلمين، ولتكن ركبهم خشباً، وأن تهدم بيعهم المستجدة، وأن تطبق عليهم الجزية، ولا يفسح لهم في دخول حمامات المسلمين، وأن يفرد لهم حمامات خدمها ذمة، ولا يستخدموا مسلماً في حوائجهم لنفوسهم، وافرد لهم من يحتسب عليهم"[2].

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج3، ص ص 228– 229.

[2] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص118.

يظهر من خلال النصين أن القلقشندي اعتمد بشكل جلي وواضح في هذا الفصل المتعلق بأهل الذمة على كتاب "المذمة في استخدام أهل الذمة" لـ"ابن النقاش" وقد تجنب التفصيل فيما قاله الرجل للخليفة، كما تجنب التصريح بمصدر المعلومة.

الحالة السادسة: الخطأ في الاسناد على المصادر: [1] والمثال على ذلك ما أورده في المآثر: "وقد حكى ابن الأثير في تاريخه أنه لما وصل ملك الروم إلى بغداد في سنة خمس وثلاثمائة، في خلافة المقتدر، رتب من العسكر في دار الخلافة مائة وستون ألفاً، ما بين راكب، ووقف بين يدي الخليفة سبعمائة حاجب وسبعة آلاف خادم خصي، أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود، ووقف الغلمان الحجرية —الذين هم بمثابة مماليك الطباق الآن– بأتم الزينة والمناطق المحلاة، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة وغرائب الزينة، وغشيت جدرانها بالستور، وفرشت أرضها بالبسط، وكان عدة البسط إثنين وعشرين ألف بساط، وعدة الستور المعلقة ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها إثنا عشر ألف ستر من الديباج المذهب، وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب، الفضة بأغصانها وأوراقها، وطيور الذهب والفضة على أغصانها، وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة، والطيور تصفر بحركات مرتبة، وألقيت المراكب، والدبابات، في دجلة بأحسن زينة، وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع، إلى غير ذلك من الأحوال الملوكية التي يطول شرحها"[2].

والحديث الذي أورده ابن الأثير في الكامل في التاريخ عن الحادثة يختلف عن ما نسبه إليه القلقشندي في المآثر[3]، إذ جاء في هذا الشأن ما يلي: "في سنة ثلاثمائة وخمس، في المحرم"، وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفدا، فأكرمهما إكراماً كثيراً،

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص119.

[2] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص ص 226– 227.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص119.

وأدخلا على الوزير وهو في أكمل أبهته، وقد صف الأجناد في بالسلاح والزينة التامة، وأديا الرسالة إليه، ثم إنهما، دخلا على المقتدر، وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة، وأديا الرسالة إليه، ثم إنهما دخلا على المقتدر، وقد جلس لهما، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة، وأديا الرسالة، فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفدا، وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه، وسير معه جمعاً من الجنود، وأطلق لهم أرزاقاً واسعة، وأنفذ معه مائة ألف وعشرون ألف دينار لفداء أساري المسلمين، وسار مؤنس والرسل، وكان الفدء على يد مؤنس"[1].

وهكذا تتباين رواية "القلقشندي" المسندة إلى "ابن الأثير" في هذا الموضع ورواية الكامل التي لم يرد فيها كل هذه التفصيلات، وإن كانت رواية القلقشندي تتفق على حد كبير ورواية كل من "ابن الجوزي" في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، وكذلك رواية "ابن كثير" في كتابه "البداية والنهاية"[2].

وبذلك قدم لنا القلقشندي مادة الكتاب بأشكال متنوعة، تباينت في طريقتها وشكلها.

[1] – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص 653؛ محمد كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص120.

[2] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص120.

جـ- اللغة والاسلوب:

جمع القلقشندي في كتابه مآثر الإنافة بين وضوح الفكرة ورصانة الأسلوب والدقة في اختيار المفردات اللغوية والمقدرة على عرض المادة على الرغم من تنوع المصادر والأساليب دون إخلال بالنص أو تصرف في المعنى، مبتعداً، عن استخدام السجع والزخرفة اللفظية التي كانت منتشرة بين كُتَّاب الدواوين.[1]

فعلى الرغم من عمله طويلاً، في الدواوين السلطانية وديوان الإنشاء فإنه امتلك أسلوباً بلاغياً واضحاً ولغة مباشرة وصريحة، وقلما تجد في كتابه أخطاءً لغوية أو استخداماً للألفاظ العامية، ولم يتأثر بما وصل إليه حال اللغة العربية في عصره من تشويه و تحريف وشيوع اللحن واستخدام العامية بفعل وجود العناصر الأجنبية.[2]

وقد وصف القلقشندي ذلك بقوله: "واعلم أن اللحن قد فشا بين الناس والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيباً، والنطق بالكلام الفصيح عيباً"[3]، والسبب في ذلك: "استيلاء الاعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه باللغة العربية، حتى صار الفصيح لديهم أعجم، والبليغ في مخاطبتهم أبكم".[4]

ويتحدث كذلك في كتابه صبح الأعشى عن الحال الذي وصلت إليه اللغة العربية قائلاً: " وقد كان الكتّاب فيما مضى أرغب الناس في علم النحو وأكثرهم تعظيما

[1] - ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص 55.

[2] - نفســـــــه، ص 56.

[3] - القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص210.

[4] - ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص 56.

للعلماء حتّى دخل فيهم من لا يستحقّ هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب، وبعدت عليهم معرفة الهمزة التي ينضمّ وينفتح ما قبلها، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها".[1]

وقد أوصى أن يحافظ على الإعراب في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وفي الشعر والكلام المسجوع وما يدون من الكلام ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على السنتهم[2].

والقلقشندي بهذا يفرق بين لغة الثقافة والتأليف واللغة العامية الدارجة ولاحظ نوعين من السلبيات نتيجة ذلك[3]:

1- تفشي اللحن بين الناس على نحو كبير، حتى لم يعد هناك أمل في إصلاحه.

2- انتشار اللحن بين بعض المثقفين مما يمكن معالجته وإصلاحه لأهمية أثرهم في الحفاظ على القرآن الكريم، وديمومة الثقافة، ولأن اللغة هي رأس مال الكاتب ورأس كلامه.

ومن مظاهر عنايته باللغة تأكيده على بيان معاني بعض المفردات اللغوية التي يظهر أنها بحاجة على توضيح بسبب اختلاف معاني المصطلحات، مما دعته الضرورة إلى ضبط ألفاظها بالحروف (الطريقة المعجمية) في الكثير من المواضيع التي تتطلب ذلك، منعاً للتصحيف والتحريف الذي حرص على اجتنابه وبين أسبابه في "صبح الأعشى " وظهر أثر ثقافته اللغوية والفقهية واضحاً، وهو يفسر معاني بعض المفردات اللغوية مشيراً على إمكانية

[1] - القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص209.

[2] - ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص 56.

[3] - نفســــــه، ص 56.

متابعة المزيد من المعلومات في كتب اللغة ومعاجمها، وكتب أصول الفقه المعتمدة، وميز بين الفصيح من لغة العرب والدخيل وأشار إلى ما تلحن به العامة، والألفاظ الشائعة في زمانه وضبطها بقوله: "كذا ضبطه"[1]، "والجاري على ألسنة الناس"[2]، وهو يظهر ثراء معلوماته اللغوية وهو يحلل ويشرح بعض المفردات والألقاب الشائعة، مثل قوله: "شمس الأفق من الألقاب أكابر أرباب الألقاب وهو بالعلماء أليق، لأن بهم يحصل النور كما يحصل بالشمس واصل الأفق الناحية، ومنه قيل للنواحي: آفاق، وإنما خص الشمس بالإضافة للأفق لأنها عند مطلعها تكون في النظر أعظم ".[3]

وبحكم ثقافة الأدبية فإنه يستخدم الكثير من الشواهد الشعرية لكثير من شعراء العربية ومن بينهم ما نقله الأفوه الأودي وقد استشهد به في وجوب اختيار الخليفة:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سـراة إذا جُهَّالهم سـادُوا[4]

وفي حديثه عن شروط التي يجب أن تتوفر في الخليفة تحدث عن الراي والشجاعة واستشهد بشعر أبي الطيب المتنبي:

الرأي قبـل شجاعـة الشجعـان هـو أول وهي المحـل الثـاني[5]

وفيما قيل عند القبض على الخليفة العباسي الطائع لله[6]:

[1] – القلقشندي صبح الاعشى، ج3، ص453؛ ج4، ص112، ص138، ص139، ص154.

[2] – نفســـــــه، ص112.

[3] – ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص 57.

[4] – القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص30.

[5] – نفســـــــه، ص37.

[6] – نفســـــــه، ص315.

أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بين العز والهـــــون

ومنظر كـان بالســـراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضــراء يبكيني

هيهات أغتر بالسلطـــان ثانيــة قد ضـل عندي ولاَّج السلاطين

فضلا عما وقف عليه من مكتبات الصدر الأول ورسائلهم، والخطب والوصايا لمشاهير العرب ومثال على ذلك ما أوصى به الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ولي أبا موسى الأشعري القضاء فكتب له كتاباً يعتبر نموذجاً للوصية السياسية:

"أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك وانفذ إذا تبين لك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عونك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه اليوم عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك، مما ليس في كتابٍ ولا سنةٍ، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك بنظائرها واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى.

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا حدا أو مجربا عليه شهادة زور ظنينا في ولاء أو نسب، فإن الله يتولى السرائر ويدرأ بالبينات والإيمان.

إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن عليه الذخر والجزاء فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام"[1].

وفي هذا المؤلف زيادة على ذلك، ما جادت به قريحته من نظم، ونثر وإنشاء، ويمكن في هذا المجال إدراج نص كتاب عن المعتصم بالله إلى ملوك الآفاق من المسلمين:

"أما بعد فالحمد لله الذي جعل العاقبة لدينه والعصمة لأوليائه والعز لمن نصره والفلج لمن أطاعه والحق لمن عرف حقه وجعل دائرة السوء على من عصاه وصدف عنه ورغب عن ربوبيته وابتغى إلها غيره لا إله إلا الله وحده لا شريك له يحمده أمير المؤمنين حمد من لا يعبد غيره ولا يتوكل إلا عليه ولا يفوض أمره إلا إليه ولا يرجو الخير إلا من عنده والمزيد إلا من سعة فضله ولا يستعين في أحواله كلها إلا به ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله وصفوته من عباده الذي ارتضاه لنبوته وابتعثه بوحيه واختصه بكرامته فأرسله بالحق شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا والحمد لله الذي توجه لأمير المؤمنين بصنعه فيسر له.

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، 3، ص ص 170- 172.

أمره وصدق له ظنه وأنجح له طلبته وأنفذ له حيلته وبلغ له بغيته وأدرك المسلمون بثأرهم على يده وقتل عدوهم وأسكن روعهم ورحم فاقتهم وآنس وحشتهم فأصبحوا آمنين مطمئنين مقيمين في ديارهم متمكنين من أوطانهم بعد القتل والحرق والتشريد وطول العناء وتتابع البلاء منا من الله عز وجل على أمير المؤمنين بما خصه به وصنعا له فيما وفقه لطلبه وكرامة زادها فيما أجرى على يده فالحمد لله كثيرا كما هو أهله ويرغب إلى الله في تمام نعمه ودوام صنعه وسعة ما عنده بمنه ولطفه ولا يعلم أمير المؤمنين مع كثرة أعداء المسلمين وتكنفهم إياه من أقطاره والضغائن التي في قلوبهم على أهله وما يترصدونه من العداوة وينطوون عليه من المكايدة إذ كان هو الظاهر عليهم والآخذ منهم عدوا كان أعظم بلية ولا أجل خطبا ولا أشد طلبا ولا أبلغ مكايدة ولا أرمى بمكروه من هؤلاء.

الكفرة الذين يغزوهم المسلمون فيستعلون عليهم ويضعون أيديهم حيث شاءوا منهم ولا يقبلون لهم صلحا ولا يميلون معهم إلى موادعة وإن كانت لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض ما لا يزال يكون من فترات ولاة الثغور أدنى دولة من دولات الظفر وخلسة من خلس الحرب كان مالهم من خوف العاقبة في ذلك منغصا لما تعجلوا من سروره وما يتوقعون من الدوائر بعد تكدرا لما وصل إليهم من فرحة.[1]

ويمكن القول أن النصين المذكورين نموذج مصغر لما نقله القلقشندي في مؤلَّفه من نصوص ذات مستوى وذوق أدبي رفيع عرفه التراث الأدبي العربي ووُفِّقَ كاتبنا في نقله وتوظيفه توظيفاً حسناً.

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 237-241.

3 – المحتوى:

أ – مصادر الكتاب (المؤلفات):

وقد تنوعت بين تاريخية وفقهية. ولغوية. وأدبية:

– الأحكام السلطانية للماوردي (ت 450هـ-1058م)[1]: في الفصل الأول استعان بالماوردي في تحديد مفهوم الخلافة، فقال: "قال النحاس: وعليه خوطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله، وعلى ذلك ينطبق كلام البغوي في "شرح السنة" حيث سمي خليفة لأنه خلف الماضي قبله، ثم قال النحاس: وإطلاق الخليفة على أمير المؤمنين يحتمل الوجهين معاً[2].

وعن نسبة الخلافة إلى الله لأن الانسان خليفة الله في الأرض نقل القلقشندي عن الماوردي قوله في الأحكام السلطانية ما يلي: "يقال في الخليفة خليفة الله لقيامه بحقوقه تعالى في خلقه احتجاجا بقوله تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض"[3]، وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك ونسبوا قوله إلى التَجَوُّز محتجين بأنه إنما يُستخلف من يغيب ويموت"[4].

واستعان بالماوردي أيضاً عند الحديث عن تفسيره لكلمة خليفة في المذهب الثاني في أنها تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حيث رد أبو بكر الصديق على من سماه بخليفة الله قائلا: "لست بخليفة الله وإنما أنا خليفة رسول الله" صلى الله عليه وسلم"[5].

---

[1] – محمد كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 10.

[3] – سورة الانعام 165.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 14.

[5] – نفســـــه، ص 16.

في حديثه عن البيعة فقد شرط في الأحكام السلطانية في أهل الحل والعقد أن يجتمع فيهم ثلاث صفات، وهي العدالة والعلم والرأي صلى الله عليه وسلم"[1].

وفي الحديث عن رسوم الخلافة تحدث عن ضرب الدنانير والدراهم ونقش اسم الخليفة، وقد ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية أن أول من ضرب الدنانير والدراهم في الاسلام عبد الملك بن مروان في سنة خمس وسبعين من الهجرة، وكان متولي لأمر ذلك الحجاج بن يوسف[2].

وفي حديثة عن رسوم الخلافة أيضاً، تحدث عن القضيب وهو عمود كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذه بيده، حيث قال الماوردي: "وهو من تركة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي صدقة"[3].

– الحاوي الكبير في الفقه للماوردي[4]: اعتمد على هذا المصدر في حديثه عن اتخاذ العباسيين للسواد، فذكر القاضي الماوردي في كتابه الحاوي في الفقه أن السبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد لعمه العباس رضي الله عنه في يوم حنين ويوم الفتح راية سوداء[5].

– سيرة ابن هشام (ت 213هـ- 828م)[6]: وفيه ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حين وجه عمرو بن حزم إلى اليمن كتب له كتاب عهد أمره فيه أمره[7]. وقد استعان بسيرة ابن هشام ايضا في رفع نسب الخليفة المعتضد بالله من العباس رضي الله عنه عم

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 45.

[2] – نفســـــه، ص 229.

[3] – نفســـــه، ص 234.

[4] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 234.

[6] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 2.

النبي صلى الله عليه وسلم إلى نبي الله آدم عليه السلام[1]. ثم يستعين بسيرة ابن اسحاق في ذكر إختلاف بعض المؤرخين في رفع نسب العباس رضي الله عنه إلى النبي آدم عليه سلام.

– القلم والدواة للمدائني (225هـ- 828م)[2]: قد ذكر محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" أنه كان يكتب للخلفاء في القرطاس ثلثي طومار[3]. والطومار هو الورق، وقد اعتمد على هذا المصدر في كتابة البيعة على الورق.

– نظم القرآن للجاحظ (255هـ-769م) [4]: قال الجاحظ في كتاب "نظم القرآن" أن أول من سن التعريف في مساجد الأمصار عبد الله بن عباس، وأنكر العلماء عليه هذا النقل[5]، وقد أورد نقدا لهذا المصدر لأبي عمر الكندي الذي ذكر أن عبد العزيز بن مروان أول من سن التعريف بالمسجد الجامع بمصر بعد العصر.

– المعارف لابن قتيبة الدينوري (ت276-889)[6]: ويخص كتاب الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي عهد بالحكم إلى ولي عهده يزيد بن عبد الملك[7]. غير أن القلقشندي يذكر في كتابه صبح الأعشى عند استعماله نفس الكتاب أن مصدره هو كتاب " تاريخ الخلفاء وليس "المعارف".

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 376.

[2] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 317.

[4] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 129.

[6] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 320.

- الكنى والألقاب للدولابي (ت320هـ-932م)[1]: واستشهد منه عند الكلام عن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2]، ثم عن بيعة[3]، ومدة خلافة[4] معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

- نقط العروس لابن حزم (ت: 456هـ/1064م)[5]: ذكر القلقشندي أن اختلاف ابن حزم في نقط العروس عن القضاعي في عيون المعارف ما يلي: "...أن خلفاء بني أمية تلقبت منهم بألقاب الخلافة، وكان أول من تلقب منهم بألقاب الخلافة معاوية بن أبي سفيان، وأن لقبه كان الناصر لحق الله، ثم تبعه باقي خلفاء بني أمية على التلقيب"[6]، ثم يعقب القلقشندي على هذه المعلومة قائلا: "وليس بالصحيح"[7].

وقال أيضاً جاء في "نقط العروس" وكان عمره (يقصد علي رضي الله عنه) يومئذ دون الستين، وكان نقشُ خاتمه: الملك لله الواحد القهار. وبقي حتى ضربه عبد الرحمن بن الملجم المرادي ليلة الجمعة لسبع ليلة خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة، فمات بعد ثلاث، وعمره ستون سنة، وقيل: سبع وخمسون، وقيل ثمان وخمسون، وصلى عليه ابنه الحسين، ودفن في الكوفة عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة، وغُيِّبَ قبره"[8].

وفي حديثه عن أبي عباس السفاح نقل القلقشندي عن ابن حزم: "كان سنه حين ولي ما بين الثلاثين والأربعين، وفيه نظر، لأنه سيأتي أنه توفي بين سنة ست وثلاثين

---

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 89.

[3] - نفســـــــه، ص 111.

[4] - نفســـــــه، ص 111.

[5] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[6] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 22.

[7] - نفســـــــه، ص 22.

[8] - نفســـــــه، ص 100.

ومائة، وأن خلافته أربع سنين، وكان نقشُ خاتمه: الله ثقة عبد الله وبه يومن. بقي في الخلافة حتى توفي بالجدري"[1].

وحين يتكلم عن الخليفة العباسي الهادي ينقل رواية ابن حزم أن سنه حين ولي الخلافة كان بين العشرين والثلاثين، وكان نقش خاتمه: الله ربي، وبقي في الخلافة حتى توفي ببغداد ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة وعمره أربعة وعشرون سنة[2].

وقال نقل عن ابن حزم أيضاً حديثه عن ولاية أبو الفتوح السليماني من قبل الظاهر بن الحاكم الفاطمي صاحب مصر، وكانت وفاته عن غير ولد، وانقرض بموته دولة الساسانيين، وانتقل ذلك إلى الهواشم، وهم بنو أبي هاشم محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، فاستولى عليها محمد بن جعفر بن هاشم[3].

– العقد الفريد لابن عبد ربه (328هـ-940م)[4]: ذكر فيه صيغة الكتاب الذي بعثه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الاشعري حين ولاه قضاء[5].

– أدب الكتاب، والأوراق للصولي (ت328هـ-940م)[6]: في ذكر ما يتفق في خلع الخلفاء، وقد نقل قول الصولي في كل سادس من الخلافة يخلع[7]، وفي ذكر تلاحق وفاة الخلفاء وتعجب الناس منه[8].

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 171.

[2] – نفســــــــه، ص 190.

[3] – نفســــــــه، ص 344.

[4] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 180.

[6] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 352.

[8] – نفســــــــه، ص 371.

- الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر (ت 335هـ-947م)[1]: وتحدث فيه عن الكتاب الذي يصدر على الخليفة، واستعان بهذا المصدر في ذكر ما كان عليه الحال في الخلافة العباسية[2].

- شرح مقدمة أدب الكاتب لأبي القاسم الزجاجي (ت 337هـ-949م)[3]: وقد أخذ منه قصة طريفة عن إعفاء كاتب الخليفة العباسي المعتصم بالله بسبب عدم قدرته على شرح كلمة وردت في كتاب ورد من البادية[4].

- صناعة الكتاب لأبي جعفر النحاس (ت338هـ-950م)[5]: "قال النحاس في حديثه أن إطلاق لقب الخليفة أول مرة: "وعليه خُوطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه بخليفة رسول الله"، "وإطلاق الخليفة على أمير المومنين يحتمل الوجهين جميعاً"[6]، ثم قوله عن كيفية بداية ما يكتب به عن الخلفاء: "إنه يُحذف من الكتاب عن ولي العهد لفظ أمير المومنين"[7].

- الولاة للكندي (ت 350هـ-961م)[8]: عند الحديث عن التعريف[9]: "أن عبد العزيز بن مروان أول من سنَّ التعريف بالمسجد الجامع بمصر"[10].

---

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 282.

[3] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 111.

[4] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 218.

[5] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[6] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 10.

[7] - نفســــــه، ص 275.

[8] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[9] - التعريف: أن يوقف بها كما يوقف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة. القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 129.

[10] - نفســــــه، ص 10.

- ذخيرة الكاتب لابن حاجب النعمان (ت 351هـ-962م)[1]: عن كيفية بداية الكتابة عن الخليفة حيث قال : "من عبد الله أبي فلان فلان"[2].

- غرر البلاغة لأبي الحسن الصابئ (ت 363هـ-974م)[3]: حيث أورد نوعا معينا في صيغة البيعة[4].

- الصحاح في اللغة، للجوهري (ت 393هـ-1003م)[5]: استعملها المؤلف في الضبط اللغوي لكلمة خلافة[6].

- الأوائل لأبي هلال العسكري (ت 395هـ-1005م)[7]: قال: "وعبد الملك أول من ضرب الدراهم في الإسلام"[8]، وهو الخاص بلقب أمير المومنين حيث ذكر أن أصل ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من لقب بهذا اللقب[9]. عن أول خليفة دعي له على المنابر[10].

- لطائف الكتاب للعتبي (ت 429هـ-1038)[11]: إعتمد عليه في الحديث عن القادر بالله العباسي الخليفة الخامس والعشرون في حديثة عن ولاية المدينة المنورة في عهده[1].

---

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 275.

[3] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[4] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 262.

[5] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[6] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 9.

[7] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[8] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 129.

[9] - نفســـــه، ص 27.

[10] - نفســـــه، ص 231.

[11] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

- الشفاء لابن سينا (ت 433هـ-1041م)[2]: واستعان به في الحديث عن حادث غريب وقع في جرجان، حيث وقعت صاعقة وسقط جسم غريب على الأرض[3].

- لطائف المعارف للثعالبي (ت 429هـ-1034م)[4]: واستدل به عند الحديث عن ثروة أبي جعفر المنصور عند وفاته[5]، كما تحدث عن مال بني العباس ونقل ذلك القلقشندي عن الثعالبي: لبني العباس في المال فاتحة وواسطة، وخاتمة، فالفاتحة المنصور، والواسطة المأمون، والخاتمة المعتضد، يقال إن ما جمعه السفاح إلى الرشيد فرقة الأمين[6].

- عوارف المعارف في أخبار (تاريخ) الخلائف للقضاعي (ت454هـ-1062م)[7]: واعتمد عليه في اتخاذ الالقاب عند الخلفاء الأمويين فقد ذكر القضاعي أن خلفاء بني أمية لم يتقلب أحد منهم بألقاب الخلافة، وإنما ابتدئ ذلك في الدولة العباسية[8].

وفي حديثه عن ولاية يزيد بن عبد الملك حيث قال: "وبقي في الخلافة حتى توفي بحوران من الشام، لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وعمره تسع وعشرين سنة"[9].

ونقل القلقشندي عن القضاعي قوله: أنه (أي أبو جعفر لمنصور) كان يُغبِّرُ شيبه بألف مثقال مسك في كل شهر، وكان حازم الرأي، قد عركته الأيام، على غاية من الحزم وصواب التدبير، وكان أخوه أبو العباس السفاح، قد عهد إليه بالخلافة ثم من بعده إلى عيسى

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 327.

[2] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 342.

[4] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص 363.

[6] - نفســـــــه، ص 370.

[7] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 112.

[8] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص22.

[9] - نفســـــــه، ص147.

بن موسى، فاستنزل عيسى عن عهده، وعهد بها لابنه المهدي، وبويع له بها بعد موت أخيه السفاح في اليوم الذي مات فيه لثلاث عشر ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين وهو يومئذ بمكة[1].

وعند الحديث عن ترتيب الخلافة، استشهد بكلام القضاعي في عيون المعارف، قائلا: "ولم يزل أمر الخلافة متماسكاً، إلى حين استخلف المتقي لله، فتفرد بتدبير الأمور غير الخلفاء، وتغلب ما نأى من البلدان، الأقوى فالأقوى، واقتصر على الدعاء لهم على المنابر، الأقوى فالأقوى، واقتصر على الدعاء لهم على المنابر"[2].

- المختار في ذكر الخطط والآثار للقضاعي (ت454هـ-1062م)[3]: في حديثه عن ولاية مصر في خلافة عبد الملك بن مروان حيث قال: "كان يسكب فيها في كل يوم مائة رواية ماءً، وفيها عدة مساجد، وعدة أفران للخبز، وأقام على مصر عشرون سنة وعشرة أشهر وأيام (يقصد عبد العزيز بن مروان)، وهو الذي بنى القنطرة التي على خليج القاهرة عند السد الذي يكسر عند وفاء النيل"[4].

وقد نقل القلقشندي عن القُضاعي كلامه عن دار الليث بن سعد أنه كان لليث بن سعد دار بقلقشندة، فهدمها عبد الملك بن رفاعة عناداً له، فعمرها ليث، فهدمها عبد الملك، فعمرها، فهدمها، فلما كانت في الثالثة بينما ليث نائم إذا بهاتف يهتف به، قم يا ليث

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص176.

[2] - نفســــــــه، ص226.

[3] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[4] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص130.

""ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين"[1]، فأصبح عبد الملك بن رفاعة وقد أصابه فالج وبقي ثلاثاً ومات[2].

– تتمة الإبانة في فروع الفقه الشافعي لأبي سعد متولي (ت: 487هـ/ 1086م)[3]: ونقل عنه رأيه الفقهي في جواز الإمامة عند نقص أحد الحواس أو الأعضاء التي يمكن ان تجعل حركة الإمام أقل قوة[4]، وقد عبر برأي متولي عن رأي الشافعية.

وفي ولاية العهد لمن كان سالما وقتها وناقصاً يوم العهد له بالحكم ذكر القلقشندي ما أورده أبي سعد متولي في يبايع غيره وكأن لا عهد له.

وعن حكم عزل الإمام نقل القلقشندي عن أبي سعد متولي ما يلي: إن كان ما قد حدث في حاله خلل فلهم عزله، وإن كان مستقيم الحال فليس لهم ذلك، لأنها لو جاوَّزنا ذلك لأدَّى إلى الفساد، لأن الآدمي ذو بَدَراتٍ، فلا بُدَّ من تغير الأحوال في كل وقت، فيعزلون واحداً ويولون آخر، وفي كثرة العزل والتولية زوال هيبة وفوات الغرض من انتظام الأمر[5].

– التهذيب في فروع الفقه الشافعي للبغوي (ت: 516هـ/1122م)[6]: أورد القلقشندي في حديثه عن شرط القرشية في الإمامة الكبرى أنه إن لم يكن فيهم رجل مستجمع للشرائط، ففي " تهذيب" "البغوي" أنه يُولَّى رجل من العجم وفي التتمة لأبي سعد المتولي – المذكور سابقاً– أنه يُولى جرهمياً[7].

[1] – سورة القصص، 5.

[2] – القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب،ج1، ص395.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص34.

[5] – نفســـه، ص66.

[6] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص38.

- في شرح (مصابيح) السنة للبغوي (ت: 516هـ/1122م)[1]: ونقل منه ما يلي: سمي خليفة لأنه خلف الماضي قبله[2]؛ وعن تسمية الخليفة يستشهد القلقشندي بالبغوي أيضاً.[3]

وقد وقد جاء في مآثر الغنافة رأي البغوي أن تسمية خليفة الله تصح في إثنين فقط وهما آدم وداود عليهما السلام دون غيرهما، محتجاً، بقوله تعالى في حق آدم: "إني جاعل في الأرض خليفة"[4]؛ وبقوله في حق داود: "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض"[5]؛ قال ولا يسمى لأحد خليفة الله بعدهما[6]. وقال: "الخليفة خليفة رسول الله"[7].

- تكملة تاريخ الطبري لأبي الحسن الهمذاني (ت: 521هـ/1127م)[8]

- الكشاف للزمخشري (ت:538هـ/1144م)[9]:ذُكر موقف الزمخشري في تفسيره فيما يخص لقب "خليفة الله" حيث أجازه لجميع الأنبياء وليس لآدم وداود فقط[10].

- تاريخ دمشق لابن عساكر (ت:571هـ/1176م)[11]:

---

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص10.

[3] - نفســــــه، ص14.

[4] - سورة البقرة، 30.

[5] - سورة ص، 26.

[6] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص16.

[7] - نفســــــه، ص17.

[8] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[9] - نفســــــه، ص 113.

[10] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص16.

[11] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

– الجوهر المكنون في القبائل والبطون للشريف الحوَّاني (ت:588هـ/1192م)[1]: وذكر فيها ولاية مكة سنة ثمان وأربعمائة حيث وليها أبو عمارة حمزة، وبقي إلى ما بعد خلافة المقتدر العباسي[2].

– النهاية في غريب الحديث لأبي السعادات ابن الأثير (ت:606هـ/ 1210م)[3]: في تحديد أحد معاني الخلافة، حيث ذكر أن الخِلِّيفَي هو من المصادر الدالة على معنى الكثرة، ومنه قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أُطيق الأذان مع الخِلِّيفَى لأذَّنت. يريد أنه مشتغل عن الآذان بكثرة اجتهاده في ضبط أمور الخلافة وتصريف أعنتها[4].

– شرح المحرر في فروع الفقه الشافعي للرافعي القزويني (ت:623هـ/ 1226م)[5]

وقد عاد إليه القلقشندي للاستشهاد بكثير من الآراء الشافعية ومنها:

– رأي الشافعية في عدم انعقاد البيعة مع رجل ذهبت يداه أورجلاه[6].

– رأي الشافعية في انعقاد البيعة في حالة عدم وجود قرشي مستجمع للشروط[7].

– الرأي في حدوث عاهة الصمم وهي أحد دواعي عزل الخليفة[8].

– الرأي في خلع من ثبتت له الخلافة بالقهر والاستيلاء[1].

---

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص17.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص09.

[5] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص34.

[7] – نفســــــــه، ص38.

[8] – نفســــــــه، ص68.

– الرأي في عزل الخليفة بسبب الفسق، حيث اختلف الشافعية على وجهين ومثل الرافعي والنووي أحدهما القائل بعدم عزل الخليفة تجنبا للفتنة، ويعزل ما دونه من الولاة[2].

– معالم الكتابة وفضائل الإصابة لابن شيت (ت:625هـ/1228م)[3]، جاء في المشر: "مما يكتب به إلى الخلفاء أن يفتتح الكتاب بالسلام على الخليفة قال ابن شيت في معالم الكتابة وعليه العمل في زماننا وكان في أواخر الدولة الأيوبية".[4]

– الكامل في التاريخ لابن الاثير الجزري (ت:639هـ/1233م)[5]؛ قال القلقشندي: "وقد حكى ابن الأثير في تاريخه أنه لما وصلت رسل ملك الروم إلى بغداد في سنة خمس وثلاث مائة في خلافة المقتدر رتب من العسكر في دار الخلافة مائة وستون ألفا ما بين راكب وراجل ووقف بين يدي الخليفة سبع مائة حاجب وسبعة آلاف خادم خصى وأربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود ووقف الغلمان الحجرية لذين هم بمثابة مماليك الطباق الآن بأتم الزينه والمناطق المحلاه وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة وغرائب الزينه وغشيت جدرانها بالستور وفرشت أرضها بالبسط"[6]؛ وقال أيضاً:" كما حكى ابن الاثير وغيره أن السلطان طغرلبك ابن ميكائل السلجوقى لما تقلد السلطنة عن القائم بأمر الله في سنة تسع وأربعين وأربعمائة جلس له الخليفة على كرسى ارتفاعه عن الأرض نحو سبعة أذرع وعليه البردة وأقبل طغرلبك في جماعته وأعيان بغداد حاضرون فقبل طغرلبك الأرض ويد الخليفة ثم جلس على كرسى نصب له".[7]

---

[1] – نفســـــــه، ص71.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص38.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 113.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص315.

[5] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص227.

[7] – نفســـــــه ص227.

– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين ابن الاثير (ت:637هـ/ 1239م)[1]، قال القلقشندي: "قلت وقد عاب الوزير ضياء الدين بن الأثير هذا التقليد في كتابه المثل السائر وغض منه وعارضه بتقليد أنشأه وقد ذكرته".[2]

– الدر الملتقط في تبيين الغلط للصغاني (ت:650هـ/1252م)[3]، جاء في مآثر الإنافة: "فقد ذكر صاحب الدر الملتقط عن المقر الشهابي بن فضل الله أنه كتب الكتاب الصادر عن الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان إلى الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون عند استدعائه للسلطنة من الكرك".[4]

– الأذكار للنووي (ت:677هـ/1278م)[5] حول لقب الخليفة: حيث يقول النووي: "ينبغي أن يقال للقائم بأمر المسلمين: خليفة الله"[6].

نقل القلقشندي عن النووي في الأذكار فيما يخص اتخاذ الكنية عند الخلفاء وآداب ذلك فقال: "والأدب أن يخاطب أهل الفضل ومن قاربهم بالكنية، وكذلك إن كُتب إلى أحد منهم رسالة أو رُوي عنه رواية"[7]؛ ويضيف: "فلو تكنى بغير أولاده فلا بأس، فلو لم يكن له ولدٌ أصلاً بأن لم يولد له فإنه يجوز تكنيته، حتى الصغير، قال وقد كانت تكنى جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم قبل أن يولد لهم، كأبي هريرة، وخلائق لا يحصون من التابعين. قال: ولا كراهية فيه، بل هو محبوب بشرطه"[8].

---

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص98.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص276.

[5] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص15.

[7] – نفســــــه، ص18.

[8] – نفســــــه، ص19.

– الروضة للنووي (ت:677هـ/1278م)[1]: حيث يذكر كلام البغوي في كتاب "شرح السنة" الخليفة خليفة رسول الله. ويذكر أن النووي في كتابه الروضة قد تبعه في ذلك[2].

وقد أورد رأي النووي في الروض في وجوب طلب الخلافة إن لم يكن يصلح لها إلا واحد "فتعينت عليه ولزمه طلبها إن لم يبتدوه"[3].

وعن عزل الإمام أورد القلقشندي رأي الشافعية متمثلا في رأي النووي ومصححا لرأي الماوردي قائلا: "أنه لا يجوز له عزله ما دام متصفا بصفات الإمامة، وإن جاز له عزل سائر نوابه في غير ذلك من الأمور، لأنه مستخلف لولي العهد في حق المسلمين فلا يكون له عزله، كما ليس لأهل الحل والعقد عزل من بايعوه، بخلاف غيره من سائر نوابه فإنه يستخلفه لهم في حقِّ نفسه، فجاز له عزله، فلو عَزل العاهد ولي العهد، وعَهد إلى ثان، لم يصح عهد الثاني، ويبقى الأول على عهده، ولو خلع الأول نفسه بعد العهد إلى الثاني فلا بد من استئناف العهد إليه"[4].

– المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي (ت:685هـ/1286م)[5]: أن الظافر احد الخلفاء بالديار المصرية لما قتله وزيره العباس بعث نساء الخليفة شعورهن[6].

وعن ولاية مكة في خلافة القادر بالله الخليفة العباسي الخامس والعشرين، قال بن سعيد ونقله القلقشندي: "وكان على مكة عيسى بن جعفر، ثم ولي بعده أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم الحسن بن محمد بن سليمان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ثم

---

[1] – محمد كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص17.

[3] – نفســــــــه، ص31.

[4] – نفســــــــه، ص73.

[5] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص236.

جاءت عساكر عضد الدولة بن بويه، ففر الحسن وترك مكة ولما مات المعز وولي بعهد ابنه العزيز بعث إلى مكة أميراً علوياً، فخطب له بالحرمين، واستمرت الخطبة بمكة للعلويين على سنة سبع وثمانين وثمانمائة"[1].

– الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة لابن عبد الظاهر (ت:692هـ/ 1293م)[2]: فقد جاء فيه أن أحمد بن طولون رأى في منامه كأن الله تعالى تجلى على تلك الجهة خلا الجامع، فقص ذلك على عابر ماهر، فقال له: "إن جميع هذه الأماكن تخرب ما خلا الجامع، فإن الله تعالى يقول:"فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا" وكان الامر كما عبَّرَ[3].

– مناهج الفكر ومباهج العبر للوطواط (ت: 718هـ/1318م)[4] في حديث القلقشندي عن شرط سلامة الأعضاء استعان القلقشندي برأي الوطواط في كتابه "مناهج الفكر ومباهج العبر" في حكم الخَصِيْ فإن خصي قبل التِّسع حُفظ عليه صفات الطفولة حتى إذا غضب، وإن خُصي لما بعد ثماني عشر سنة حفظت عليه وصفات الرجولية. وإن خصي لما بين ذلك فأي الأمرين كان إليه أقرب فهو إلى طبعه أميل[5].

– المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا (ت:732م/1331م)[6] صاحب حماة، حيث ذكر أن يزيد بن عبد الملك كان عمره أربعين سنة حين ولي الحكم، وعليه ينطبق قول ابن حزم[7].

وذكر أيضاً أن عُمْرَ أبي العباس السفاح كان ثلاثة وثلاثون سنة[1].

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص325.

[2] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص271.

[4] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص35.

[6] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص147.

ونقل القلقشندي عن أبي الفدا صاحب حماة ما يلي: "أن عيسى عم قاسم سيَّر الحاج سنة ست وخمسين وخمس مائة، وقام مكان ابن أخيه قاسم المذكور، ثم عاد قاسم وملك مكة، ثم هرب وعاد عمه عيسى فملكما فهرب قاسم إلى جبل أبي قُبيس فوقع عن فرسه، فأمسكه عيسى وقتله"[2].

والحديث عن صفات الناصر لدين الله العباسي استشهد القلقشندي بكلام صاحب حماة قائلا: "كان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً، لهم، خرب في أيامه العراق، وتغرب أهله في البلاد، وكان يتشيع، وكان منصرف الهمة، وكان منصرف الهمة على رمي البندق، والطيور المناسيب، وإلباس سراويلات الفتوة، ومنع رمي البندق إلا أن ينسب إليه، فأجاب الناس إلى ذلك، وكان من أمره أنه عمى في آخره"[3].

- التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (ت:749هـ/ 1348م)[4] حيث ذكر العمري كيفية صياغة الكتب على الخليفة فقال: "أدام الله أيام الديوان العزيز المولوي السيدي الإمامي الفلاني، ثم يؤتى بالدعاء المعطوف، والصدر بالتعظيم المألوف"[5].

وفي نفس المجال يقدم العمري نموذجاً من الكتاب المذكور سالفاً وهو إلى الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن المستكفي بالله، أبي الربيع سليمان[6].

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص172.

[2] - نفســــــــه، ص48.

[3] - نفســــــــه، ص56.

[4] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص322.

[6] - نفســــــــه، ص324.

– المذمة في استعمال أهل الذمة لأبي أمامة ابن النقاش (ت:763هـ/ 1361م)[1] نقل عنه القلقشندي ما كان يكتب عن الخلفاء في إلزام أهل الذمة ما يلزمهم بشريطة عقد الذمة وأخذهم بذلك[2].

– تذكرة الصلاح الصفدي (ت:764هـ/1363م)[3] أُعتمد عليه في اتفاقيات عجيبة في خلع الخلفاء، ومنها أن السادس في ممن يقوم بأمر دولة الإسلام يخلع، وذكر الصفدي ترتيب خلفاء فنرة من فنرات الدولة الفاطمية، فقال: "القادر ثم القائم ثم المقتدر ثم المستظهر، ثم المسترشد، ثم الراشد فخُلع"[4].

– تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لابن ناضر الجيش (ت:786هـ/ 1384م)[5] والخطاب له بمولانا وليُّ العهد ونحو ذلك، والتعبير عن المكتوب عنه: بالخادم يقبل العتبات الشريفة، أو اليد الشريفة، ونحو ذلك[6].

– العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (ت:808هـ/1406م)[7]: نقل القلقشندي عن ابن خلدون تعريفه للقرامطة حيث قال: هؤلاء القرامطة يعرفون في بلاد المشرق بالملاحدة، لأن مذهبهم كله إلحاد، ومنهم الاسماعيلية بقلاع الدعوة بأعمال طرابلس من بلاد الشام المعروفون بالفداوية[8].

---

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 114.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص228.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 115.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص353.

[5] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 115.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص332.

[7] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 115.

[8] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص255.

- موارد البيان لعلي بن خلف الكاتب(ت: 449هـ/)[1] نقل عنه القلقشندي الأسلوب الثالث لكتابة المراسلات التي يكتبها الخلفاء لمن دونهم من أرباب الوظائف، وما عرف به الأيوبيين ومن جاء بعدهم[2].

- شرح السنة بن مسعود البغوي: (510هـ-): حيث يقول عن تسمية الخليفة: "حيث سمي خليفة لأنه خلف الماضي قبله"[3].

ويبدو جليا غنى المادة العلمية التي استعملها القلقشندي في كتابه وتنوعها، من خلال هذه القائمة الطويلة من المصادر واعتمدها.

[1] - محمد كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص 115.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص193.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 10.

ب – المادة التاريخية المتعلقة بالخلافة في مآثر الإنافة:

1– مفهومها، حكمها وكيفية انعقادها:

الخلافة لغة: استخلف فلانا من فلان: جعله مكانه. وخلف فلان فلانا إذا كان خليفته. يقال: خلفه في قومه خلافة. وفي التنزيل العزيز: ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي﴾[1]، وخلفته أيضا إذا جئت بعده. ويقال: خلفت فلانا أخلفه تخليفا واستخلفته أنا جعلته خليفتي. واستخلفه: جعله خليفة. والخليفة: الذي يستخلف ممن قبله، والجمع خلائف، جاءوا به على الأصل مثل كريمة وكرائم، وهو الخليف والجمع خلفاء، وأما سيبويه فقال خليفة وخلفاء، كسروه تكسير فعيل؛ لأنه لا يكون إلا للمذكر.[2]

والخلافة: الإمارة وهي الخليفى. وإنه لخليفة بين الخلافة والخليفى. وفي حديث عمر – رضي الله عنه: لولا الخليفى لأذنت، وفي رواية: لو أطقت الأذان مع الخليفى، بالكسر والتشديد وقصر الخلافة، يريد به كثرة اجتهاده في ضبط أمور الخلافة وتصريف أعنته. ابن سيده: قال الزجاج جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه بقوله – عز وجل: "ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض"[3]. وقال غيره : الخليفة السلطان الأعظم.[4].

ويبتدئ القلقشندي في تعريفة للخلافة بالمعنى اللغوي قائلا: "أما الخلافة فهي في الأصل مصدر خلف يقال خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة ومنه قوله تعالى: "وقال

---

[1] – الأعراف، الآية 132.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص84.

[3] – سورة ص، الآية 126.

[4] – ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص85.

موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي"[1]. ثم أطلق في العرف العام على الزعامة العظمى وهي الولاية العامة على كافة الأمة والقيام بأمورها والنهوض أعبائها والخليفي بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة لغة في الخلافة حكاها الجوهري وغيره قال ابن الأثير في نهايته في غريب الحديث وهو من المصادر الدالة على معنى الكثرة ومنه قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أطيق الأذان مع الخليفي لأذنت يريد أنه مشتغل عن الأذان بكثرة اجتهاده في ضبط أمور الخلافة وتصريف أعنتها وقد اختلف في لفظ الخليفة"[2]، وهو ما يوافق ما ورد في معظم معاجم اللغة ومنهم ما ذكرنا ابن منظور في لسان العرب.

الخلافة اصطلاحاً: أما فيما يخص المعنى الاصطلاحي فقد أورد القلقشندي في كتاب مآثر الإنافة ما نصه: "والذي عليه العرف المشاع من صدر الإسلام وهلم جرا، إطلاق اسم الخليفة على كل من قام بأمر المسلمين القيام العام، إما ببيعه من أهل الحل والعقد وإما بعهد ممن قبله، إلا أن بعض السلف قد خصص ذلك بما إذا كان الإمام جاريا على منهاج العدل وطريق الحق، فقد روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "سأل طلحة والزبير وكعبا وسلمان عن الفرق بين الخليفة والملك فقال طلحة والزبير: لا ندرى، فقال سلمان: الخليفة الذي يعدل في الرعية ويقسم بينهم بالسوية ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله والوالد على ولده ويقضى بينهم بكتاب الله تعالى، فقال كعب: ما كنت أحسب أن في هذا المجلس من يفرق بين الخليفة الملك ولكن الله تعالى ألهم سلمان حكما وعلما".[3]

وهذا ما لخصه الماوردي في قوله: الإمامة هي "موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[4]، فقد جمع الماوردي الخلافة في حراسة الدين والدنيا.

---

[1] – الأعراف، الآية 132.

[2] القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص9.

[3] – نفســـــه، ص13.

[4] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص15.

يقول ابن خلدون: "تسمى خلافة وإمامة، والقائم بها وإماماً فأما تسميته إماما فتشبيهاً بإمام الصلاة في إتباعه والإقتداء به، ولهذا يقال: الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته، فيقال: خليفة بإطلاق، وخليفة"[1]؛ وقوله أيضاً: " فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[2]، وبهذا التعريف يلتقي ابن خلدون في الرأي حول الخلافة مع الماوردي والقلقشندي.

حكمهـــا:

لقد حكم القلقشندي بوجوب عقد الإمامة، وقد نقل في ذلك رأي الماوردي قائلاً: "وفي وجوب عقد الإمامة لمن يقوم بها قال المادوري: وعقدها لمن يقوم واجب بالإجماع"[3]، وجاء في الأحكام السلطانية ما يوافق ذلك قائلاً: "وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع"[4]. ويضيف القلقشندي في ذكر وجوب انعقادها حتى لو ندر المخالفون مع كثرة المجمعين فوجود المخالفين لا تقطع الإجماع كما هو الراجح في كتب أصول الفقه.[5]

والأدلة العقلية على وجوبها كثيرة ومنها أن طبيعة البشر تستلزم وجودها لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم عند التنازع ولولا ذلك لكانوا فوضى مهملين[6]، فالإنسان بحاجة إلى رجل يمثل النظام ويقود الجماعة ويسهر على تطبيق القوانين؛ يقول ابن خلدون: " قالوا إنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض".[7]

---

[1] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص239.

[2] – نفســـــــه، ص239.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص29.

[4] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص15.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص29.

[6] – نفســـــــه، ص29.

[7] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص240.

أما شرعاً وهو الأصل في وجوده فهو أنه لابد للأمة من إمام يقيم الدين وينصر السنة وينصف المظلومين من الظالمين ويستوفي الحقوق ويضعها مواضعها[1]، وهو يستشهد بقول الماوردي: "ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط فرضها على الكفاية"[2]؛ يقول ابن خلدون ما يقارب ذلك: "والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذْ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة "[3]، ويقول: "إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيماناً واعتقاداً".[4]

ونلاحظ أن القلقشندي في هذا الفصل التزم برأي الماوردي في الأحكام السلطانية، فهو عند الحديث عن النقطة التي تخص عدم قيام أي شخص بالأهلية للخلافة يذكر وجوب انتظار أمرين، يقول القلقشندي: " وإن لم يقم بها أحد أثم من الناس فريقان".[5]

– أحدهما أهل الحل والعقد حتى يختاروا للأمة إماما يقوم بأمرهم[6]، وما يوافقه عند الماوردي: "أهل الاختيار حتى يختاروا إماما للأمة"[7]، يقول ابن خلدون: " لا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم ".[8]

– ثانيهما أهل الإمامة حتى ينتصب للإمامة أحدهم[1]، وجاء في الأحكام السلطانية نفس الشيء: "أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة"[2].

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص30.

[2] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص19.

[3] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص239.

[4] – نفســــــــه، ص240.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص30.

[6] – نفســــــــه، ص30.

[7] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص17.

[8] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص267.

أما في شروط الإمامة فقد التزم القلقشندي رأي الشافعية في هذا الموضوع، فذكر أربع عشر شرطاً، وجاءت كالتالي:

1- الذكورة: فلا تنعقد إمامة المرأة، والمعنى في ذلك أن الإمام لا يستغني عن الإختلاط بالرجال والمشاورة معهم في الأمور والمرأة ممنوعة من ذلك ولأن المرأة ناقصة في أمر نفسها حتى لا تملك النكاح فلا تجعل إليها الولاية على غيرها.[3]

2- البلوغ فلا تنعقد إمامة الصبي لأنه مولى عليه والنظر في أموره إلى غيره فكيف يجوز أن يكون ناظرا في أمور الأمة.[4]

3- العقل فلا تنعقد إمامة ذاهب العقل بجنون أو غيره لأن العقل آلة التدبير فإذا فات العقل فات التدبير[5]، وقد صنف ابن خلدون العقل مع سلامة الحواس قائلاً: "أما سلامة الحواس والأعضاء من النقص و العطلة كالجنون و العمى و الصمم و الخرس و ما يؤثر فقده".[6]

4- البصر فلا تنعقد إمامة الأعمى لأنه إذا منع عقد ولاية القضاء وجواز الشهادة فمنعه صحة الإمامة.[7]

5- السمع فلا تنعقد إمامة الأصم وهو الذي لا يسمع البتة لأنه يتعذر عليه بذلك سماع مصالح المسلمين ولأن ذلك يمنع ولاية القضاء فلأن يمنع ولاية الإمامة.[8]

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص30.

[2] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص17.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص31.

[4] – نفســــــــه، ص32.

[5] – نفســــــــه، ص32.

[6] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص242

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص33.

[8] – نفســــــــه، ص33.

6- النطق فلا تنعقد إمامة الأخرس لما في ذلك من فوات مصالح الأمة بعدم القدرة على النطق عند الخطاب [1]، ويجمع الماوردي الشروط الثلاث السابقة معاً قائلاً: "سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان، ليصح معها مباشرة ما يدرك بها ".[2]

7- سلامة الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض[3]، يقول الماوردي: "سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض"[4]. يقول ابن خلدون: "فشرط السلامة منه شرط كمال و يلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف".[5]

8- الحرية فلا تنعقد إمامة من فيه رق في الجملة فأموره تصدر عن رأي غيره فكيف يسصلح لولاية أمور الأمة.[6]

9- الإسلام فلا تنعقد إمامة الكافر لأن المقصود من الإمام مارعاة امور المسلمين والقيام بنصرة الدين ومن لا يكون مسلما لا يراعى مصلحة الإسلام والمسلمين. [7]

10- العدالة فلا تنعقد إمامة الفاسق وهو المتابع لشهوته المؤثر لهواه لأن المراد من الإمام مراعاة النظر للمسلمين والفاسق لم ينظر في أمر دينه فكيف ينظر في مصلحة غيره[8]. يقول ابن خلدون: " أما العدالة فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه".[9]

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص34.

[2] - الماوردي، الأحكام السلطانية، 19.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص34.

[4] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص19.

[5] - - ابن خلدون، العبر، ج1، ص242.

[6] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص35.

[7] - نفســـــه، ص35.

[8] - نفســـــه، ص36.

[9] - - ابن خلدون، العبر، ج1، ص241.

11- الشجاعة والنجدة فلا تنعقد إمامة الجبان لأنه محتاج إلى الشجاعة ليتوصل بذلك إلى حماية البيضة وجهاد العدو اللذين هما جل المطلوب من نصيب الإمام [1]، يقول ابن خلدون: "فهو أن يكون جزئياً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها كفيلاً يحمل الناس عليها عارفاً بالعصبية و أحوال الدهاء قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين و جهاد العدو وإقامة الأحكام و تدبير المصالح".[2]

12- العلم المؤدى إلى الإجتهاد في النوازل والأحكام لأنه محتاج لأن يصرف الأمور على النهج القويم ويجريها على الصراط المستقيم[3]، يقول ابن خلدون: " فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها".[4]

13- صحة الرأى والتدين فلا تنعقد إمامة ضعيف الرأى لأن الحوادث التي تكون في دار الاسلام ترفع إليه ولا يتبين له طريق المصلحة إلا إذا كان ذا رأى صحيح وتدبير سائغ[5]، ولابن خلدون رأي معاكس لذلك حيث يقول: "تقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لأنه إفراط في الفكر كما أن البلادة إفراط في الجمود والطرفان مذمومان".[6]

14- النسب فلا تنعقد الأمامة بدونه والمراد أن يكون من قريش[7]، ولم يشترط ابن خلدون النسب القرشي يقوله: "واختلف في شرط خامس و هو النسب القرشي "، ويضيف: " أما النسب القرشي فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك و احتجت قريش

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص36.

[2] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص242

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص37.

[4] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص241.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص37.

[6] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص237.

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص37.

على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة"[1]، يقول ابن خلدون: "ثبت أيضاً في الصحيح لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش و أمثال هذه الأدلة كثيرة إلا أنه لما ضعف أمر قريش و تلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف و النعيم و بما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة و تغلبت عليهم الأعاجم و صار الحل و العقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي طه اشتراط القرشية و عولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه و سلم: اسمعوا و أطيعوا و إن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة".[2]

– كيفية انعقاد الخلافة:

1– البيعة: وهى أن يجتمع أهل الحل والعقد ويعقدون الأمامة لمن يستجمع شرائطها[3]، يعرفها ابن خلدون بقوله: "البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه و أمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ".[4]

– الشكل الأول لانعقاد البيعة: أن يموت الخليفة الذي كان منتصبا عن غير عهد إلى أحد بعده[5]، يقول ابن خلدون عن وصية ولاية العهد التي يتركها الخليفة: "ويقيم لهم

[1] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص242.

[2] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص243.

– جاء في باب السمع والطاعة للامام ما لم تكن معصية، من كتاب فتح الباري في شرح صحيح البخاري، حديث يخالف ذلك لفظاً". أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج13، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، ص122.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص39.

[4] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص261.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص39.

من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده".[1]

– الشكل الثاني لانعقاد البيعة: أن يخلع الخليفة نفسه من الخلافة أو يخلعه أهل الحل والعقد لموجب اقتضى خلعه نفسه أو خلع أهل الحل والعقد.[2]

2– العهد: وهو أن يعهد الخليفة المستقر الى غيره ممن استجمع شرائط الخلافة بالخلافة بعده فإذا مات العاهد انتقلت الخلافة بعد موته الى المعهود اليه ولا يحتاج مع ذلك الى تجديد بيعة من أهل الحل والعقد[3]، يقول الماوردي عند الحديث وصية ولاية العهد: " بعهد الإمام من قبل".[4]

– الحالة الأولى: أن يتحد المعهود اليه بأن يعهد بالخلافة بعهده الى واحد فقط فيجب الاقتصار عليه[5]،

– الحالة الثانية: أن يتعدد المعهود إليه بأن يكون اثنين فأكثر من أهل الإمامة.[6]

3– القهر والاستيلاء فإذا مات الخليفة فتصدى للإمامة من جمع شرائطها من غير عهد إليه من الخليفة المتقدم ولا بيعة من أهل الحل والعقد انعقدت إمامته لينتظم شمل الأمة وتتفق كلمتهم[7].

---

[1] – – ابن خلدون، العبر، ج1، ص262.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص40.

[3] – نفســـــه، ص48.

[4] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص22.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص48.

[6] – نفســـــه، ص53.

[7] – نفســـــه، ص58.

2- رسوم وتقاليد الخلافة في مآثر الإنافة:

- ألقاب الخلفاء:

تحدث القلقشندي عن أربع ألقاب أطلقت على الخليفة وهو يقول: "وأما ما يقع على الخليفة من الألقاب فأربعة ألقاب"[1]، وهي:

1- **عبد الله:** "عبد الله وأول من تلقب بذلك من الخلفاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان يكتب في كتبه الصادرة عنه من عبد الله عمر أمير المؤمنين"[2]، "حتى أن المأمون كان اسمه عبد الله، فكان يكرر في كتبه وعهوده لفظ عبد الله مرتين الأولى منهما اللقب والثانية الاسم الخاص، فكان يكتب في كتبه من عبد الله عبد الله بن هارون وفي العهود: هذا ما عهد عبد الله عبد الله بن هارون"[3].

ثم أحدث الخلفاء الفاطميون بالديار المصرية أيام قيامهم بها بعد ذلك ووليه فكان يكتب في كتب خلفائهم من عبد الله ووليه فلان أمير المؤمنين حتى كان العاضد آخر خلفائهم بها وكان اسمه عبد الله فكان يكتب عنه من عبد الله ووليه عبد الله إلى آخره ثم تبعهم على ذلك خلفاء بني العباس بالديار المصرية أيضا بعد تحول الخلافة من بغداد إلى مصر.[4]

2- **الإمام:** وهو من الألقاب المستجدة للخليفة في أثناء الدولة العباسية بالعراق، غير أن الكثير ممن ألَّف في النظم الإسلامية تحدث عن الخلافة على أنها الإمامة، ومن ذلك الماوردي، حيث يقول: "الإمامة: موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[5]، وحتى محقق الكتاب يشير إلى ذلك في الهامش بقوله: "والإمامة والخلافة مصطلحان

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص20.

[2] - نفســـــه، ص20.

[3] - نفســـــه، ص20.

[4] - نفســـــه، ص21.

[5] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص15.

مترادفان"[1]، "وإن كان مصطلح الخلاقة أسبق، ومصطلح الإمامة أكثر ما يتردد عند الشيعة، والإمامية منهم خاصة"[2].

3- لقب الخلافة الخاص: وهي من مظاهر الترف في الحضارة، وظهر جليا في العصر العباسي، فلا نزاع في جريان ألقاب الخلافة عليهم من بدء أمرهم وإلى آخر وقت[3]، كألقاب المنصور والهادي والرشيد والمأمون والمعتصم بالله والمتوكل على الله[4]، وقد أُختلف في اتخاذ الخلفاء السابقين للألقاب، فقد كان الخلفاء الراشدون من الصحابة رضى الله عنهم بمعزل عن هذه الألقاب واختلف في بنى أمية هل كان لهم ألقاب نحو ذلك فذكر القضاعى في عيون المعارف في أخبار الخلائف أن خلفاء بنى أمية لم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة وإنما ابتدىء ذلك في الدولة العباسية وحكى ابن حزم في بعض مصنفاته أن خلفاء بنى أمية تلقب منهم جماعة بألقاب الخلافة[5]،

4- أمير المؤمنين: وأول من لقب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في اثناء خلافته وكانوا قبل ذلك يدعون أبا بكر رضي الله عنه في خلافته بخليفة رسول الله صلى اله عليه وسلم ثم دعوا عمر بعده في أول خلافته بخليفة خليفة رسول الله[6].

وقد أختلف في أصل اللقب، وذهب المؤرخون مذهبين حسب القلقشندي:

- الرأي الأول: أن أبا بكر رضى الله عنه كان يجلد في الشراب أربعين فجئت عمر رضي الله عنه فقلت ياأمير المؤمنين إن خالدا بعثني إليك قال فيم قلت إن الناس قد

---

[1] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص15.

[2] - نفســـــه، ص15.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص22.

[4] - نفســـــه، ص21.

[5] - نفســـــــه، ص22.

[6] - نفســـــــــه، ص26.

تخافوا العقوبة وانهمكوا في الخمر فما ترى في ذلك فقال عمر لمن حوله ما ترون فقال على نرى ياأمير المؤمنين ثمانين جلدة فقبل ذلك عمر.[1]

– الرأي الثاني: أن أصل ذلك أن عمر رضي الله عنه بعث إلى عاملة بالعراق أن يبعث إليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم فلما وصلا المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا له استأذن لنا على أمير المؤمنين فقال لهما عمرو أنتما والله أصبتما اسمه ثم دخل على عمر فقال السلام عليك ياأمير المؤمنين فقال ما بدا لك يابن العاص لتخرجن من هذا القول فقص عليه القصة فأقره على ذلك فكان ذلك أول تلقيبه بأمير المؤمنين ولزم هذا اللقب من ولي الخلافة بعده.[2]

– الوظائف المساعدة لمنصب الخليفة:

1– الوزارة: هي نوعان:

– وزارة تفويض: وهي أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضائه على اجتهاده وهي أجل الولايات بعد الخلافة قال الماوردي فهو ينظر في كل ماينظر فيه الخليفة[3].

– وزارة تنفيذ: والنظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدبيره والوزير فيها واسطة بينه وبين الرعايا والولاة يؤدى عنه ما أمر وينفذ ما ذكر ويمضى ما حكم ويجيز تقليد الولاة وتجهيز الجيوش ونحو ذلك وربما عبر عن هذا الوزير بالوساطة.[4]

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص27.

[2] – نفســـــه، ص28.

[3] – نفســـــه، ص74.

[4] – نفســـــه، ص75.

2- الإمارة:

- على اختيار من الإمام وتشتمل على عمل محدود وتنظر معهود بأن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو أقليم ويوليه على جميع أهله ويجعل إليه النظر في المعهود من أعماله[1]، وتحدث الماوردي عن ذلك قائلاً: "والتقليد فيها أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله ونظرا في المعهود من سائر أعماله".[2]

- إمارة الاستيلاء وهي التي تنعقد على اضطرار بأن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها فيكون باستيلائه مستبدأ بالتدبير والسياسة والخليفة بإذنه في الأمور منفذا لأحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة[3]، يقول الماوردي: "وأما إمارة الاستيلاء التي تعقد عن اضطرار، فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها، فيكون الأمير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير".[4]

- الإمارة على القتال وهي تارة تكون مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب وتارة يفوض إليه جميع أحكامه من تدبير الجيش وسياسة الحرب وقسمة الغنائم وعقد الصلح وغير ذلك حتى لا يخرج عنه شيء من أمرها[5]، والإمارة على الجهاد مختصرة بقتال المشركين"[6]، "أن يفوض إلى الأمير فيها جميع أحكامها من قسم الغنائم وعقد الصلح"[7].

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص75.

[2] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص62.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص75.

[4] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص66.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص76.

[6] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص69.

[7] - نفســـه، ص69.

3- القضاء: وهو القيام بالأحكام الشرعية وتنفيذها على أوامر الشرع وقطع المنازعات[1]، يقول ابن خلدون: "أما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي و قطعاً للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب و السنة"[2]، أما الماوردي فيقول: "ولا يجوز أن يقلد القضاء إلا من تكاملت فيه شروطه التي يصح معها تقليده، وينفذ بها حكمه".[3]

4- ولاية المظالم: وهي الحكم بين المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة وهي ولاية دائرة بين سطوة الولاة وتثبت القضاة وهي في معنى حكم نائب السلطنة الآن بين الخصوم بأحكام السياسة[4]؛ يقول الماوردي: "ونظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة".[5]

5- النقابة على ذوى الأنساب: كنقابة الطالبيين ومن في معناهم على معنى نقابة الأشراف[6]؛ يقول الماوردي: "وهذه النقاب موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب، ولا يساويهم في الشرف؛ ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى".[7]

6- النظر على إقامة الصلوات الخمس والجمعة والصلوات المندوبة كالتراويح ونحوها: وقد كانت هذه الوظيفة في الزمن المتقدم وظيفة جليلة لا يليلها إلا جليل

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص77.
[2] - ابن خلدون، العبر، ص275.
[3] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص110.
[4] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص78.
[5] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص130.
[6] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص79.
[7] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص155.

القدر من أهل الديانة[1]، جاء في الأحكام السلطانية: "فأما الإمامة في الصلوات الخمس فنصب الإمام فيها معتبر بحال المساجد التي تقام فيها الصلوات، وهي ضربان: مساجد سلطانية ومساجد عامية".[2]

7- الإمارة على الحج: من تسيير الحجيج وتدبير أمرهم وإقامة الحج والقيام بمناسكه وأحكامه[3]، قال الماوردي: "هذه الولاية على الحج ضربان:أحدهما: أن تكون على تسيير الحجيج، والثاني: على إقامة الحج، فأما تسيير الحجيج فهو ولاية سياسة وزعامة وتدبير".[4]

8- جباية الصدقات: وهي الزكوات الواجبة في المواشي والنقود والزروع وتحصيلها من أربابها وحملها إلى بيت المال[5].

9- النظر في الحسبة: وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما في معنى ذلك مما ينخرط في هذا السلك[6]، قال الماوردي:" الحسبة: هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله"[7].

- ترتيب الخلافة:[8] ومنها:

- الْجُلُوس على سَرِير الْخَلَافَة فِي المواكب: "وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصل ذلك أن معاوية بن أبي سفيان لما بدن أستأذن أصحابه في أتخاذ شيء يجلس عليه

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص79.

[2] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص160.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص79.

[4] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص172.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص79.

[6] - نفســــــــه، ص79.

[7] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص349.

[8] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص224.

للأستراحه فأذنوا له في ذلك ثم زادوا في ارتفاعه حتى صار السرير الذي يجلس عليه الخليفة في المواكب نحو سبعه أذرع"[1]، يقول ابن خلدون: "وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي فهي أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن أهل مجلسه".[2]

– الصلاة في المقصورة في الجامع في الجمعة والعيدين: "وقد ذكر المؤرخون أن أول من اتخذ المقصورة في الجامع معاوية، وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم اتخذها من حجارة منقوشة فيها كوى مفتحة وقيل أول من اتخذها عثمان بن عفان رضي الله عنه خوفا أن يصيبه ما أصاب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه"[3]، يقول ابن خلدون: "وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ولم يعرف في غير دول الإسلام. فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه"[4]، ويعتبرها ابن خلدون من مظاهر الملك: "وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها".[5]

– ضرب النقود ونقش اسم الخليفة: أول من ضرب الدنانير والدراهم في الإسلام عبد الملك بن مروان في سنة خمس وسبعين من الهجرة وقيل سنة اربع وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ذلك الحجاج بن يوسف ثم ضربها في سائر النواحي في سنة ست وسبعين[6]، يقول ابن خلدون: "وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات".[7]

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص228.

[2] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص322.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص229.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص332.

[5] – نفســــــــه، ص332.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص230.

[7] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص322.

– نقش اسم الخليفة على ما ينسج من الكسوة والطرز من الحرير والذهب بلون يخالف للون الأصلي: ليمتاز بذلك ما يختص بالخلافة عن غيره وهو رسم قديم للخلفاء في الدولتين الأموية والعباسية[1]، يقول ابن خلدون: "من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم".[2]

– خطابة الخليفة بنفسه في مكان إقامته وخطابة الأمراء بالأعمال التي يلونها عن الخلفاء.[3]

– الدعاء للخليفة على المنابر: وقد ذكر القلقشندي: "أول خليفة دعى له على منبر أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه دعا له عبد الله بن عباس بالبصرة فقال اللهم انصر على الحق فتبعه الناس بعد ذلك في الدعاء للخلفاء على المنابر في سائر الاعمال"[4]، يقول ابن خلدون: " وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضى عن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها".[5]

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص229.

[2] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص329.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص231

[4] – نفســــــــه، ص231.

[5] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص332.

– انفراد الخليفة على الكتابة على ولايات الوظائف كالوزارة، والقضاء وسائر الولايات: ولم يزل ذلك مختصا بهم الى حين انقراض الخلافة من بغداد إلا ما يوليه الوزراء ومن في معناهم من صغار الولايات المفوضة اليهم[1].

– شعار الخلافة:[2] ومنها:

– الخاتم، اتخذ الخلفاء خواتم في كل خاتم نقش يخصه، لأن الملوك لا يقرؤون كتابا غير مختوم[3]، يقول ابن خلدون: "وأمّا الخاتم فهو من الخطط السّلطانيّة والوظائف الملوكيّة والختم على الرّسائل والصّكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده وقد ثبت في الصّحيحين أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أراد أن يكتب إلى قيصر فقيل له إنّ العجم لا يقبلون كتابا إلّا أن يكون مختوما فاتّخذ خاتما من فضّة ونقش فيه "محمّد رسول الله".[4]

– البُردة: وهب بردة النبي صلى الله عليه وسلم والتي كان الخليفة يلبسها في المواكب[5]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أهداها لكعب بن زهير يقول ابن أثير: "فلما كان زمن معاوية أرسل إلى كعب: أن بعنا بردة رسول الله. فقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله أحدا. فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم، وهي البردة التي عند الخلفاء الآن".[6]

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص232.

[2] – نفســــــــه، ص232.

[3] – نفســــــــه، ص232.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص326.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص233.

[6] – ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص 175.

– القضيب: وهو عمود كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذه بيده[1]، يقول الماوردي: "وأما القضيب: فهو من تركة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– التي هي صدقة، وقد صار مع البردة من شعار الخلافة".[2]

– ثياب الخلافة، اختصت كل خلافة بلون فالامويون بالخضرة والعباسيون السواد[3]، يقول ابن خلدون: "هي من أبّهة الملك والسّلطان".[4]

لقد كانت الخطة التي اختارها القلقشندي لكتابه "مآثر الانافة" مناسبة للمادة العلمية التي توفرت له فجاءت المعلومات منظمة ومبوبة بشكل خدم المعنى والهدف الذي أراده من خلال دراسة موضوع الخلافة.

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص234.

[2] – الأحكام السلطانية، ص258.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص235.

[4] – ابن خلدون، العبر، ج1، ص329.

الفصل الثالث

الكتابة التاريخية في مآثر الإنافة

1- الرواية التاريخية عند القلقشندي في كتاب مآثر الإنافة:

أ- أنواع الرواية التاريخية.

ب- طرق عرض الرواية التاريخية.

جـ- الاستشهاد بالقرآن والسنة.

2- النقل من المصادر في كتاب مآثر الإنافة::

أ- النقل من مختلف مصادر الكتاب:

- الأحكام السلطانية للماوردي

- العقد الفريد لابن عبد ربه

- المختصر في تاريخ البشر لأبي الفدا

ب- النقل من مؤلفات القلقشندي:

- صبح الأعش في صناعة الإنشا.

-نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.

3- منهج القلقشندي في تصنيفه للخلافة من خلال مآثر الإنافة.

أ- الخلافة المشروعة.

ب- الخلافة الباطلة.

4- النقد التاريخي في كتاب مآثر الإنافة:

أ- نقد الرواية التاريخية.

ب- نقد المصادر.

جـ- نقد الوثائق.

د- مميزات النقد عند القلقشندي

1- الرواية التاريخية عند القلقشندي في كتاب مآثر الإنافة:

أ- أنواع الرواية التاريخية:

عالج القلقشندي في كتابه "مآثر الإنافة" مادة تاريخية متنوعة تمتد عبر مراحل تاريخية متباعدة، منذ عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الخليفة "المعتضد بالله" الخليفة العباسي الحادي عشر في الديار المصرية"، والدليل ما يقوله أثناء تفصيل الكلام عن الخلفاء: "وهو أعز الله به جانب الدين قائم بأمر الخلافة ناهض بأعبائها **إلى الآن**"[1]، ويبدو من خلال كلمة "إلى الآن" أنه كان معاصراً له، واستعمل القلقشندي الدعاء لهذا الخليفة في أحيان كثيرة بإدامة الملك وطول العمر مثل قوله: "وسار من الديار المصرية وصحبته أمير المؤمنين المعتضد بالله **أدام الله أيامه** في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ثمان عشرة وثمان مائة"[2]، وقوله: "الديار المصرية والبلاد الشامية يومئذ بيد السلطان الملك المؤيد شيخ بعهد من أمير المؤمنين المعتضد بالله أبي الفتح داود **خليفة العصر**"[3]، وقد اتبع القلقشندي في جمع مادة "مآثر الإنافة" على أربع أنواع من المصادر:

أ- المشاهدة:

حيث عايش القلقشندي عدة أحداث، وكان شاهد عيان عليها، وخاصة في مرحلة الخليفة "المعتضد"؛ وما يزيد من أهمية المشاهدة المباشرة هو اطلاعه على الوثائق الإدارية

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 210.

[2] - نفســــــــه، ص 215.

[3] - نفســــــــه، ص 218.

الرسمية، من خلال المناصب التي تقلدها في تلك الفترة، فقد عمل في "ديوان الإنشاء"[1]، والمباشرة في ديوان الأحباس[2]، كما خدم نائب الإسكندرية "الصلاح ابن العوام" مدةً[3]، وناب عن قاضي القضاة الشافعي الجلال البلقيني[4]، وهذا ما أورده ابن حجر العسقلاني: "أحمد بن علي بن أحمد، القلقشندي نزيل القاهرة، تفقه وتمهر وتعانى الأدب، وكتب في الإنشاء وناب في الحكم"[5]، وإذا كانت كتب التراجم لا تقدم لنا الشيء الكثير عن الفترة التي أمضاها القلقشندي في ديوان الإنشاء فإن كتاب صبح الأعشى يزودنا ببعض المعلومات القيمة نستطيع من خلالها الاهتداء إلى ما نبحث عنه. ففي الجزء التاسع، يذكر القلقشندي أنه كتب رسالة تهنئة بكتابة السر الشريف بالديار المصرية في الدولة الظاهرية برقوق في سلطنته الأولى إلى المقرّ البدري محمود الكلستاني. والمعروف أن بدر الدين محمود الكلستاني تولى كتابة السرّ بعد أن شغرت بوفاة بدر الدين محمد بن فضل الله في شوال سنة 801 هـ/1400م[6]، يقول القلقشندي: قلت: وكتبت للمقرّ البدريّ محمود الكلستاني الشهير بالسّراي مهنّئا له باستقراره في كتابة السّرّ الشريف بالديار المصرية في الدولة الظاهرية في سلطنته الأولى :[7]

رفعت للمجـــد مذ ولّيت بنيانـا وشدت للفضل بعد الوهن أركانا

وأصبح الملك في زهو، ومالكـــه يميس عجبا، وهنّا التّخــت إيوانا

---

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص25

[2] – نفســـــــه، ص25

[3] – نفســـــــه، ص25

[4] – نفســـــــه، ص25

[5] – ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص 178.

[6] – القلقسندي صبح الأعشى، ج1، ص9.

[7] – القصيدة في البحر البسيط.

قدمت مصرا فأمست منك في فره تهزّ بالبشـــــــر من لقياك أردانا

وغودر النّيل مذ وافيت مبتهجـــا وقـد رمى الصّدّ والإبعاد جيحانا[1]

ويذكر أنه أنشأ رسالة في تقريض المقرّ الفتحي أبي المعالي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية في شهور سنة 814 هـ/ 1413م. وفتح الدين فتح الله هذا تولى رئاسة ديوان الإنشاء مرتين، انتهت الثانية في شوال سنة 815 هـ/ 1414م.[2]

ويذكر أيضاً أيضا أنه بعث بتهنئة بالصوم للمقرّ الأشرفي الناصري محمد بن البارزي، كاتب السر الشريف، في سنة 816هـ/1415م. ومحمد بن البارزي تولى كتابة السر في 13 شوال سنة 815 هـ/1416م[3]، قال القلقشندي: قلت: ومما كتبت به تهنئة بالصوم للمقرّ الأشرف الناصريّ محمد بن البارزيّ كاتب السرّ الشريف المؤيّديّ بالممالك الإسلامية، في سنة ستّ عشرة وثمانمائة:[4]

أيا كاتب السّرّ الشّريف ومن بـــــه تميس نواحي مصر تيها مع الشّام

ومن جلت الجلّى كتائب كتبـــــــه، ومن ناب عن وقع السّيوف بأقلام

تهنّ بهذا الصّـــوم والعيـــد بعـــده، ومن بعده بالعيد والعام فالعـــــام

وترقى رقيّ الشّمس في أوج سعدهـــا وتبقى بقاء الدّهر في فيض إنعـام[5]

وظل بها حتى وفاته في 8 شوال سنة 823هـ/ 1422م. [1]

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص24.

[2] – نفســـــــه، ص 10.

[3] – نفســـــــه ، ص10.

[4] – القصيدة في البحر الطويل.

[5] – القلقشندي، صبح الاعشى، ج9، ص44.

مما تقدم نستطيع أن نستنتج أن القلقشندي ظل قائما بالعمل في ديوان الإنشاء حتى نهاية سنة 816 هـ/1415م على اقل تقدير، وربما حتى تاريخ وفاته سنة 821 هـ/1420م، إذ ليس لدينا أي نص ينفي ذلك أو يؤيده.[2]

وقد نقل لنا القلقشندي بهذه الصفة عدة وثائق مهمة كان من بينها نسخة من بيعة الخليفة الذي عاصره: "وهذه نسخة بيعة الإمام الأعظم المعتضد بالله أبى الفتح خليفة العصر الموضوع له هذا الكتاب وصدرها من إنشاء علامة العصر وإمام أهل الأدب الشيخ تقى الدين بن حجة".[3]

وتزيد أهمية الكتاب في تخصيص جزء كامل من هذا الكتاب للخليفة المعتضد بالله الخليفة الموضوع له كتاب "مآثر الإنافة"، وقد قسم هذا الجزء إلى فصلين: الأول في ذكر نسبه، والثاني في ذكر طرف من مناقبه وأوصافه.[4]

ب- المشافهة:

وهي كل معلومات نقلت إليه مباشرة من طرف شاهد على حادثة ما: ويمثلها قوله: "وأخبرني من حضر تقليد الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق بعد وفاة والده الظاهر أن الخليفة حضر هو وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني والقضاة الأربعة وأهل العلم وأمراء الدولة على مقعد بالإسطبلات السلطانية، وجلس الخليفة في صدر المكان على مقعد مفروش له، ثم أتى السلطان وهو يومئذ حدث

[1] - القلقشندي، صبح الاعشى، ج9، ص 10.

[2] - نفســــــه، ج1، ص 10.

[3] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 316.

[4] - نفســــــه، ص 375.

السن، فجلس بين يديهن فسأله شيخ الإسلام عن بلوغه الحلم فأجاب بأن نعم، فخطب الخليفة خطبة، ثم خاطب السلطان بتفويض الامر إليه، ثم أُتيَ الخليفة بخلعة سوداء وعمامة سوداء مرقومة الطرف بالبياض فألبسهما للسلطان، ولبس الخليفة أيضا خلعة سوداء بعمامة سوداء مرقومة، ثم جلس الخليفة في مكانه الذي كان جالسا فيه على المقعد، ونُصب للسلطان كرسي إلى جانب المقعد الذي عليه الخليفة فجلس عليه، وجلس، الامراء والقضاة حوله على قدر منازلهم"[1].

ب- طرق عرض الرواية التاريخية:

1- عرض المادة بالتصرف فيها وصياغتها حسب ما تقتضيه الضرورة:

والمثال على ذلك ما أورده عن الماوردي: "ولا خلاف بين أهل العلم أنها فرض كفاية كالجهاد ونحوه، إذا قام بها من هو أهل لها سقط فرضها عن كافة الناس، وإن لم يقم بها أحد من أثم من الناس فريقان، أحدهما أهل الحل والعقد حتى يختاروا للأمة إماماً، يقوم بأمرهم، وبالتالي أهل الإمام حتى ينتصب الإمامة أحدهما"[2].

ثم يضيف: ولا إثم ولا حرج على عدا هذين الفريقين من سائر الأمة في تأخير إقامة الإمامة"[3].

ويقابله عند الماوردي قوله: "فإذا ثبت وجود الإمامة ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط، ففرضها على الكفاية، وإن لم

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 244.

[2] - نفســــــــه، ج1، ص31.

[3] - نفســــــــه، ج1، ص31.

يقم بها أحد خرج من الناس فريقان: أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمة، والثاني أهل الإمامة حتى ينصب أحدهم للإمامة. وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الإمامة حرج ولا مأثم، وإذا تميز هذان الفريقان من الأمة وجب كل فريق منهما بالشروط المعتبرة فيه"[1].

وهكذا تظهر المقابلة بين النصين عمد مؤرخينا على التصرف في النسق التعبيري المصاحب لمنقوله عن المصدر، وإن أبقى على النسق الترتيبي المصاحب له[2].

2- النقل الحرفي لما ورد في المصادر:

ومثاله ما أورده منقولا عن كتاب أبي الفدا في كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، في حديثه عن الناصر لدين الله العباسي: "قال السلطان عماد الدين صاحب حماه في تاريخه: كان قبيح السيرة في رعيته، ظالما لهم، خرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وكان يتشيع، وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب، وإلباس سراويلات الفتوة، ومنع رمي البندق إلا أن ينتسب إليه فأجابه الناس إلى ذلك"[3].

ويقابله لدى أبي الفدا قوله في المختصر: "وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً لهم، خرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وكان يتشيع، وكان منصرف الهمة إلى رمي

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص122.

[2] - نفســــــــه، ص122.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص31.

البندق، والطيور المناسيب، ويلبس سراويلات الفتوة، ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك"[1].

وأحيانا يشير إلى الموضوع لكنه لا ينقل النص مع ذكر السبب كقوله: "وعلى ذلك كانت كتب الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان وولده الإمام المستعين بالله في أول ولايته ولم يكن فيه من المكاتبات الجليلة ما يدون فأذكره".[2]

وأحيانا كان ينقل الفكرة بنفس صياغتها في الأصل، فقد جاء في مآثر الإنافة: "وعقدها لمن يقوم واجب بالإجماع وإن شذ عنه الأصم"[3]، وما يقابله في الأحكام السلطانية ما نصه: "وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم"[4]، لكن القلقشندي يشرح هذا الرأي أكثر بقوله: "يعني حيث لم يقل بوجوب ذلك مشيرا بذلك إلى أنه لو ندر المخالف مع كثرة المجمعين لم تنقطع حجية الإجماع كما هو الراجح في كتب أصول الفقه".[5]

جـ- الاستشهاد بالقرآن والسنة:

لم يقتصر استشهاد القلقشندي في كتابه بالاستشهاد بالكتاب والسنة بل تعداه إلى الموازنة بين كتب علوم القرآن وعلوم الحديث، وقد استعمل مادته كالتالي:

---

[1] - محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص122.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص274.

[3] - نفســــــــه، ص29.

[4] - الماوردي، الأحكام السلطانية، 15.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص29.

1- القرآن الكريم:

استشهد القلقشندي بالقرآن الكريم في مواضع عديدة من كتابه، وتعدى ذلك إلى العودة إلى كتب التفسير وموازنة مختلف الآراء والأفكار.

فعند تعريفه للخلافة يستند إلى ثلاثة آيات قرآنية، ثم يعرض رأي المفسرين في ذلك بقوله: "أن الخلافة تكون عن الله تعالى فيقال في الخليفة خليفة الله لقيامه بحقوقه تعالى في خلقه احتجاجا بقوله تعالى ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾[1]، وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك، نسبوا قائله إلى التجوز محتجين بأنه إنما يستخلف من يغيب أو يموت وذكر الشيخ محي الدين النووي رحمه الله في كتابه الأذكار نحوه، وقال ينبغي أن لا يقال للقائم بأمر المسلمين خليفة الله، ويؤيد ذلك ما حكي أنه قيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه يا خليفة الله فقال لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عنه وسلم. وأجاز البغوى ذلك في حق آدم وداود عليهما السلام دون غيرهما محتجا بقوله تعالى في حق آدم ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[2]، وبقوله في حق داود ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾[3]، قال ولا يسمى أحد خليفة الله بعدهما وأجاز الزمخشري في تفسيره ذلك في سائر الأنبياء عليهم السلام.[4]

[1] - سورة الانعام، الآية 165.

[2] - البقرة، الآية 30.

[3] - سورة ص، الآية 26.

[4] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص16.

2- السنة:

أما فيما يخص الاستشهاد بالسنة النبوية فقد استعمل القلقشندي نفس الطريقة التي استعملها مع القرآن الكريم، فكان كل مرة يستشهد بأحاديث نبوية من الصحاح أو من باقي كتب الحديث، فقد طرح رأياً شرعيا ودعمه بحديث وحدث تاريخي، ثم عرض رأياً آخر ودعمه بحديث آخر. كقوله: "ففي الصحيحين من رواية ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقى منهم اثنان، وقد احتج الصديق رضى الله عنه على الأنصار يوم السقيفة حين اجتمعوا على سعد بن عبادة وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقول النبي صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش فرجعوا إليه في ذلك وأذعنوا لقوله وقد ادعى الماوردى الإجماع على اعتبار هذا الشرط مع ورود النص به ثم قال ولا عبرة بضرار حين شذ فجوزها في جميع الناس قال الرافعي من أئمة أصحابنا الشافعية فإن لم يوجد قرشى مستجمع للشروط فكنانى فإن لم يوجد كنانى فرجل من ولد إسماعيل عليه السلام فإن لم يكن فيهم رجل مستجمع للشرائط ففي تهذيب البغوى أنه يولى رجل من العجم وفى التتمة للمتولى أنه يولى جرهمي قلت وجرهم أصل العرب المسعربة الذين هم ولد إسماعيل عليه السلام".[1]

وقد كان اعتماد القلقشندي على صحيح البخاري كثيراً بغرض تقوية رأيه كقوله في الحديث عن عدم ترك الخليفة المتوفي لوصية ولاية العهد لرجل بعينه ودعوته للتشاور في اختيار الخليفة: "والأصل في ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من رواية عمرو بن ميمون الأودى أنه لما طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قيل له أوص يا أمير المؤمنين

[1] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص39.

استخلف قال ما أرى أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء الرهط الذين توفى رسول الله صلى اله عليه وسلم وهو عنهم راض فعد عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن".[1]

ويعود من جديد إلى صحيح البخاري في الاستدلال على استخلاف أكثر من شخص على الترتيب حيث قال: "ثبت في صحيح البخارى من رواية ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر على جيش مؤتة زيد بن حارثة وقال إن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة وفي رواية فإن قتل فليرتض المسلمون رجلا فتقدم زيد فقتل فأخذ الراية جعفر وتقدم فقتل فأخذ الرايه الله بن رواحة وتقدم فقتل فاختار المسلمون بعده خالد بن الوليد[2]. وقد أردف برأي الماوردي في هذا المجال ليبين القياس بين إمارة الحرب والخلافة قائلاً: " وإذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في الإمارة جاز مثله في الخلافة"[3]. ويبدو أن القلقشندي لم ينقل حرفيا ما رأي الماوردي بل عاد إلى صحيح البخاري من أجل التحقق من الحديث بدليل أن الماوردي لم يذكر صحيح البخاري.

وكان لصحيح مسلم أيضا حظ من الاستشهاد ففي حديثه عن ظهور خليفتين وما يترتب على ذلك احتج بما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما.[4]

وقد اعتمد القلقشندي على عدة كتب للحديث والسنة في الكثير من المواضع، وكان أهمها:

---

[1] – نفســــــــه، ص52.

[2] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص55.

[3] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص36؛ القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص55.

[4] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص45.

– كتاب السيرة لابن اسحاق: هذا ما ذكره **ابن إسحاق في سيرته**.[1]

– كتاب التعريف في المصطلح الشريف: ورسمه على ما ذكره المقر الشهابي بن فضل الله في **كتابه التعريف بالمصطلح الشريف** أن يقال أدام الله أيام الديوان العزير المولوي السيدي الإمامي الفلاني[2].

وفي موضع آخر: "فقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في **كتابه التعريف** أنه يكتب إلى ولي العهد بالخلافة ما صورته".[3]

– كتاب النهاية في غريب الحديث: "ومنها البردة وهي بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان الخليفة يلبسها في المواكب قال أبو السعادات بن الأثير في نهايته **في غريب الحديث** وهي شملة مخططة وقيل كساء أسود"[4].

– كتاب مسند البزار: ووقع في **مسند البزار** أن أوله اعلم أن القضاء فريضة محكمة مع تغيير بعض الألفاظ وتقديم بعض وتأخير بعض.[5]

–كتاب الأذكار النووي: "وذكر الشيخ محي الدين النووى رحمه الله في كتابه **الأذكار** نحوه وقال ينبغي أن لا يقال للقائم بأمر المسلمين خليفة الله"[6].

وفي موضع آخر: "وقد قال النووى في **الأذكار** والأدب أن يخاطب أهل الفضل ومن قاربهم بالكنية وكذلك إن كتب إلى أحد منهم رسالة أو روى عنه رواية"[1].

---

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص376.

[2] – نفســــــه، ص322.

[3] – نفســــــه، ص332.

[4] – نفســــــه،ج2، ص233.

[5] – نفســــــه، ص182.

[6] – نفســــــه، ص15.

2 – منهج النقل من المصادر في كتاب مآثر الإنافة:

اعتمد القلقشندي على أهم الكتب التي سبقته في التطرق إلى المواضيع التي تضمنها كتابه مآثر الإنافة في معالم الخلافة سواء كان هذه المادة فقهية تاريخية. وقد كان تعامله مع المادة الاصلية متنوعا وخادما لهذه المادة، ونحن في هذا المقام، نقارن المادة التاريخية التي وردت في كتاب مآثر الإنافة وأصلها في الصادر ونصنف المصادر كتاب "مآثر الإنافة" إلى صنفين:

أ– النقل من مختلف مصادر الكتاب:

1– كتاب الأحكام السلطانية للماوردي:

1– جاء في مآثر الإنافة: فلو جمع شروط الإمامة اثنان فأكثر قال الماوردي استحب لأهل الحل والعقد أن يعقدوها لأسنهما.[2]

– ما يقابله في الأحكام السلطانية: فلو تكافأ في شروط الإمامة اثنان قدم لها اختيارا أسنهما.[3]

نلاحظ في نص القلقشندي الصياغة الشخصية لفكرة مع ذكر مصدرها.

2– جاء في مآثر الإنافة: فإن عقودها للآخر جاز.[4]

– ما يقابله في الأحكام السلطانية: وإن لم تكن زيادة السن مع كمال البلوغ شرطا، فإن بويع أصغرهما سنا جاز.[5]

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص18.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص41.

[3] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص41.

[5] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

الصياغة في الحالة الثانية مختلفة والفكرة واحدة واشتملت على حكم فقهي بجواز اسنادها إلى الأقل سنا.

3- جاء في مآثر الإنافة: فإن كان أحدهما أعلم والآخر أشجع روعي في الاختيار ما يوجبه حكم الوقت. [1]

- ما يقابله في الأحكام السلطانية: ولو كان أحدهما أعلم والآخر أشجع روعي في الاختيار ما يوجبه حكم الوقت.[2]

ويلاحظ في هذه الحالة النقل الحرفي من المصدر:

4- جاء في مآثر الإنافة: فإن دعت الحاجة إلى رعاية الشجاعة كظهور البغاة وأهل الفساد كان الأشجع أحق.[3]

- ما يقابله في الأحكام السلطانية: فإن كانت الحاجة إلى فضل الشجاعة أدعى لانتشار الثغور وظهور البغاة كان الأشجع أحق.[4]

5- جاء في مآثر الإنافة: وإن دعت إلى زيادة العلم كسكون الفتن وظهور البدع كان الأعلم أحق.[5]

- ما يقابله في الأحكام السلطانية: وإن كانت الحاجة إلى فضل العلم أدعى لسكون الدهماء وظهور أهل البدع كان الأعلم أحق.[6]

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص41.

[2] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص41.

[4] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص41.

[6] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

وفي النقطتين الرابعة والخامسة يتبنى القلقشندي فكرة الماوردي في حديثه عن تقديم الشجاعة والعقل وما يدعو على ذلك من ظروف مختلفة.

6- جاء في مآثر الإنافة: ولو تنازع اثنان مستجمعان للأهلية في الإمامة.[1]

- ما يقابله في الأحكام السلطانية: فإن وقف الاختيار على واحد من اثنين فتنازعاها مع تكافؤ أحوالهما.[2]

7- جاء في مآثر الإنافة: فقد ذهب بعض العلماء إلى أن ذلك يقدح فيهما جميعا حتى يعدل عنهما إلى غيرهما والذي عليه الجمهور أن ذلك لا يقدح لأن طلب الخلافة ليس مكروها وهل يقرع بينهما عند التساوي أو يقدم أهل الحل والعقد من شاءوا منهما فيه خلاف.[3]

- ما يقابله في الأحكام السلطانية: فقد قال بعض الفقهاء: إن التنازع فيها لا يكون قدحا مانعا. وليس طلب الإمامة مكروها، فقد تنازع فيها أهل الشورى، فما رد عنها طالب، ولا منع منها راغب.[4]

وفي نهاية الاستشهاد يبدأ الاختلاف الجوهري في الظهور، فالقلقشندي يذكر رأيين في القضية، أحدهما أن تنزع منهما الاثنان وتسند لآخر، أما الرأي الثاني فمفاده ان القضية تحال على أهل الحل والعقد ليختاروا أحدهما، أما الماوردي فلا يقدم رأيا نهائيا في كيفية التصرف.

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص42.

[2] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص42.

[4] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

وينهي القلقشندي الاستشهاد بينما يكمل الماوردي التفصيل في القضية بقوله: واختلف الفقهاء فيما يقطع به تنازعهما مع تكافؤ أحوالهما، فقالت طائفة: يقرع بينهما ويقدم من قرع منهما، وقال آخرون: بل يكون أهل الاختيار بالخيار في بيعة أيهما شاءوا من غير قرعة، فلو تعين لأهل الاختيار واحد هو أفضل الجماعة فبايعوه على الإمامة، وحدث بعده من هو أفضل منه انعقدت ببيعتهم إمامة الأول، ولم يجز العدول عنه إلى من هو أفضل منه.[1]

وفي الفقرة الأخيرة يستدرك الماوردي ما تقدم إلى ذكره القلقشندي، لكن بتفصيل أكبر.

ويبدو أن القلقشندي تدرج في استعماله للمادة المنقولة من كتاب الأحكام السلطانية على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الصياغة الشخصية مع ذكر المصدر.

المرحلة الثانية: التزام النقل الحرفي من المصدر.

المرحلة الثالث: ابراز الرأي الشخصي بصيغة مختلفة عن المصدر رغم أن المضمون واحد.

2- كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه:

وفي هذه المناسبة نقارن بين أسلوب القلقشندي وطريقته في نقل المادة العلمية، ونستعمل لذلك كتاب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء:

[1] - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص26.

1- جاء في مآثر الإنافة: فافهم إذا أدلى إليك، وانفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع، تكلم بحق لا نفاذ له.[1]

- ما يقابله في العقد الفريد:: فافهم إذا أدلى إليك الخصم.[2]

المعنى واحد لكن الصياغة زيد فيها دون إخلال بالمعنى.

2- جاء في مآثر الإنافة: آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك. [3]

- ما يقابله في العقد الفريد: آس بين الناس في مجلسك ووجهك.[4]

نفس المعنى تقريبا مع اللفظ المتقارب.

3- جاء في مآثر الإنافة: حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عونك. [5]

- ما يقابله في العقد الفريد: حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك.[6]

في نهاية الجملة التركيب مختلف لكن المعنى واحد: "ولا ييأس ضعيف من عونك"[7]، "ولا يخاف ضعيف من جورك"[8].

4- جاء في مآثر الإنافة: البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر. [1]

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[2] - ابن عبد ريه، العقد الفريد، ج1، ص79.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[4] - ابن عبد ريه، العقد الفريد، ج1، ص79.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[6] - ابن عبد ريه، العقد الفريد، ج1، ص79.

[7] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[8] - ابن عبد ريه، العقد الفريد، ج1، ص79.

– ما يقابله في العقد الفريد: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.[2]

العبارتان متطابقتان.

5– جاء في مآثر الإنافة: والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحلّ حراما أو حرّم حلالا. [3]

– ما يقابله في العقد الفريد: والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا.[4]

العبارتان متطابقتان.

6– جاء في مآثر الإنافة: لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه اليوم عقلك، أن ترجع إلى الحق. [5]

– ما يقابله في العقد الفريد: ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس. ثم راجعت فيه نفسك، أن ترجع عنه ثم راجعت فيه نفسك، أن ترجع عنه.[6]

العبارتان متطابقتان.

7– جاء في مآثر الإنافة: فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. [7]

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[2] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص79.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[4] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[6] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[7] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

– ما يقابله في العقد الفريد: فإن الحق قديم والرجوع إليه خير من التمادي على الباطل. [1]

العبارتان متطابقتان.

8– جاء في مآثر الإنافة: الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. [2]

– ما يقابله في العقد الفريد: الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلّى الله عليه وسلّم.[3]

الجملتان متطابقتان مع إضافة الصلاة على النبي عند ابن عبد ربه.

9– جاء في مآثر الإنافة: ثم أعرف الأشياء والأمثال وقس الأمور عند ذلك بنظائرها، واعتمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق. [4]

– ما يقابله في العقد الفريد: واعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور عند ذلك ثم اِعمد إلى أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق.[5]

تطابق كامل في المعنى واللفظ.

10– جاء في مآثر الإنافة: واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه.[6]

---

[1] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[3] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[5] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

– ما يقابله في العقد الفريد: واجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه.[1]

في عبارة ابن عبد ربه يوضح النتيجة المترتبة على الأمد الممنوح للمدعي، أما في عبارة القلقشندي فتفهم من ثنايا الكلام.

11– جاء في مآثر الإنافة: وإلا استحللت القضية عليه، فإنه انفى للشك وأجلى للعمى.[2]

– ما يقابله في العقد الفريد: وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ في العذر.[3]

كلا العبارتان متطابقتان في المعنى ومع اختلاف طفيف في اللفظ.

12– جاء في مآثر الإنافة: المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا حدا أو مجربا عليه شهادة زور.[4]

– ما يقابله في العقد الفريد: والمسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلودا في حدّ، أو مجرّبا عليه شهادة زور.[5]

تطابق في المعنى واللفظ.

13– جاء في مآثر الإنافة: ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله يتولى السرائر وبدراً بالبينات والايمان.[1]

---

[1] – ابن عبد ريه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[3] – ابن عبد ريه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[5] – ابن عبد ريه، العقد الفريد، ج1، ص80.

– ما يقابله في العقد الفريد: أو ظنيناً في ولاء أو قرابة أو نسب، فإن الله عز وجل يتولى السرائر، ودرأ عنكم بالبينات والإيمان.[2]

تطابق في المعنى واللفظ.

14– جاء في مآثر الإنافة: إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن عليه الذخر والجزاء فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس.[3]

– ما يقابله في العقد الفريد: ثم إياك والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يوجب الله عز وجل بها الأجر ويحسن بها الذخر، فإنه من تخلص نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين.[4]

اختلاف ملحوظ في العبارتين لكن هذا الاختلاف لم يؤثر في المعنى فالفكرة العامة للعبارة واضحة.

15– جاء في مآثر الإنافة: ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام.[5]

– ما يقابله في العقد الفريد: ومن تزيّن للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره.[6]

---

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص182.

[2] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص183.

[4] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص183.

[6] – ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

إختلاف في نتيجة ابداء ما يخفي الانسان، فالقلقشندي قال: " شانه الله فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام"[1]، أما عبد ربه فيختصر أكثر بقوله: " هتك الله ستره".[2]

ويلاحظ التشابه الكبير بين ما نقله القلقشندي في وما جاء في كتاب العقد الفريد، والسبب في ذلك أن الأمر يتعلق بكتاب رسمي بعثه الخليفة على من ولاه القضاء.

4- كتاب المختصر في تاريخ البشر لابي الفدا:

وفي النص الذي نقله القلقشندي من كتاب "المختصر في تاريخ البشر" لأبي الفدا صاحب حماة يتحدث عن الخليفة الرابع والثلاثون من خلفاء بني العباس بالعراق وهو الإمام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بالله.

1- جاء في مآثر الإنافة: كان قبيح السيرة في رعيته ظالما لهم.[3]

- ما يقابله في المختصر في تاريخ البشر: وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً لهم.[4]

التطابق والتشابه في اللفظ والمعنى.

2- جاء في مآثر الإنافة: خرب في أيامه العراق وتغرب أهله في البلاد. [5]

- ما يقابله في المختصر في تاريخ البشر: خرب في أيامه العراق، تفرق أهله في البلاد.[6]

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص183.

[2] - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص80.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص56.

[4] - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص56.

[6] - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

التطابق في اللفظ والمعنى.

3- جاء في مآثر الإنافة: وكان يتشيع. [1]

- ما يقابله في المختصر في تاريخ البشر: وكان يتشيع.[2]

تطابق في اللفظ والمعنى.

4- جاء في مآثر الإنافة: وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب وإلباس سراويلات الفتوة ومنع رمي البندق إلا أن ينسب إليه فأجابه الناس إلى ذلك إلا شخص واحد فإنه هرب من بغداد ولم يجب إلى ذلك.[3]

- ما يقابله في المختصر في تاريخ البشر: وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب، ويلبس سراويلات الفتوة، ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا إنساناً واحداً يقال له ابن السفت وهرب من بغداد إلى الشام.[4]

تطابق في المعنى غير أن أبي فصل وذكر اسم الشخص المعني بالحادثة غير أن القلقشندي ذكر الواقعة دون الاسم.

5- جاء في مآثر الإنافة: وكان من أمره أنه عمي في آخر عمره.[5]

- ما يقابله في المختصر في تاريخ البشر: وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد.[6]

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص56.

[2] - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص56.

[4] - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

[5] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص56.

[6] - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

ويتضح من خلال النماذج المذكورة سابقاً للمصادر التي اعتمدها القلقشندي في مآثر الإنافة أن القلقشندي لا يعدو أن مادة أولية يعتمد عليها في دراسة وتوثيق ما يريد أن يصل إليه، وعدم التزامه بطابقة المادة المنقولة كما هي في المصدر واعتماده على التصرف فيها حتى وإن ذكر مصدرها.

ب– النقل من مؤلفات القلقشندي السابقة:

– صبح الأعشى في صناعة الإنشا:

– الهدف من تأليف كل كتاب: أراد القلقشندي من خلال تأليفه لـ"صبح الأعشى" أن يكون مدونة تعين كتاب الانشاء على صنعته المنوطة به، فجعل منه موسوعة احتوت على العديد من فروع المعرفة المتداولة في عصره[1]، ومن خلال عنوان الكتاب نفهم أنه موجه إلى عينة خاصة من الناس وهو "كاتب الإنشاء"، الذي يزاول وظيفة محددة، وهي وظيفة "كتابة الإنشاء" ؛ وهو يريد أن يزوّده بجميع مستلزمات قيامه بهممته الديوانية على أكمل وجه. إذن فالهمّ الأساسي لدى القلقشندي في كتابه هو "كتابة الإنشاء" كوظيفة في الدواوين السلطانية، وليس "صناعة الإنشاء" كموهبة أو مقدرة تتوفر لدى الأديب أو أي شخص آخر خارج "الديوان" ؛ فالكتابة هنا لا تعني التأليف بالمطلق وامتلاك أدواته، حتى يصح لدينا استبدال لفظها بلفظ "صناعة"، وإنما إضافتها إلى الإنشاء هي تماما كإضافة "الديوان" إلى "الإنشاء" في قولنا: "ديوان الإنشاء".[2]

وقد كان تأليف القلقشندي لكتابه "مآثر الإنافة" بعد تأليفه لكتاب "صبح الأعشى" وكان من الطبيعي أن يعتمد عليه في الكثير من المواضيع، ويحيل عليه في مواضع

[1] – محمد كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص134.

[2] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص11.

أخرى. ويوجد الكثير من التقاطعات في موضوعات الكتابي، وتعتبر نصوص الإتفاقيات وولاية العهد والمراسلات الدبلوماسية بعض الأمور التي إحتاج القلقشندي أن يعود إليها ويعيد استعمالها في "مآثر الإنافة بعد أن استعملها في صبح الأعشى.

وقد ذكر القلقشدي كتابه "صبح الأعشى" ثلاث مرات في كتابه "مآثر الإنافة" أربه مرات، وقد جاءت كالتالي:

1- الحالة الأولى: "ودمشق بيد القرامطة من حين اقتلعوها من نواب هارون إلى أن قتل في سنة ثلاث وتسعين ومائتين، فوليها عن المكتفى شيبان بن أحمد بن طولون في سنة اثنتين وتسعين ومائتين ثم بعث المكتفى محمد بن سليمان الواثقى الكاتب فاستولى على مصر وانتزعها من بنى طولون وخرب منازلهم وأزال ملكهم عنها وكتب المكتفى كتابا بالفتح إلى سائر الأقطار قد ذكرته برمته على طوله في كتابى **صبح الأعشى في كتابه الإنشا** وبقيت بيد محمد بن سليمان الكاتب إلى أن ولى عليها المكتفى عيسى بن محمد النوشرى في سنة خمس وتسعين ومائتين ثم تغلب عليها محمد بن علي ثم عاد إليها النوشرى وكان قد تغلب على دمشق القرامطة على ما تقدم ذكره فانتزعها منهم في سنة إحدى وتسعين ومائتين وأقام عليها وعلى حلب أحمد بن كيغلغ أميرا فبقى فيها إلى ما بعد خلافة المكتفى".[1]

2- الحالة الثالثة: " قلت وقد عاب الوزير ضياء الدين بن الأثير هذا التقليد في كتابه المثل السائر وغض منه وعارضه بتقليد أنشأه وقد ذكرته في كتاب **صبح الأعشى في كتابة الإنشا** لاتساعه وبسط القول فيه".[2]

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص272.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص98.

3- الحالة الثالثة: إلى آخر ما أتى به منه وهو عهد طويل جدا ضربت عن ذكره لإطالته وقد ذكرته بجملته في كتابي **صبح الأعشى في كتابة الإنشا** وعلى ذلك كانت عهود الوزراء من خلفاء بني العباس في العراق.[1]

4- الحالة الرابعة: " وعلى نحو من ذلك كتب إليه صلى الله عليه وسلم النجاشي ملك الحبشة والمقوقس صاحب مصر أيضا في رواية ذكرها ابن عبد الحكم وقد ذكرت كتابيهما في **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**".[2]

ومن الطبيعي أن تتداخل مادتي الكتابين مع تداخل مواضيعهما، رغم أن كتاب "مآثر الإنافة" لا يقارن مع مادة كتاب "صبح الاعشى" من حيث الغنى والوفرة.

أما موضوعات "مآثر الإنافة" التي انتقاها القلقشندي من "صبح الأعشى" فهي كثيرة ويمكن أن نشير في هذا المقام إلى مجموعة من النصوص:

- ففي "مآثر الإنافة" في الفصل الثاني من الباب الثاني في مقرات الخلفاء وما انطوت عليه الخلافة من الممالك وبيان ترتيب الخلافة وشعارها وكيفية تقليد الخليفة لملوك السلطنة[3]، كان الاعتماد كبيراً على ما جاء في صبح الأعشى وفي الباب الثاني من المقالة الثانية في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء، ومقرّاتهم في القديم والحديث[4].

- وعند الحديث عن البيعات اعتمد القلقشندي على صبح الأعشى[5] بشكل كبير في جمع مادة كتاب "مآثر الإنافة"[1].

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص183.

[2] - نفســــــــه، ص279.

[3] - نفســــــــه، ص221.

[4] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص263.

[5] - نفســــــــه، ج9، 281، 362.

– أما في الباب الرابع من مآثر الإنافة فقد تحدث القلقشندي فيما كان يكتب عن الخلفاء من ولايات ملوك الأقاليم وأمرائها وولايات الوزراء والقضاة والولاية على الصلوات ونقابة ذوي الأنساب وغير ذلك من سائر الولايات الدينية والديوانية وما يكتب عنهم الآن[2]، أما في "صبح الأعشى" فقد عنون القلقشندي الباب الرابع ب "في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام".[3]

– أما الباب الخامس من "مآثر الإنافة" فخصصه لمن كان يكتب عن الخلفاء من الإقطاعات وتحويل السنين وإلزام أهل الذمة الشرائط اللازمة لهم[4]، أما ما يقابله في صبح الأعشى في صورة ما يكتب في تحويل السنين.[5]

– وعند الحديث عن الكتب الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد بالخلافة والكتب الصادرة إلى الخلفاء وولاة العهد من الملوك ونحوهم[6]، انتقى مادته من صبح الاعشى أيضاً، ونجد ذلك واضحا في أصول المكاتبات[7]، وتتمته في المجلد السابع.[8]

وإذا كان القلقشندي قد توسع في نقل مادته العلمية لكتابه صبح الاعشى إلى كتابه مآثر الإنافة فنجد بأنه في مراحل أخرى يحدث العكس، فقد وردت بعض الموضوعات في صبح الأعشى مقتضبة وغير مستوفاة العناصر، بينما أتت في مآثر الإنافة مبسوطة

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، 221.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص1.

[3] – القلقشندي، صبح الاعشى، ج10، ص195.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص210.

[5] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص67.

[6] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص236.

[7] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص263.

[8] – نفســــــــه، ج7، ص3.

ومسهبة، خاصة في المقدمة والباب الأول، فكان جل اعتماد القلقشندي فيها على الأحكام السلطانية[1].

وقد جاءت مادة الفصل الثالث من مآثر الإنافة من الباب الثاني الذي تحدث فيه القلقشندي عن المشاهير ممن ادعى الخلافة في بعض الأقاليم، والتدليل على بطلان شبهة دعاويهم، والباب السابع وقد أحصيت فيه جملة من الأوائل المنسوبة إلى الخلفاء، والملح والأعاجيب المتعلقة بهم، لا غنى لأي منهما عن الآخر فيها، حيث انفرد صبح الأعشى في أولهما بالتوسعة في الترجمات قياساً بما جاء في مآثر الإنافة، بينما انفرد مآثر الإنافة بالتأريخ لنشأة الدول: الأموية (في الأندلس)، والفاطمية في المغرب ومصر، والحفصية في المغرب، مع التدليل على بطلان دعوى القائمين بالخلافة، وفي ثانيهما توسعة في ذكر الأوائل والملح والأعاجيب تتضمنها مادة صبح الأعشى، لعدم اقتصارها على الخلفاء وحدهم، على حين تأتي التوسعة في مآثر الإنافة فيما نسب إلى الخلفاء وحدهم، على حين تأتي التوسعة في مآثر الإنافة فيما نسب إلى الخلفاء إهمالاً لغيرهم، مما يجعل كلاً منهما متمماً للآخر في موضوعه.[2]

أما الخاتمة، فقد ترجم فيها لخليفة وقته "المعتضد بالله داود"، ممتدحاً وداعياً له، فهي من الموضوعات التي تنفرد بها مؤرخنا في "مآثر الإنافة".[3]

فضلاً عن ذلك فإن مادة كتاب "مآثر الإنافة" قد تعيننا على التعرف عن بعض المصادر المسكوت عنها في صبح الاعشى، ومنها التصريح في "مآثر الإنافة" بنقل القلقشندي عن "تاريخ البوري" لنسخة العهد الصادرة عن ديوان الخلافة –في بغداد– للعادل أبي بكر بن

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص135.

[2] – نفســــــه، ص135.

[3] – نفســــــه، ص135.

أيوب، بينما أُثبتت صيغة هذا العهد في "صبح الأعشى"، دون إفصاح عن مصدره فيها[1]، حيث جاء في صبح الاعشى: "وهذه نسخة العهد المكتوب به من ديوان الخلافة ببغداد على هذه الطريقة، للعادل أبي بكر بن أيّوب أخي السلطان صلاح الدين "يوسف بن أيوب" الحمد لله الذي اطمأنت القلوب بذكره"[2]، أما في مآثر الإنافة: " الحمد لله الذي اطمأنت القلوب بذكره ووجب على الخلائق جزيل حمده وشكره ووسعت كل شيء رحمته وظهرت في كل أمر حكمته ودل على وحدانيته...".[3]

وأهم شيء يمكن استنتاجه من خلال المقارنة بين أهم كتابين للقلقشندي، هو التكامل بين مادة الكتابين، والتحكم في التوسيع والاقتضاب بين المصدرين.

– نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب:

يذكر القلقشندي كتابه نهاية الأرب في كتابه مآثر الإنافة مرة واحدة فقط، عندما تحدث عن نسب قبيلة جرهم الأولى: " قلت وجرهم أصل العرب المسعربة الذين هم ولد إسماعيل عليه السلام وهم الذين نزلوا على إسماعيل وأمه بمكة حين أنزلهما بها الخليل عليه السلام فنشأ إسماعيل بينهم وتعلم لغتهم وتزوج منهم وهم بنو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وقد أوضحت الكلام على ذلك مبسوطا في كتابي نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب".[4]

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص136.

[2] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص102.

[3] – القلقشندي مآثر الإنافة، ج3، ص100.

[4] – نفســــــــه، ص39.

لكن ذكره لكتابه في الأنساب مرة واحدة فقط كما أسلفنا لم يمنع من استعمال مادته في كثير من المواضع وهذا ما يبينه تشابه مادتي الكتابين، إذْ استعمل القلقشندي الأنساب في كثير من المادة في هذا المجال.

ومن بين ما تكرر استعماله من الأنساب بين كتابي "مآثر الإنافة" و"نهاية الأرب"، نسب الحفصيين حكام أفريقية، فقد جاء في نهاية الأرب: "وممن ينسب الى عمر أيضاً الحفصيون ملوك الموحدين بافريقية من بلاد المغرب القائمين بمدينة تونس الى الآن"[1]، وجاء في المآثر: "والحفصيون يقولون إن جدهم أبو حفص المذكور هو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانود بن على بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خالد بن اليسع ابن إلياس بن عمر بن وافتف بن محمد بن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب".[2]

ونقل القلقشندي في كتابيه "مآثر الإنافة" و"نهاية الأرب" نفس الرواية التي تتعلق بعبد المالك بن رفاعة مع الليث بن سعد وذلك في معرض حديثه عن بلدته قلقشندة والعلماء المنحدرين منها.

جاء في مآثر الإنافة: "كان لليث دار ببلدتنا قلقشندة فهدمها عبد الملك بن رفاعة هذا عنادا له فعمرها الليث فهدمها عبد الملك فعمرها فهدمها فلما كان في الثالثة بينما الليث نائم اذا بهاتف يهتف به قم يا ليث ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض

[1] – القلقشندي، نهاية الأرب، ص153.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص258.

ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين فأصبح ابن رفاعة وقد اصابه فالج فأوصى الى الليث وبقي ثلاثا ثم مات.[1]

ويقابله ما جاء في "نهاية الأرب في أنساب العرب": "كان الليث داره بقلقشندة فهدمها ابن عمه عبد الملك بن رفاعة أمير مصر يومئذ عناداً له فعمرها الليث فهدمها، فعمرها فهدمها، فلما كان في الثالثة بينما الليث نائم واذا بهاتف يهتف به قم يا ليث ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين فأصبح ابن رفاعة وقد أصابه فالج فأوصى إلى الليث وبقي ثلاثاً ومات".[2]

[1] - نفســــــــه، ص153.

[2] - القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب،ج1، ص395.

3- منهج القلقشندي في تصنيفه للخلافة من خلال مآثر الإنافة:

وقد قسم القلقشندي الخلافة إلى قسمين، فهو عندما يتحدث عن الخلافة التي يراها مشروعة يقول: "في ذكر من ولى الخلافة من أول الإسلام وهلم جرا إلى زماننا"[1]، وعندما يتحدث عن الخلافة الباطلة يقول: "ذكر المشاهير ممن ادعى الخلافة في بعض الأقاليم وبطلان شبهة دعاويهم"[2].

أ- الخلافة المشروعة: وقد صنفها القلقشندي إلى أربع طبقات

الطبقة الأولى[3]: الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وهم -حسب القلقشندي- خمسة خلفاء.

- أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم. (11هـ/632م) - (13هـ/634م).

- عمر بن الخطاب رضي الله (13هـ/634م) - (23هـ/644م).

- عثمان بن عفان رضى الله عنه (23هـ/644م) - (35هـ/655م).

- علي بن أبي طالب رضى الله عنه (35هـ/655م) - (40هـ/661م).

- الحسن بن علي رضى الله عنهما: دامت حوالي ست أشهر (40هـ/661م) - (41هـ/661م).

---

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص81.

[2] - نفســــــه، ص81.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص ص81-108.

الطبقة الثانية[1]: وهم خلفاء بنى أمية وهم أربعة عشر خليفة وكانت مقرتهم بالشام ومدة خلافتهم نيف وتسعون سنة:

1- منهم معاوية بن أبي سفيان (41هـ/661م) - (59هـ/680م)

2- يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (59هـ/680م) - (62هـ/683م)

3- معاوية بن يزيد (62هـ/683م) - (63هـ/683م)

4- مروان بن الحكم (63هـ/683م) - (65هـ/685م)

5- عبد الملك بن مروان (65هـ/685م) - (86هـ/705م)

6- الوليد بن عبد الملك (86هـ/705م) - (96هـ/715م)

7- سليمان بن عبد الملك (96هـ/715م) - (99هـ/718م)

8- عمر بن عبد العزيز (99هـ/718م) - (101هـ/720م)

9- يزيد بن عبد الملك (101هـ/720م) - (105هـ/724م)

10- هشام بن عبد الملك (105هـ/724م) - (125هـ/743م)

11- الوليد بن يزيد (125هـ/743م) - (126هـ/744م)

12- يزيد بن الوليد (126هـ/744م) - (126هـ/744م)

13- ابراهيم بن الوليد (126هـ/744م) - (126هـ/744م)

14- مروان بن محمد (126هـ/744م) - (132هـ/750م)

الطبقة الثالثة[2]: خلفاء بني العباس بالعراق وجملة من كان بخلفائهم بالعراق سبعة وثلاثون خليفة:

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص ص109-167.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 168- ج2، ص110.

1- أبو عباس السفاح (132هـ/749م) - (136هـ/754م)

2- أبو جعفر المنصور (136هـ/754م) - (158هـ/775م)

3- أبو عبد الله محمد المهدي (158هـ/775م) - (169هـ/785م)

4- أبو محمد موسى الهادي (169هـ/785م) - (170هـ/786م)

5- أبو محمد وقيل أبو جعفر هارون الرشيد (170هـ/786م) - (193هـ/809م)

6- أبو عبد الله وقيل أبو موسى محمد الأمين (193هـ/809م) - (198هـ/813م)

7- ابو العباس وقيل ابو جعفر عبد الله المأمون (198هـ/813م)- (218هـ/833م)

8- أبو اسحاق محمد المعتصم (218هـ/833م) - (227هـ/842م)

9- وهو أبو جعفر هارون الواثق بالله (227هـ/842م) - (232هـ/847م)

10- أبو الفضل جعفر المتوكل على الله (232هـ/847م) - (247هـ/861م)

11- أبو جعفر المنتصر بالله (247هـ/ 861م) - (248هـ/ 862م).

12- أبو العباس أحمد المستعين بالله (248هـ/862م) - (252هـ/866م).

13- أبو عبد الله محمد وقيل الزبير المعتز بن المتوكل (252هـ/866م) - (255هـ/ 869م).

14- أبو عبد الله وقيل أبو جعفر محمد المهتدى بالله (255هـ/869م) - (256هـ/870م).

15- أبو العباس وقيل ابو جعفر أحمد المعتمد على الله (256هـ/870م) - (279هـ/892م).

16- أبو عباس أحمد المعتضد بالله (279هـ/892م)- (289هـ/903م)

17- أبو محمد علي المكتفي بالله (289هـ/903م)- (295هـ/908م)

18- أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (295هـ/908م) - (320هـ/932م)

19- أبو منصور محمد القاهر بالله (320هـ/932م) - (322هـ/934م)

20- أبو العباس محمد الراضى بالله (322هـ/934م) - (329هـ/940م)

21- أبو إسحاق ابراهيم المتقي لله (329هـ/940م) - (333هـ/944م).

22- أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله (333هـ/944م) - (334هـ/946م).

23- أبو العباس الفضل المطيع لله (334هـ/946م) - (363هـ/974م).

24- أبو بكر عبد الكريم الطائع لله (363هـ/974م) - (381هـ/991م).

25- أبو العباس أحمد القادر(381هـ/991م)-(422هـ/1031م).

26- أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله (422هـ/1031م) - (467هـ/1075م).

27- أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله (467هـ/1075م) - (487هـ/1094م).

28- أبو العباس أحمد المستظهر بالله (487هـ/1094م) - (512هـ/1118م).

29- أبو منصور الفضل المسترشد بالله (512هـ/1118م) - (529هـ/1135م).

30- أبو جعفر المنصور الراشد بالله (529هـ/1135م) - (530هـ/1136م).

31- أبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله (530هـ/1136م) - (555هـ/1160م)

32- أبو المظفر يوسف المستنجد بالله (555هـ/1160م) - (566هـ/1170م)

33- أبو محمد الحسن المستضئ بالله (566هـ/1170م)-(575هـ/1180م)

34- الإمام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (575هـ/1180م)-(622هـ/1225م)

35- أبو نصر محمد بن الظاهر بأمر الله (622هـ/1225م) - (623هـ/1226م)

36- أبو جعفر المستنصر بالله (623هـ/1226م) - (640هـ/1242م)

37- أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله (640هـ/1442م) - (656هـ/1259م)

ويشير القلقشندي هنا إلى الفترة التي شغرت فيها الخلافة بقوله: "وهي ما بين قتل المستعصم في المحرم سنة ست وخمسين وستمائة الى حين بايع الملك الظاهر بيبرس

صاحب الديار المصرية المستنصر أحمد بن الظاهر أول الخلفاء بالديار المصرية في رجب سنة ثمان وخمسين وستمائة"[1].

الطبقة الرابعة[2]: خلفاء بني العباس بالديار المصرية من حين انتقال الخلافة إليها وإلى زمان القلقشندي وهم أحد عشر خليفة:

1- أبو القاسم أحمد المستنصر بالله (658هـ/1261م) (658هـ/1261م)

2- أبو العباس أحمد الحاكم بأمر الله (660هـ/1261م) - (701هـ/1302م).

3- أبو الربيع سليمان المستكفى بالله (701هـ/1302م) - (740هـ/1340م).

4- أبو العباس أحمد بن المستكفي الحاكم بأمر الله الأولى (740هـ/1340م) - (741هـ/ 1341م)؛ الثانية (740هـ/1340م)- (748هـ/ 1353م).

5- أبو إسحاق إبراهيم الواثق بالله (741هـ/1341م) - (741هـ/1353م).

6- أبو الفتح أبو بكر المعتضد بالله (748هـ/1353م) - (763هـ/1368م)

7- أبو عبد الله محمد المتوكل على الله الخلافة الأولى (763هـ/1368م) - (779هـ/1384م)- الثانية (780هـ/1385م) - (785هـ/1390م) الثالثة (791هـ/1396م) - (808هـ/1413م)

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص103.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص 111، ص220.

8- أبو يحي زكريا المستعصم بالله الخلافة الأولى (779هـ/1384م) - (780هـ/1385م) الخلافة الثانية (788هـ/1393م) - (791هـ/1396م).

9- أبو حفص عمر الواثق بالله (785هـ/1390م) - (788هـ/1393م).

10- الإمام أبو الفضل العباس المستعين بالله (808هـ/1413م) - (817هـ/1422م)

11- أبو الفتوح داود المعتضد بالله (817هـ/1422م)

ومن خلال بعض النصوص التي أوردها القلقشندي يمكن أن نفهم قيمة الخليفة أمام السلطان المملوكي، فهناك بعض الخلفاء عزلوا عدة مرات ثم أعيدوا إلى الخلافة.

- أبو العباس أحمد الحاكم بأمر الله ودعى له على المنابر بعد عقد خلافته في العشر الأخير من شوال سنة أربعين وسبع مائة وبقى حتى خلعه الناصر محمد بن قلاوون في العشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبع مائة[1]

- أما في حديثه عن الخليفة الخامس الواثق بالله: بويع له بالخلافة بعد خلع أخيه لحاكم في العشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبع مائة وقام ببيعته الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية ولم يزل يخطب له على المنابر وراتب الخلافة يحمل إليه إلى العشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبع مائة ثم أعيدت الخطبة للحاكم بأمر الله.

- التاسع من خلفاء بني العباس بالديار المصرية الواثق بالله بايع له بالخلافة الظاهر برقوق بعد خلع الإمام المتوكل في مستهل شهر رجب سنة خمس وثمانين وسبع مائة فبقي في الخلافة حتى توفي في العشر الأول من شوال سنة ثمان وثمانين وسبع مائة فأعاد الظاهر برقوق المستعصم زكريا المقدم ذكره إلى الخلافة ثانيا والمتوكل على الله في الإعتقال والناس لا

[1]- القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص146.

يرون في كل ذلك الخليفة غيره ثم أطلق المتوكل على الله من الإعتقال وأعيد إلى الخلافة في ثاني جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبع مائة وبقي حتى توفي في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وثمانمائة.[1]

ب– الخلافة الباطلة:

وذكر في هذا الشأن العديد من عارض الدولة العباسيية خاصة من العلويين، لكن معظمهم لم ينشئوا دولاً، حيث قال: " فاعلم أنه قد قام على خلفاء بنى العباس في أول أمرهم قائمون من العلويين في بلاد وأزمان مختلفة، فمنهم من قبض عليه ولم يتم له أمر كمحمد بن على الخارج على أبى جعفر المنصور، ومنهم من فر إلى البلاد البعيدة ودعا إلى نفسه فكان له دولة كإدريس الأكبر"[2]، لكن القلقشندي يستثني مثل هذه الدول لأن أصحابها لم يدعوا للخلافة: "إلا أنه لم يدع أحد منهم الخلافة وطالت دولته".[3]

وقصد بمن أدعى الخلافة في بعض الأقاليم وبطلان شبهة دعاويهم ثلاث طوائف وهي الأمويين بالأندلس العبيديين والحفصيين:

– الطائفة الأولى: بنو أمية في الأندلس: ذلك أن بنى العباس عند استيلائهم على الأمر وانتقال الخلافة إليهم تتبعوا بنى أمية بالقتل فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وسار حتى دخل الأندلس فعرف بالداخل لذلك ودعا إلى نفسه بالخلافة هناك واستولى على ما كان بيد المسلمين من الأندلس في سنة تسع وثلاثين ومائة من الهجرة وقصده بنو أمية من المشرق والتجؤوا إليه وتوفى في ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص187.

[2] – نفســـــه، ص245.

[3] – نفســـــه، ص245.

ومائة وملك بعده ابنه هشام واستخلف بعده ابنه الحكم ابنه عبد الرحمن وملك بعده ابنه محمد وملك بعده ابنه المنذر وملك بعده أخوه عبد الله وملك بعده ابن ابنه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله وتلقب بالناصر وخوطب بأمير المؤمنين بعد أن مضى من خلافته تسع وعشرون سنة وهو أول من تلقب منهم بألقاب الخلافة ودعى بأمير المؤمنين وكانوا قبل ذلك يخاطبون بالإمارة خاصة.[1]

– **الطائفة الثانية:** العبيديون: وهم أبناء عبيد الله المهدى ويقال لهم العلويون نسبة إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه والفاطميون نسبة إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمصريين نسبة إلى مصر لاستقرارهم بها آخرا وكان مبدأ أمرهم أن المكتفى بالله طلب عبيد الله المذكور وهو يومئذ بسلمية لأمر بلغه عنه ففر من الشام إلى العراق ثم لحق بمصر في جمادعة من خاصته ولحق بإفريقية من بلاد المغرب في زى التجار ووصل إلى المغرب الأقصى ودخل سجلماسة ببلاد المغرب فورد على عاملها كتاب بالقبض عليه فقبض عليه هو وابنه أبو القاسم نزار وكان أبو عبد الله الشيعى من شيعته قد أقام له الدعوة بتلك البلاد قبل دخولها فسار من أفريقية في جماعة من البربر ودخل سجلماسة وأخرج عبيد الله المهدى وابنه من الحبس وبايعه وارتحل به إلى افريقية.[2]

– **الطائفة الثاثة:** الحفصيون: من بقايا الموحدين بإفريقية وكان مبدأ أمرهم أن بلاد المغرب كان قد ظهر فيها القول بالظاهر حتى حملهم ذلك على القول بالتجسيم وما في معناه من لوازم الوقوف مع الظاهر وكان محمد بن تومرت من بعض بطون المصامدة من البربر أهل بيته أهل دين وعبادة وقد شب في طلب العلم ورحل إلى المشرق قاصدا الحج ودخل

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص246.

[2] – نفســـــــه، ص249.

العراق ولقى أكابر علمائه وفحول النظار به وأخذ مذهب أبي الحسن الأشعري في القول بتأويل المتشابه عن علماء الأشاعرة ولقى الإمام أبا حامد الغزالي وصحبه ثم عاد إلى بلاد الغرب وطعن على أهله في الوقوف مع الظاهر وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بقول الأشاعرة في جميع العقائد إلى أنه كان يقول بقول الإمامية من الشيعة في عصمة الإمام.[1]

ويقدم الحجج الفقهية والتاريخية ويستعمل علم الأنساب في البرهنة على نظريته:

1- الحجة الفقهية: حيث يقول القلقشندي: "فالقول العام في ذلك ما تقدم من أن جمهور العلماء رضي الله عنهم على أنه لا يصح نصب خليفتين وأن تباعد أقليماهما واحتجاجا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهم".[2]

والخلفاء المقدم ذكرهم من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ثم من خلفاء بني أميه ثم من خلفاء بني العباس بالعراق ثم من خلفاءهم بالديار المصرية إلى آخر وقت جارون على نسق واحد يليها منهم الواحد بعد الواحد إما بالعهد من الذي قبله وإما بيعة من أهل الحل والعقد فمن خرج عنهم أو شق عصاهم فهو باغ لا تسوغ مبايعته ولا تحل متابعته.[3]

2- حجة النسب:

العبيديون: يقولون إن جدهم عبيد الله المهدى هو ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقال هو عبيد الله بن محمد بن ميمون بن محمد بن إسماعيل

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج2، ص251.

[2] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص255.

[3] - نفســــــه، ص256.

والباقى على ما تقدم ويقولون إن أباه محمدا الحبيب حين أدركته الوفاة عهد إلى ابنه عبيد الله وقال له أنت المهدى وتهاجر بعدى هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة.[1]

واعترض هذا النسب عليهم معترضون ونفوهم عنه وبالغوا في أمرهم حتى نسبوهم إلى ديصان الذى تنسب إليه طائفة الديصانية نسبة إلى ديصان صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة واعتنوا بشأن ذاك حتى كتب به محضر ببغداد في سنة اثنتين وأربعمائة بأمر القادر بالله في زمن الحاكم بأمر الله أحد خلفائهم وكتب فيه جماعة من العلويين والقضاة، ويشير القلقشندي إلى مصدره الذي نقل منه الوثيقة بقوله: "ونسخة المحضر على ما ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه".[2]

ويشير القلقشندي إلى ما هو أسوأ في نسب العبيديين: "وربما وقع الطعن فيهم بما هو أسوأ من ذلك حسب ما ذكره صاحب حماة أن بعضهم جعل نسبهم في اليهود فقال: إن عبيد الله المهدى كان اسمه سعيد بن أحمد القداح بن ميمون بن ديصان وقيل سعيد بن الحسين بن محمد وإن الحسين تزوج امرأة يهودية وهويها".[3]

الحفصيون: يقولون إن جدهم أبو حفص المذكور هو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانود بن على بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خالد بن اليسع ابن إلياس بن عمر بن وافتف بن محمد بن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.[4]

---

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص256.

[2] – نفســــــه، ص257.

[3] – نفســــــه، ص258.

[4] – نفســــــه، ص258.

وقد اعترض عليهم معترضون في ذلك فمنهم من يقول إنه منسوب إلى بنى عدى رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومنهم من يقول بل هو منسوب إلى هنتاتة بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء مثناة فوق مفتوحة وهاء في الآخر وهى قبيلة من قبائل المصامدة من البربر بجبال درن المتاخمة لمراكش وهى قبيلة واسعة كبيرة وكان أبو حفص هذا شيخهم وكبيرهم. [1]

قال صاحب العبر ولعل هذا النسب القرشى وقع في المصامدة والتحم بهم واشتملت عليه عصبتهم شأن الأنساب التى تقع من قوم إلى قوم.[2]

وأن أبا زكريا يحي لم يتخذ لقب الخليفة ولم يكن منذ بداية عهد الحفصيين بل أن أبا عبد الله محمد المستنصر بالله هو أول من اتخذ هذا اللقب.

اتبع القلقشندي في أسلوبا نقديا صارما في تعامله مع الرواية التاريخية فكان يمحص ويحاول معرفة صحتها، وقد استعان في مراحل عديدة من بحثه على الوثيقة التي كان من بين من أسس لمنهج استعمالها في التاريخ الاسلامي.

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص259.

[2] – نفســـــــه، ص259.

4– النقد التاريخي في كتاب مآثر الإنافة:

تأثر القلقشندي بالحركة النقدية التي شهدها عصره، بوصفه واحداً من مؤرخي ذلك العصر، وكان حريصاً على تقديم مادة علمية رصينة وموثقة على حد ما، لذا أخضع مادته للنقد[1].

وثبت آراءه النقدية وملاحظاته في المواضيع التي اقتضتها ضرورة البحث. وكانت غايته النقد البناء في التقويم والتصويب، وإيضاح مواقع الخلل والسقط لدى المؤرخين، السابقين والمعاصرين له في مختلف جوانب المعرفة، وخاصة المعلومات التاريخية، فقد أدرك القلقشندي أن دوره الأساسي ليس تسجيل الأحداث فقط بل التقويم أيضاً، من خلال نقد الأخبار والروايات، أو نقد المصادر، التي أخذ عنها، واتبع القلقشندي لهذا الغرض طرقاً متنوعة[2]، نفصلها كالتالي:

أ– نقد الرواية التاريخية:

يمتلك القلقشندي حسا نقدياً دقيقاً اكتسبه عبر تجربته مع المصادر في مؤلفاته المختلفة، وقد زاد هذا الحس ونما حتى نضج مع كتابه مآثر الإنافة لأنه يعتبر آخر مؤلفاته كما ذكرنا، ويمكن تصنيف طرق وأشكال النقد التاريخي إلى ما يلي:

[1] – ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص181.

[2] – نفســـــــه، ص181.

– التعليل:

ويمثله قوله معللاً لعدم توسع المؤرخين في ترجمة "عبد الله بن المعتز"، أو عده ضمن خلفاء بني أمية[1]: "ومن حيث قصر مدته لم يورد المؤرخون في عداد الخلفاء، بل جعل كالجملة المعترضة"[2].

وقوله معللاً لما شاع عن فقهاء زمنه من المحاباة "لصاحب الوقت" القائم بالأمر، من خلال حديثه عن بطلان تصرف الإمام للاستلاء عليه وحجره[3]. وجاء في كتاب مآثر الإنافة في هذا الشأن: "وبمقتضى ذلك وقع الفقهاء في زماننا هذا مع الملوك في الأمر الخطأ، حيث لم يفهموا عنهم مقاصد الشريعة، وذلك أنهم إذا أثبتوا ولاية الأول بالاستيلاء بالقهر دعاهم ذلك إلى أن يقولوا إن الخارج عليه باغٍ واجب القتال، فإذا غلب الثاني حكموا ببطلان ولاية الأول وصحة ولاية الثاني، ودعاهم ذلك إلى عكس القضية الأولى، فقالوا: إن الخارج عليه باغٍ واجب القتال، فيظن أولئك أن حكمهم بذلك إنما هو محاباة لصاحب الوقت القائم بالأمر، من غير فهم المقصد الذي ألجأهم لذلك"[4].

– الترجيح:

وقوله مرجحا في معرض الحديث عن صحة الإمام بالعهد:

"واختلف في أنه هل يشترط في لزوم ذلك للأمة الرضي منهم بذلك أم لا على مذهبين:

---

[1] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص130.

[2] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص277.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص130.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص71.

أحدهما: الاشتراط، لأن الإمامة حق يتعلق بالأمة، فلم تلزمهم إلا برضي أهل الحل والعقد منهم.

والثاني: وهو الأصح عدم الاشتراط، لأن الإمام أحق بها، فكان اختياره فيها أمضى وأنفذ، ولذلك لم يتوقف عهد الصديق لعمر-رضي الله عنهما- على رضى بقية الصحابة"[1].

- عرض الآراء المختلفة ومقارنتها:

وكان القلقشندي في كثير من الأحيان يعرض الرأي و الرأي المعاكس ثم يعرض الرأي الوسط ويرجح به.

فعند الحديث عن نسب الحفصيون: يقولون إن جدهم أبو حفص المذكور هو أبو حفص عمر بن يحي بن محمد بن وانود بن على بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خالد بن اليسع ابن إلياس بن عمر بن وافتف بن محمد بن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.[2]

ثم يعرض الرأي الثاني: "وقد اعترض عليهم معترضون في ذلك فمنهم من يقول إنه منسوب إلى بنى عدى رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومنهم من يقول بل هو منسوب إلى هنتاتة بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء مثناة فوق مفتوحة وهاء في الآخر وهى قبيلة من قبائل المصامدة من البربر بجبال درن المتاخمة لمراكش وهى قبيلة واسعة كبيرة وكان أبو حفص هذا شيخهم وكبيرهم".[3]

[1] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص52.

[2] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص258.

[3] - نفســــــــه، ص259.

ثم يعرض رأي ابن خلدون الوسطي قائلاً: "قال صاحب العبر ولعل هذا النسب القرشى وقع في المصامدة والتحم بهم واشتملت عليه عصبتهم شأن الأنساب التى تقع من قوم إلى قوم.[1]

أما عند ذكر نسب العبيديين فهو يقوم بنفس الخطوات، ففي البداية يعرض النسب كما يرويه أصحابه:

"يقولون إن جدهم عبيد الله المهدى هو ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقال هو عبيد الله بن محمد بن ميمون بن محمد بن إسماعيل والباقى على ما تقدم ويقولون إن أباه محمدا الحبيب حين أدركته الوفاة عهد إلى ابنه عبيد الله وقال له أنت المهدى وتهاجر بعدى هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة".[2]

ثم يعرض الرأي المعارض:

"واعترض هذا النسب عليهم معترضون ونفوهم عنه وبالغوا في أمرهم حتى نسبوهم إلى ديصان الذى تنسب إليه طائفة الديصانية نسبة إلى ديصان صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة واعتنوا بشأن ذاك حتى كتب به محضر ببغداد في سنة اثنتين وأربعمائة بأمر القادر بالله في زمن الحاكم بأمر الله أحد خلفائهم وكتب فيه جماعة من العلويين والقضاة،

[1] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص259.

[2] - نفســـــــه، ص256.

ويشير القلقشندي إلى مصدره الذي نقل منه الوثيقة بقوله: "ونسخة المحضر على ما ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه".[1]

ثم يشير إلى ما هو أسوأ من ذلك وما يخدم رأيه في إدعاء العبيدين النسب الشريف وبالتالي بطلان ادعائهم للخلافة: "وربما وقع الطعن فيهم بما هو أسوأ من ذلك حسب ما ذكره صاحب حماة أن بعضهم جعل نسبهم في اليهود فقال: إن عبيد الله المهدى كان اسمه سعيد بن أحمد القداح بن ميمون بن ديصان وقيل سعيد بن الحسين بن محمد وإن الحسين تزوج امرأة يهودية وهويها".[2]

– الاستحسان والقبح:

ويمثله قوله مستهجناً ومستقبحاً تصرف "يزيد بن عبد الملك تاسع الخلفاء الأمويين في دمشق" بـ"حبابة" بعد وفاتها: "كان صاحب لهو ولذة، وهو صاحب حبابة وسلامة، وهما جاريتان كان مشغوفاً بهما، وماتت حبَّابة فمات بعدها بيسير، قيل بسبعة عشر يوماً، أسفاً عليها، وكان قد تركها أياماً، لم يدفنها، لعدم استطاعته فراقها، فعوتبت على ذلك فدفنها، ويقال: إنه نبشها بعد بعد الدفن حتى شاهدها. وقلت وأين مقام هذا من مقام الذي كان يهوى سلاَّمة جاريته الثانية، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمار وذلك أنه مرَّ يوما بمنزل سيدها، فسمع غناءها فهويها ثم هويته هي أيضاً، واجتمعا بعد ذلك فقالت له سلامة: "إنني أحبك، فقال:وأنا أيضاً، قالت: وأنا أشتهي أن أقبلك، فقال: وأنا أيضاً، قالت: وما

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص257.

[2] – نفســـــــه، ص258.

يمنعك؟ قال: تقوى الله، ثم قام وانصرف وتركها. وكان عبد الرحمن بالقِسِّ لعبادته، ولذلك عُرفت سلاَّمة هذه بسلامة القسِّ[1].

وأورد مستحسناً قول "المعتضد بالله أبي العباس أحمد" بافتتاح الخراج: " كان أحسن الناس سيرة، ولما بويع أمر بافتتاح الخراج في شهر حزيران من شهور السريان، عند كون الشمس في أواخر الجوزاء، رفقاً بالناس حتى لا يؤخذ منهم الخراج قبل حصول غلالهم، وسماه النيروز المعتضدي، وكان ذلك من حسن سيرته ومحاسن تدبيره وسياسته"[2].

– التعجب والاستغراب من التصرف في بعض الحوادث:

ومن ذلك قوله مترجما لـ"الواثق بالله" هارون: "ومن عجيب أمره أنه لما اشتد به المرض أحضر المنجمين فنظروا في مولده فقدروا له أن يعيش خمسين سنة مستأنفة بعد ذلك فلم يعش بعد قولهم غير عشرة أيام فسبحان المستأثر بعلم الغيب"[3].

وفي حديثة عن الخليفة العباسي الراضي بالله: "ومن العجيب أنه ولى الوزارة لثلاثة خلفاء المقتدر والقاهر والراضي ووزر ثلاث مرات وسافر ثلاث سفرات اثنتين الى شيراز وواحدة الى الموصل ودفن ثلاث مرات"[4].

وقد أورد مستغرباً: "ومن غريب ما وقع مما يتعلق بذلك ما حكاه ابن سعيد في كتابه المغرب أن الظافر أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية لما قتله وزيره عباس بعث نساء الخليفة شعورهن في الكتب إلى الصالح طلائع بن رزيك وهو يومئذ والى منية بنى خصيب من

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص146.

[2] – نفســـــه ص264.

[3] – نفســـــه، ص225.

[4] – نفســـــه، ص289.

صعيد مصر فحضر إليهم الصالح وقد رفع تلك الشعور على الرماح وأقام الرايات السود إظهارا للحزن على الظافر ودخل القاهرة وهو على ذلك فكان ذلك من الفأل العجيب وهو ان مصر انتقلت إلى بنى العباس وأقيمت فيها الأعلام السود بعد خمس عشرة سنة"[1].

– الكشف عن عاطفته:

وهي عاطفة دينية قوية، مجلة للخلافة العباسية وممجدة لها، ثائرة على الخارجين عليها،[2] محتقراً لهم ومبينا سعيهم في محاولة التشبه بهم: "واعلم أن كثير ممن ادعى الخلافة في بعض الأقاليم كالخلفاء الفاطميين بالمغرب وبالديار المصرية وخلفاء بنى أمية بالأندلس قد مشوا على نهج خلفاء بنى العباس في الألقاب فتلقب أبو محمد عبيد الله أول خلفاء الفاطميين بالمغرب المهدى ثم تلقب بنوه من بعده بالمغرب والديار المصرية بألقاب الخلافة المضاف فيها اسم الله كالقائم بأمر الله والمنصور بالله إلى أن كان آخرهم العاضد لدين الله، وجرى خلفاء بنى أمية بالأندلس في أول أمرهم على قاعدة خلافتهم الأولى من عدم التلقيب من لدن أولهم عبد الرحمن الداخل إلى أن ولى منهم عبد الرحمن بن محمد المعروف بالمقتول وهو الثالث عشر من خلفائهم بالأندلس فتلقب بالناصر بعد أن مضى في خلافته تسع وعشرون سنة وتبعه من بعده منهم على ذلك إلى أن ولى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر عبد الرحمن المقدم ذكره فتلقب بالمرتضى بالله وهو أول من أضيف في لقبه منهم اسم الله تعالى مضاهاة لخلفاء بنى العباس في ذلك وجرى من بعده من خلفائهم على مثل ذلك إلى ان كان آخرهم هشام بن محمد فتلقب بالمعتد بالله وبزواله في سنة ثمان وعشرين وأربع مائة انقرضت خلافتهم من الأندلس ثم تبعهم على ذلك ملوك الطوائف من بنى هود وغيرهم فتلقبوا بألقاب الخلفاء

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص237.

[2] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص133.

وكذلك الموحدون ببلاد المغرب فتلقب إمامهم محمد بن تومرت بالمهدى وتبعه أتباعه على ذلك فتلقبوا بألقاب الخلفاء إلى أن كان الأمير منهم في عقب أبي حفص أحد العشرة أصحاب ابن تومرت المذكور فنسجوا على منوالهم في ذلك إلى أن كان منهم أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا يحيى فتلقب بالمنتصر بالله فكان أول من أضيف في لقبه اسم الله منهم وتبعه من بعده على ذلك إلى زماننا.

قلت وهؤلاء جميعهم على منوال بني العباس ناسجون وعلى آثارهم مقتفون:

وأين الثريا من يد المتناول"[1]

وقوله في أثناء الحديث عن الأحداث التي وقعت أيام الخليفة عبد المالك بن مروان: " وفي أيامه قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير التابعي الإمام الكبير فاختلط عقل الحجاج لوقته وبقي قليلا ثم مات في رمضان سنة خمس وتسعين عن ثلاث وخمسين سنة وقيل عن أربع وخمسين وكان مدة ولايته العراق عشرين سنة وكان عدة من قتله فيها صبرا مائة ألف وعشرين ألفا ومات وما ربك بغافل عما يفعل الظالمون"[2] وقد أنهى الكلامه بما يبين موقفه من الحجاج بن يوسف.

وهو لا يتردد في إبراز موقفه من القرامطة قائلاً: "ابتدأ ظهور القرامطة وهم طائفة ملعونة ظهرت من سواد العراق ينسبون الى رجل اسمه الفرج بن عثمان يلقب بقرمط ومعناه بالنبطية احمر العين قيل ان الذي كان اتى به الى السواد رجل احمر العين فشهر بشهرته

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 339.

[2] – نفســــــه، ص 137.

وكان اللعين قد قام في اهل البادية ممن لا معتقد له وادعى انه جاء بكتاب اوله بسم الله الرحمن الرحيم..." [1].

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 254.

ب– نقد المصادر:

حرص القلقشندي في نقله للمعلومات من المصادر على إبراز رأيه في المادة التي ينقلها وكا يصرح بذلك بوضوح، كقوله في صاحب ديوان إنشاء السلطان الصاحب فخر الدين بن لقمان عند تقليد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى صاحب الديار المصرية عن الإمام المستنصر بالله أبى العباس أحمد بن الظاهر بالله بن الناصر لدين الله أول خلفائهم بالديار المصرية حيث قال: "في عهود الملوك أن يفتتح العهد بالحمد لله وهو الذي استقر عليه عمل المتأخرين من كتاب الديار المصرية على أن المقر الشهابي بن فضل الله قد أنكر على الصاحب فخر الدين بن لقمان حيث افتتح العهد الذي كتب به للظاهر بيبرس بالحمد وقال ليس ابن لقمان بحجة ثم قال على أن القاضي محي الدين قد تبعه فيما كتب به للمنصور قلاوون ولا وجه لإنكاره على ابن لقمان فقد كتب بمثل ذلك من ديوان الخلافة ببغداد عن الإمام المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله العباسي للسلطان الملك الكامل نصير الدين محمد بن العادل أبي بكر من إنشاء الوزير أبي الأزهر أحمد بن الناقد بخط العدل ناصر بن رشيد الخرنومي في شهر رجب الفرد سنة ثلاثين وستمائة إلا أنه جرى فيه على الأسلوب القديم من قولهم في أوامر الخلافة أمره بكذا وأمره بكذا".[1]

وفي تعقيبه على رواية صاحب حماة أبي الفدا حين ترجم لـ" عمر بن عبد العزيز" قال: "قال ابن حزم وكان سنه حين ولى الخلافة ما بين الثلاثين سنة والاربعين وكان نقش خاتمة عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله وبقي في الخلافة حتى توفي في يوم الجمعة لخمس وقيل لست بقين من رجب سنة احدى ومائة وعمره تسع وثلاثون سنة ودفن بأرض دير سمعان من

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص 100.

عمل حمص وقيل توفي بدير سمعان ودفن به قال صاحب حماة الظاهر ان دير سمعان هو المعروف الان بدير البقرة من عمل معرة النعمان قال وكان موته بالسم من بني أمية علما منهم أنه أن امتدت أيامه أخرج الامر عنهم وانه لا يعهد بعده الا لمن يصلح للأمر فعاجلوه.

قلت وفيما قاله نظر فان عهد سليمان بن عبد الملك كان متضمنا العهد بعد عمر بن عبد العزيز ليزيد بن عبد الملك فلم يكن لعمر أن يعهد لغيره. [1]

جـ – نقد الوثائق:

تعتبر الرسائل الديوانية الصادرة عن دواوين الإنشاء والتي نسميها الوثائق، من أهم المصادر التاريخية، وهي تقع في المرتبة الثانية من حيث توثيق الخبر، فالخبر بدونها يُؤخذ مأخذ الترجيح لا اليقيين، والخبر الذي يرد في الرسائل الديوانية يعتبر أساساً للتأكيد فالرسالة الديوانية أو الوثيقة إذا ما صح صدورها من ديوان الإنشاء يمكن أن تعتبر الحكم الفصل في صحة خبر المؤرخ من عدمه[2]، ويمثل الوثيقة أو الرسالة الديوانية الكثير من نماذج البيعات والعهود، الصادرة عن الخليفة[3].

ويعتبر القلقشندي من أكثر المؤرخين العرب استخداماً للوثيقة في مؤلفاته، وتزخر مؤلفات القلقشندي بالعديد من الوثائق حتى أصبح جزءاً من منهجه في الكتابة التاريخية[4]، وكان الغرض من استعمال الوثائق عند القلقشندي ما يلي:

[1] – القلقشندي، مآثر الانافة،ج3، ص 143.

[2] – عبد القادر أحمد طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى (مقالة في كتاب القلقشندي وكتابه صبح الأعشى) ص119.

[3] – محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص111.

[4] – ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص201.

– إيمانه بأهميتها في دعم الفكرة، أو الموضوع الذي يتناوله، فأورد العديد من الرسائل والمكاتبات المتبادلة بين ملوك الدول والأمراء وأرباب الوظائف الديوانية[1].

– زيادة في توثيق مادته العلمية، لذا حرص على مشاهدة وقراءة معظم الوثائق التي ذكرها[2]، مشيراً على مصادرها في معظم الأحيان وأماكن وجودها، ويذكر أنه اطلع عليه مثل قوله: " قلت وعلى هذا النهج في انفراد قاض كانت الديار المصرية في الدولة الفاطمية حتى رأيت عهدا مكتوبا لابن النعمان في خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي قد كتب له بالديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب"[3]؛ ويشير في مقدمة استعمال الوثيقة التاريخية إليها قائلا: "هذه صورتها" أو: "وعلى ذلك كنت تكتب" مثل قوله: " ثم يقال إنه لم يوجد من ينهض بأعباء الخلافة بعده إلا ولده فلان أو أخوه أو ابن عمه أو نحو ذلك ويؤتى بتقريظة وذكر استحقاقه للخلافة دون غيره ثم القائم بالبيعة له بحضرته أو في بعض الأطراف بأخذ البيعة له على من قبله من الرعية وعلى ذلك كانت تكتب بيعات الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية بجملتها "[4]؛ أو يقول: "وعلى هذه الطريقة" والمثال على ذلك: " وعلى هذه الطريقة كانت عهود الخلفاء من السلف رضوان الله عليهم وعلى نهجها مشى أفاضل الكتاب المعتبرين بديوان الخلافة في العراق واختاره أفاضل الكتاب من المتأخرين بالديار المصرية"[5] فإن لم يتسن له رؤيتها أشار إلى ذلك في النهاية الاستشهاد بها مثل قوله: "... فأمر المتوكل بإلغاء ذكر سنة

[1] – عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى، ص 124. ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص201.

[2] – عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى، ص 124.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص78.

[4] – نفســــــه، ص267.

[5] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص319.

إحدى وأربعين ومائتين إذ كانت قد انقضت ونسب الخراج إلى سنة ثنتين وأربعين ومائتين وأمر ابراهيم بن العباس فكتب كتابا عنه بذلك وهو أول كتاب كتب في هذا المعنى ولم أقف على نسخته"[1]؛ فإن كانت صياغة الكتاب الذي تحمله الوثيقة مألوفة عند القلقشندي وشائعة في أيامه، قال: "في العهود التى تكتب للخلفاء أن يفتتح العهد بالحمد لله. قلت وعليه العمل في زماننا مع الاقتصار على تحميده واحدة والاختصار في القول، وعلى ذلك كتب عن أمير المؤمنين المستكفى بالله أبى الربيع سليمان لولده المستوثق بالله بركة"[2].

– نزعته العلمية وسعيه لبلوغ الأحسن، كان وراء اهتمامه بالوثائق، وقد أشار إلى ضرورة على ضرورة الاطلاع على وثائق الأقدمين قائلاً: " أما النظر في رسائل البلغاء من فضلاء الكتاب فلما في ذلك من تنقيح القريحة وإرشاد الخاطر وتسهيل الطرق والنسج على منوال المجيد والاقتداء بطريقة المحسن واستدراك ما فات والاحتراز مما أظهره النقد ورد ما بهرجه السبك. واقتصر على النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر على ما يأتي بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبي زور. اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضرة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظ دون غيره"[3].

وقد يُعتقد أن القلقشندي اهتم بجمع الرسائل الديوانية والمكاتبات في كتابه لأهميتها التاريخية، أو ليستفيد منها الناس من الناحية الخبرية، والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك وإنما كان اهتمام القلقشندي بجمعها لكي يستفيد منها كتاب عصره في ديوان الإنشاء وكتاب الأجيال التالية من ناحية صنعة الإنشاء، فهي نماذج لأساليب الكتابة الديوانية يقدمها

[1] – نفســــــــه، ص223.

[2] – نفســــــــه، ص337.

[3] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص288.

للكتاب الذين تقتصر أقلامهم عن الأساليب التقليدية للكتابة الإنشائية البلاغية، وعن أصول إنشاء مثل هذه الرسائل[1].

وعلى الطريقة الحديثة سار القلقشندي في نقد الوثيقة بشكليها الداخلي (المضمون) والخارجي(الشكل):

1- النقد الخارجي (الشكل):

اهتم القلقشندي، بوصف الوثائق التي اطلع عليها. فوصف قطع الورق وأنواعه (المصري، الشامي، البغدادي)، وأغراض استعمال كل واحد، نوع الخط، والقلم، وترتيب الكتاب على الورق، ومقدار البيضات (الفراغات) على جوانب الورقة، في كل نوع من أنواع الوثائق[2] مثل قوله: " قد ذكر محمد بن عمر المدائني أنه كان يكتب للأمراء في قرطاس من نصف طومار وللعمال والكتاب في قرطاس من ثلث طومار وللتجار وأشباههم في قرطاس من ربع طومار وللحساب والمساح في قرطاس من سدس طومار وقد تقدم أن المراد بالطومار قطع البغدادي الكامل ولا يخفى أن المناسب لقطع النصف قلم الثلث الخفيف ولقطع الثلث قلم الكوفة ولما دون ذلك قلم الرقاع"[3]، وقوله: "تنبيه قد ذكر محمد بن عمر المدائني أنه كان في الزمن المتقدم أنه كان يكتب للأمراء عن الخلفاء في قرطاس من نصف طومار"[4]، إذ تختلف

[1] – عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى، ص121.

[2] – ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص203.

[3] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص209.

[4] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص221.

هذه الأمور بين كتب العهود والأمان، وكتب المعاهدات والبطاقات وغيرها، بحسب الموضوع والجهة المرسل إليها[1].

2- النقد الداخلي (المضمون):

تشير النصوص الكثيرة التي قدمها القلقشندي إلى اتخاذه نهجا علمياً وعمليا في نقد الوثيقة قائماً على النقد المقارن في بيان الفرق بين المكاتبات الصادرة من الخلفاء سابقاً وفي زمانه، وانتقد بيعات الخلفاء في الديار المصرية في عصره لأنها كتبت من قبل كتاب الحكم، الذين لا إلمام لهم بكتابة الإنشاء[2]، وهو يقول في هذا الشأن: "والذى استقر عليه الحال في كتابة بيعات الخلفاء بالديار المصرية الآن أن يتعاطى كتابه البيعة كتاب الحكم الذين هم موقعو قضاة القضاة ولا إلمام لهم بصنعة الإنشاء فإن وقعت العناية بكتابة تلك البيعة أمر كاتب السر من له ملكه في صنعة الإنشاء من رؤوس كتاب الديوان فأنشأ لها صدرا على طريقة كتاب الإنشاء مفتتحا بخطبة مشتملة على براعة استهلال تناسب المقام وتدفع إلى من يتعاطى كتابة تلك البيعة من كتاب الحكم فيصدر بها ما يكتبه ثم تأتى عقب ذلك بصورة الحال الواقعة في البيعة سردا ويشهد في آخرها"[3].

ويبدو أن سبب هذا التدني في كتابة الوثائق كانت نتيجة للمتغيرات السياسية التي تعرضت لها الأمة العربية على يد الأجانب، كما يشير قوله لذلك: " وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعجم على الأمر وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها

[1] - ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص203.

[2] - نفســــــــه، ص204.

[3] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 315.

حتى صار الفصيح لديهم أعجم والبليغ في مخاطبتهم أبكم ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد:

وصناعتي عربية وكأنني ألقى بأكثر ما أقول الروما[1]

وانتقد القلقشندي الكثير من البيعات التي تمت دون الخضوع لقوانين صياغة البيعات المعترف بها كنحو بيعة "المعتضد بالله أبي الفتح، داود" الموضوع له الكتاب[2]، وعهد المستكفي بالله أبي الربيع، سليمان" لولده المستوثق بالله" بركة[3].

غير أن بعض المؤرخين يعيبون على القلقشندي بعض الاختلاف حين يعيد كتابة الوثيقة في أكثر من موضع أو أكثر من مُؤلف، لذلك فقد نصحوا بشيئين إثنين: [4]

1- ضرورة ضبط وثائق القلقشندي على مثيلاتها في المصادر الأخرى بعد ما تبين أن في بعض وثائقه اختلافات لفضية ونقص في المعلومات.

2- ضرورة ضبط نصوص الوثائق الموجودة في مصادر القلقشندي المختلفة.

ومع ذلك فإننا يجب أن نخرج بنتيجة مهمة هي أنه من بين ما أورده القلقشندي وثائق نادرة ينفرد هو بها، ووثائق يتطلب العثور عليها في مصادرها وقتاً طويلاً، وجهداً مضنياً[5].

[1] - القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص79.

[2] - القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص 16.

[3] - نفســــــه، ص 339.

[4] - عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى، ص 144.

[5] - نفســــــه، ص 144.

4- مميزات النقد عند القلقشندي:

اختلفت مقاييس القلقشندي النقدية تبعاً للموضوع الذي يتناوله بالنقد فعندما يتناول الخلفاء والحكام يبتعد عن الموضوعية والحيادية اللتين عهدناه عليهما، وينقل روايات تكتنفها المبالغة والروح العدائية، وخاصة الاخبار المتعلقة بمرحلة الخلافة الأموية، وربما سبب ذلك اعتماده على مصادر تمثل وجهة النظر هذه دون أن يخضعهما للنقد والتحليل، وأيضاً، ميوله الشخصي، وآرائه التي تتفق مع وجهة النظر المعادية تلك، على الرغم من أنه بعيد زمنياً عن محور الصراع السياسي بين الطرفين.[1]

وعلى سبيل المثال نجد القلقشندي يصف عبد المالك بن مروان وصفا يعكس موقفه من الدولة الأموية خاصة وهو يعيش في كنف الدولة العباسية وموظفا ليدها: "ومما يحكى أنه لما أتته الخلافة كان قاعدا يقرأ في المصحق فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك وكان في غاية من الشح حتى كان يقال له رشح الحجر لبخله لان الحجر لا يرشح الماء إلا نادرا، يقال ان بعض اخصائه سمعه يقول اجع كلبك يتبعك فقال له يا أمير المؤمنين أما تخشى ان تلوح له غيرك بكسرة فيتركك ويتبعه، وكان مع شحه ابخر ظاهر البخر وكان اذا مر الذباب على فمه سقط لشدة بخره ومن أجل ذلك كان يلقب أبا ذباب".[2]

ويضيف حين يتحدث عن فترة حكم عبد المالك بن مروان قائلاً: "وولى على العراقين وخراسان الحجاج بن يوسف ففتك بأهله وأبادهم وقتل جمعا من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم"[3].

---

[1] - ظمياء السمرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص207.

[2] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص127.

[3] - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص132.

ويقف القلقشندي نفس الموقف من خلفاء الأمويين بالأندلس، فهو يسمي عبد الرحمن الداخل بالمستولي بقوله: " وكان المستولي على الأندلس عبد الرحمن الداخل الأموى فأقام بها إلى أيام الهادى وبعده"[1].

وفي نفس الوقت الذي كان ينتقد فيه الدولة الأموية كان ينزل بالدعاء بالخير، كلما ذكر خلفاء العباسيين خاصة بالديار المصرية، حيث يقول: "فلما انتهى الخبر إلى السلطان بادر الخروج إليهم في عدد قليل من العسكر وخف من الأثقال وسار من الديار المصرية وصحبته أمير المؤمنين "المعتضد بالله" أدام الله أيامه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ثمان عشرة وثمان مائة"[2].

ويميل إلى الروايات التي تؤيد العباسيين وتمجد عصرهم. فتراه يقول عن الخليفة هارون الرشيد: " كان أبيض اللون جميل الوجه طويلا سمينا قد وخطه الشيب سمحا شجاعا كثير الحج والغزو والصدقة والصلاة حتى يقال إنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة وكان محبا للعلماء مقربا لهم".[3]

ومن مميزات أسلوب القلقشندي النقدي تأثير شخصيته الدينية والفقهية، القائمة على استنباط الأحكام الشرعية بالتتبع والاجتهاد ورفض التقليد، وقد عبر هو شخصيا عن ذلك بقوله: "والمقلد لا يوصف بالاجتهاد، وشتان بين من يعرض الحكم عن دليل، ومن جمد على التقليد مع جزم الإعتقاد".[4]

---

[1] – نفســـــــه، ص189.

[2] – نفســـــــه، ص215.

[3] – نفســـــــه، ص193.

[4] – ظمياء السمرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص210

تنوع الآراء التي كان القلقشندي يوردها في المسألة الواحدة، ويعرض الآراء المختلفة لرجال العلم ثم يرجح ويعترض، وينتقد ثم يعطي الرأي النهائي.

فهو يقول مثلاً: "وقد اختلف في أصل وجوبها فذهب قوم إلى أن وجوبها ثابت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم عند التنازع ولولا ذلك لكانوا فوضى مهملين... وذهب آخرون إلى أنها إنما وجبت بالشرع ولا أثر للعقل في ذلك لأن الإمام يقوم بأمور شرعية كان يجوز في العقل لا يرد التعبد بها فلم يكن العقل موجبا لها واحتج لذلك بأنه لابد للأمة من إمام يقيم الدين وينصر السنة وينصف المظلومين من الظالمين ويستوفي الحقوق ويضعها مواضعها"[1].

لقد اتسمت منهجية القلقشندي بالتنوع في استعمال الاسلوب النقدي فقد تعامل بحذر في التعامل مع بعض المصادر، وحاول أن يعلل ويقدم تبريرا لبعض وجهات نظره في كثير من الأحيان، وقد غلبته عاطفته في بعض الأحيان فلم يستطع أن يخفي مواقفه.

[1] – القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص29، 30.

الخاتمة

عاش المشرق الإسلامي خلال قرنين السابع والثامن هجري ظروفا سياسية خاصة، فكانت البلاد عرضة لغزو خارجي هدد كيان العالم الاسلامي في ثقافته ووجوده، فكان الغزو الصليبي بداية هذا الخطر وما حمله من أخطار دينية، ثم جاء غزو التتار الذي كان من نتائجه المباشرة سقوط الخلافة الإسلامية ببغداد (656هـ/1258م)، وما تلاه من تراجع ثقافي بسبب إتلاف العديد من الكتب،وصاحب كل ذلك وجود تنافس وتناحر إسلامي داخلي بين الأمراء والسلاطين.

كان من النتائج الاجتماعية لهذا الوضع ظهور جنس بشري جديد على مسرح الأحداث سمي تاريخيا بالمماليك، وهم صنف من الرقيق البيض الذين جلبوا منذ مراحل متقدمة من تاريخ الدولة العباسية، لكن دورهم برز خلال هذه المرحلة، فكان الأمراء والسلاطين يشترون الرقيق البيض ليخضعوهم لتنشئة إسلامية خاصة، فيربونهم على الأخلاق الإسلامية، ويتدرجون في التعليم حتى يكتسبون ثقافة تأهلهم للحصول على مناصب مهمة، إلى جانب ذلك فقد كان المماليك يخضعون إلى تدريبات عسكرية خاصة تأهلهم ليلعبوا الدور الذي جلبوا من أجله على أكمل وجه.

تنافس السلاطين في جلب المماليك للتقوية جانبهم، فكان من نتيجة ذلك أن تمرد العبد على السيد أنقلب المماليك على أسيادهم فأصبح منهم السادة والسلاطين، وظهرت بسبب ذلك دولة باسمهم هي دولة المماليك في مصر والشام.

قامت دولة المماليك بدور حضاري مهم، فمن جانب وقفت في وجه الغزو المغولي، وألحقوا بهم الهزيمة تلو الأخرى، ومن جانب آخر أفشلت المخططات الصليبية في السيطرة على العالم الإسلامي.

تنبه المماليك إلى خطورة سقوط الخلافة الاسلامية، ففكروا في بعثها على الديار المصرية ليستفيدوا من تأثيرها الروحي على المسلمين، ويكون لهم دور الزعامة في العالم الاسلامي.

رغم مبايعة السلطان المملوكي للخليفة العباسي إلا أن السلطة الحقيقية بقيت بيد السلطان المملوكي، فكان يعزله وقت ما يشاء ويعيده وقت ما أراد، حتى وصلت إلى ثلاث مرات في فترة السلطان محمد بن قلاوون مع الخليفة الواثق.

رغم الظروف السياسية كانت صعبة إلا أن مصر عاشت نهضة علمية كبيرة، فقد انتقلت النهضة العلمية من بغداد على القاهرة وهذا بسبب انتقال الخلافة إليها، فظهرت مجموعة من المؤلفات في شتى الميادين، فاعتبر بعض المؤرخين أن هذه النهضة العلمية عبارة عن تعويض نفسي جماعي، للانتكاسات السياسية والعسكرية المتتالية، فكان للظروف السياسية تأثير عكسي على الأوضاع الثقافية.

ظهرت في الفترة المدروسة العديد من كتب التاريخ فاهتم المؤلفون بدراسة السير والتراجم، وكتب المهتمة بتاريخ المدن والأقاليم، والخطط والآثار، لكن أهم ظاهرة عرفتها هذه الفترة هي ظهور مجموعة من المؤلفات الموسوعية.

كان من خصائص التأليف الموسوعي أنه مزيج من الأدب، والسياسة، والفن، والطرف، والثقافة الشعبية، والعمران، وكان المؤلف ينقل فيه خبرته الطويلة في ميدان من الميادين، ثم يمزجه بمجموعة من المعارف الأخرى، فيخرج التأليف على شكل موسوعة.

كان من بين المؤلفين الموسوعيين القلقشندي الذي أراد من خلال كتابه "صبح الأعشى في صناعة الانشا" أن يقدم للكتاب الإنشاء المتخصصين نصائح في كيفية مزاولة مهنتهم، فتوسع في مُؤلفه حتى أصبح موسوعة مترامية الأطراف.

عاش القلقشندي في مصر في فترة حكم المماليك، فدرس الأدب والفقه والتاريخ وارتحل عبر أرجاء مصر طلباً للعلم، ثم تقلد عدة مناصب في القضاء والإنشاء، ثم حاول أن ينقل خبرته الطويلة إلى كتابه صبح الأعشى.

برع القلقشندي في علم الأنساب فألف فيه كتابان مهمان هما "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، وكتاب "قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمان"، وكانت الغاية من ذلك إثراء المكتبة الاسلامية بمؤلفين يساعدان كل من يريد الاشتغال في علم الأنساب.

يمكن اعتبار القلقشندي من أهم من استعمل للمنهج التاريخي الذي يعتمد على استعمال الوثيقة الإدارية المكتوبة، وقد ساعده على ذلك عمله في ديوان الكتابة.

إن كتاب "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" من أهم التأليفات التي ظهرت في النظم الإسلامية عامة والتي درست تطور الخلافة خصوصاً.

ألَّف القلقشندي كتابه مآثر الإنافة فأهداه إلى الخليفة العباسي أبو الفتوح داود المعتضد بالله الذي تولى الحكم سنة (817هـ/ 1422م).

يعتبر كتاب "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" من أهم كتب القلقشندى، وإن كان قلّما يُذكر عند المؤرخين ودارسي النظم الإسلامية، ذلك أن هذا الكتاب حسب ما يحتويه من معلومات وإشارات يعتبر خلاصة بعض الأفكار التي جاء بها القلقشندى في كتبه السابقة ومنها صبح الأعشى.

فالكتاب تجري فيه المعلومات بطريقة مرتبة، في دقة ونظام بديع وتتوالى الحوادث والتواريخ بأسلوب سهل ممتنع، بحيث ينطلق وراءها القارئ في غير ملل ولا سأم، ثم تجيء بعد ذلك أنواع العهود والعقود والمخاطبات، فيلمس القارئ مابين العصور من تفاوت، في أسلوب

جميل، وسجع متكلف، هذا إلى جانب ما ساقه المؤلف من طرائف وتنبيهات تمتع القارئ وتزيد معلوماته ومعارفه.

يطرح الكتاب إشكالية مهمة كانت دائما أساس التاريخ والكتابة التاريخية الإسلامية منذ العهود الأولى للتاريخ الإسلامي، وهي قضية الخلافة وتطورها عبر التاريخ، والكاتب يطرح هذه القضية في أسلوب تاريخي أدبي سلس متتبعا مراحل تطور الخلافة الإسلامية.

وهو بذلك يستعمل أسلوبا تاريخيا بيانيا يتنوع بين الطرافة والجدية بشكل سهل ممتنع، مع مناقشته العقلية بالحجة والبرهان لبعض القضايا المتصلة بالخلافة، فهو يحاول تحديد معنى الخلافة، وألقابها وشروطها، ثم يستعرض خلفاء التاريخ الإسلامي، الراشدين والأمويين والعباسيين، ويقفز بعد الحديث عن المستعصم ليكمل السلسلة بخلفاء العباسيين في القاهرة حتى يصل إلى المعتضد بالله، ثم ينتقل في الجزء الثاني للحديث عن خلفاء بني أمية بالأندلس والفاطميين والحفصيين، مبينا بطلان دعوى الطوائف الثلاثة في الخلافة، ثم أقبل يذكر البيعة والمذاهب بها، وعهود الخلفاء وأشكالهم.

لقد اعتمد القلقشندي في كتابه على عدة مصادر تاريخية تنوعت حسب الضرورة، فقد استعمل الوثيقة تارة في الاستدلال على بعض العهود والمواثيق، واستعمل المشاهدة الشخصية والرواية الشفهية خاصة في الجزء الذي تحدث فيها عن الخليفة المعتضد بالله الذي أُلِّف من أجله الكتاب، وفي حالات أخرى اعتمد على مؤلفات سابقة.

كان لاستعمال الوثيقة في كتاب "مآثر الإنافة" نصيب كبير من أجل إبراز الحقيقة التاريخية، وهذا ما يبرز اهتمام القلقشندي في تدعيم وجهة نظره وتقويتها.

تعتبر المشاهدة المباشرة والمعلومة المروية من طرف شهود عيان أهم المعلومات التاريخية التي أوردها القلقشندي في كتابه "مآثر الإنافة".

استعمل القلقشندي النقد التاريخي يشكل يبرز شخصيته العلمية المستقلة، فقد نقد بعض الوثائق التاريخية التي أوردها، وبنفس الطريقة نقد الرواية التاريخية التي استقاها من بعض المصادر، وحاول أن يتحرى الصدق في نقله للمعلومة.

وهذا لم يمنع من وجود مواضع عديدة في الكتاب تعاطف فيها المؤلف مع بعض الشخصيات كما أبرز إعجابه بالبعض الآخر، وانتقد بعض الشخصيات، ووصف البعض الآخر بأوصاف غير علمية.

يعتبر كتاب "مآثر الإنافة" من الكتب المهمة والقليلة التي تناولت موضوع الخلافة من حيث معناها، شروطها، رسومها وتقاليدها، تطورها، وتصنيفها، وقد استعمل في ذلك مادة علمية وفيرة ومهمة.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- المصـــــادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي محمد عز الدين ، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج9، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

- البابانى، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج1.

- بن تغري بردي، يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1.

- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1969.

- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج13، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت

- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، ج2، ط2، دار صادر بيروت، 1995. ص274.

- ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحاته، دار الفكر بيروت، 1988، ج1.

- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، ج5، دار العلم للملايين، 2002،

- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.

- السيوطي، جلال الدين ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ج1، ص 117.

- ابن شاكر، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون ، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1973، ج2، ص179.

- أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين الدمشقي المعروف، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة : بيروت، 1997، ص411.

- ابن طباطبا، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، 1997.

– القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العالمية، بيروت، ج3.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1982.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروتن 1980.

- أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، ج 12، دار الفكر، 1986.

- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العالمية، بيروت، 1997.

- الماوردي، أبو الحسن علي ، الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة.

– المراجع:

– بك، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981.

– البغدادي، السيد عبد الستار بن درويش الحسنى ، نظرات في كتاب نهاية الارب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي، ط1، دار الفتح، 2011، ص20.

– بروكلمان، كارل ، تاريخ الأدب العربي، ج5

– حسن، على ابراهيم ، استخدام المصادر وطرق البحث، في التاريخ الإسلامي العام والتاريخ المصري الوسيط، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة، 1980.

– حسين، حمدي عبد المنعم محمد، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000.

– شوقي أبو خليل، من كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي، ط2، دار الفكر، دمشق، 1997. ص12.

– السامرائي، الظمياء محمد عباس ، المنهج التأريخي عند القلقشندي –دراسة تحليلية–، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2001،

– شاكر، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج3، ط1، مارس 1990، دار العلم للملايين بيروت، ص 98.

– الصياد، محمد محمود ، نظرة جغرافي في صبح الاعشى، أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، المكتبة العربية القاهرة، 1973. ص203 ؛

- محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات "من دولة المماليك الجراكسة"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص16.

- فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1 مطبعة جروس بيرس، طرابلس(لبنان) ص55.

- عودات، أحمد وآخرون، تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري، دار الكندي، إربد (العراق)، 1990، ص94.

- غانم، حامد زيان ، صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1978، ص09.

- فرغلي، إبراهيم، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، العربي للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2000.

- قاسم، قاسم عبده ، علي السيد علي، الايوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ص 23.

- محمد، صباح محمود ، دراسات في التراث الجغرافي العربي، وزارة الثقافة بغداد، 1981.

- متز، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ت: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، ج1.

الدوريات:

- الدباغ، محمد بن عبد العزيز ، نظرات حول كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، مجلة دعوة الحق، العدد الخامس، السنة السادسة، 1963.

- الموسوي، جواد مطر ، علم الأنساب عند القلقشندي، مجلة المورد، العدد الأول، السنة 2007. وزارة الإعلام، بغداد، العراق.

الرسائل الجامعية:

- أحمد عبد الرحمن الذنيبات، أبو العباس القلقشندي أديبا، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته 2001.

ملاحق

الملحق "1"

الخلفاء العباسيون في العراق

رقم	اسم الخليفــة	بداية الحكم		نهايةالحكم	
		الهجري	الميلادي	الهجري	الميلادي
1	أبو العباس عبد الله السفاح	132	749	136	754
2	أبو جعفر عبد الله المنصور	136	754	158	775
3	أبو عبد الله محمد المهدي	158	775	169	785
4	أبو محمد موسى الهادي	169	785	170	786
5	أبو جعفر هارون الرشيد	170	786	193	809
6	ابو موسى محمد الأمين	193	809	198	813
7	أبو جعفر عبد الله المأمون	198	813	218	833
8	أبو إسحاق محمد المعتصم بالله	218	833	227	842
9	أبو جعفر هارون الواثق بالله	227	842	232	847
10	أبو الفضل جعفر المتوكل بالله	232	247	847	861
11	أبو جعفر محمد المنتصر بالله	247	861	248	862
12	أبو العباس أحمد المستعين بالله	248	862	252	866
13	أبو عبد الله محمد المعتز بالله	252	866	255	869
14	أبو إسحاق محمد المهتدي بالله	255	869	256	870
15	أبو العباس أحمد المعتمد على الله	256	870	279	892
16	أبو العباس أحمد المعتضد بالله	279	892	289	903
17	أبو محمد علي المكتفي بالله	289	903	295	908
18	أبو الفضل جعفر المقتدر بالله	295	908	320	932
19	أبو المنصور محمد القاهربالله	320	932	322	934
20	ابو العباس أحمد الراضي بالله	322	934	329	940

21	أبو إسحاق إبراهيم المتقي لله	329	940	333	944
22	أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله	333	944	334	946
23	أبو القاسم الفضل المطيع لله	334	946	363	974
24	أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله	363	974	381	991
25	أبو العباس أحمد القادر بأمر الله	381	991	422	1031
26	أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله	422	1031	467	1075
27	أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله	467	1075	487	1094
28	أبو العباس أحمد المستظهر بالله	487	1094	512	1118
29	أبو منصور الفضل المسترشد بالله	512	1118	529	1135
30	أبو جعفر المنصور الراشد بالله	529	1135	530	1136
31	أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله	530	1136	555	1160
32	أبو المظفر يوسف المستنجد بالله	555	1160	566	1170
33	أبو محمد الحسن المستضئ بأمر الله	566	1170	575	1180
34	أبو العباس أحمد الناصر لدين الله	575	1180	622	1225
35	ابو نصر محمد الظاهر بأمر الله	622	1225	623	1226
36	أبو جعفر المنصور المستنصر بالله	623 -	1226	640	1242
37	أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله	656-	1258	640	1242

الملحق "2"

الخلفاء العباسيون في العراق

الرقم	الخليفـــــــة	بداية الحكم		نهاية الحكم	
		الهجري	الميلادي	الهجري	الميلادي
01	أبو القاسم أحمد المستنصر بالله	658	1261	658	1261
02	أبو العباس أحمد الحاكم بأمر الله	660	1261	701	1302
03	أبو الربيع سليمان المستكفي	701	1302	740	1340
04	أبو العباس أحمد الحاكم بأمر الله	740	1340	741	1341
05		741	1341	748	1353
06	أبو إسحاق ابراهيم الواثق بالله	741	1341	741	1341
07	أبو الفتح أبو بكر المعتضد بالله	748	1353	763	1368
08	أبو عبد الله محمد المتوكل على الله	763	1368	779	1384
09		780	1385	785	1390
10		791	1396	808	1413
11	أبو يحي زكريا المعتصم بالله	779	1384	780	1385
12		788	1393	791	1396
13	أبو حفص عمر الوائق بالله	785	1390	788	1393
14	الإمام ابو الفضل العباس المستعين بالله	801	1413	817	1422
1	أبو الفتوح داود المعتضد بالله	817	1422		

الملحق: 3

خريطة توسع دولة المماليك

فهرس الموضوعات

مقدمـــــــــة أ

الفصل الأول: حياة القلقشندي وظروف عصره: 01

1- الظروف السياسية لعصر القلقشندي: 03

أ- نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية 03

ب- المماليك بين الحروب الصليبية وإحياء الخلافة العباسية وحملة المغول على الشرق 14

2- الظروف الثقافية لعصر القلقشندي: 42

3- علم التاريخ في عصر القلقشندي: 45

أ- المنهج المتبع في كتابة التاريخ في مصر خلال هذا العصر 45

ب- أهم مؤرخي العصر 53

جـ- أهم التآليف التاريخية لهذا العصر 61

4- حياة القلقشندي: 74

أ- اسم ونسب القلقشندي 74

ب- مولده ونشأته وتعليمه 75

جـ- الوظائف التي تقلدها القلقشندي 77

5- مساهمات القلقشندي العلمية: 78

أ- أهم مؤلفات القلقشندي 78

ب- العلوم المساعدة لعلم التاريخ في مؤلفات القلقشندي 84

الفصل الثاني: كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة (الشكل والمحتوى)

96

1- تاريخ تأليف الكتاب 98

2- الشكل: 101

أ- تنظيم الكتاب وتقسيمه 101

ب- جمع وعرض المادة (كيفية النقل من المصادر) 128

جـ- اللغة والأسلوب 135

3- المحتوى: 141

أ- مصادر الكتاب: (المؤلفات) 141

ب- المادة التاريخية المتعلقة بالخلافة في مآثر الإنافة 160

1- مفهومها، حكمها، وكيفية إنعقادها 160

2- رسوم وتقاليد الخلافة في مآثر الإنافة 169

- ألقاب الخلفاء 169

- الوظائف المساعدة لمنصب الخليفة 171

- ترتيب الخلافة 174

- شعار الخلافة 177

الفصل الثالث: الرواية التاريخية عند القلقشندي في كتابه مآثر الإنافة 1179

1- الرواية عند القلقشندي في كتاب مآثر الإنافة: 181

أ- أنواع الرواية التاريخية 181

ب- طرق عرض الرواية التاريخية 185

جـ- الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية 187

2- منهج النقل من المصادر في كتاب مآثر الإنافة: 192

أ- النقل من مختلف المصادر: 192

- الأحكام السلطانية للماوردي 192
- العقد الفريد لابن عبد ربه 195
- المختصر في تاريخ البشر لأبي الفدا 201
ب- النقل من مؤلفات القلقشندي السابقة: 203
- صبح الاعشى في صناعة الإنشا 203
- نهاية الارب في معرفة أنساب العرب 208
3- منهج القلقشندي في تصنيفه للخلافة: 211
أ- الخلافة المشروعة 211
ب- الخلافة الباطلة 218
4- النقد التاريخي في كتاب مآثر الإنافة: 223
أ- نقد الرواية التاريخية 223
ب- نقد المصادر 232
جـ- نقد الوثائق 233
د- مميزات النقد عند القلقشندي 239
خاتمـــــــة 242
ملاحـــــــق 248
فهـــــــــرس المصادر والمراجع 253